د. شوقي خيرالله

قرطاجة

العروبة الاولى في المغرب



منشورات المركز العلمي

دار النشر: مركز الدراسات العلمية/ والمركز العلمي

الطبعة الأولى: 1992

التنضيد: علي حمدان

الأهداء

لأن الذين تفضّلوا بتبنّي مشروع الكتاب في مادته وروحه أبَوا أن تذكر أسماؤهم، أو أن يقال فضلهم،

فإنّي أستأذن بشكر منفذية وأختها في جنوب لبنان، وأخصّ مديرية صور، في الحزب السوري القومي الاجتماعي الموحّد، وأهل صور جميعاً، فهم أهل بيت إيليسّا.

وأُهدي هذا الكتاب إلى أشبال الجيل الجديد الذين:

* يتدبّرون بالعقل الناقد وبالرؤية الثاقبة معانيَ النهضة وعلامات الأزمنة،
* ويقرأون الزعيم سعادة بذهنية الثابت والمتطور والمتشابه فتظلّ العقيدة تعانق العلم بثقة وسلطان،
* وينْفذُون إلى آفاق المستقبل متسلّحين بأنوار لا تخبو، بفضل نسغ الحقيقة ونخوة أبناء النور والحياة.
* وهكذا تظلّ حقيقة النهضة هدىً ونبراساً.

شوقي خيرالله
1 ـ حزيران 1992

حول هذا الكتاب

هـذا الكتاب مـترجم معرّب مـطوّر، وأعملتُ فيه أسلوب التحـوير الحـر والتـدبّـر والموالفة. ولست أستحبّ أن ألطشه فـألصقه بـاسمي بكليته، ولكنـه لم يعد يخصّ أحـداً ممن استقيتُ منهم في كثير أو قليل. فقد تغيّر جوهر الكتب التي استعنتها إذ أخضعت كلّ شيء لأطروحتي المركزية في فهم قرطاجة وتفسيرها ورسالتها.

إني لمعـترف بفضل من أخـذتُ منهم، دون أن أحمّلهم مسؤولية مـا آلت إليه الأنـظومة الفكرية في كتابنا هذا سواء عنوانه أم سياق النصّ أم القصد الأعلى.

وإني لشاكر لجميع من عارضوا المشروع وكذلك لجميع من أيـدّوه وسانـدوه ونقدوه سواء أرافقوني حتى الخلاصات الأخيرة أم جزّأوا موافقتهم.

إني واضع هذه الأطروحة على مشرحة النقد عادلاً كان أم جائراً. الصراع الفكري الحرّ هو الميزان الأخير. يكفيني أن أنير شمعة في صرح النهضة. والباقي هباء منثور.

الأجيال الآتية هي الحَكَم.

بو علي شوقي خيرالله

1 ـ حزيران ـ 1992

ملاحظة عامة
حول مستندات هذا الكتاب

لم أشأ أن أعجق الكتاب والصفحات بأسانيد مرقّمة وبأسماء المؤلفين. الغاية من الكتاب موضّحة في عنوانه. وهي جزء من ترسّلي القومي الاجتماعي، السوري العربي. من الناس مؤيدون لهذه النظرية وآخرون معارضون. والخلاف يندرج في رتبة أعمّ وأشمل حول العروبة ومبتدأها في الزمان والمجتمع، وحول فحواها ومعانيها ومواصفاتها ومقوّماتها. لست أعرف كتاباً حول قرطاجة إلا طالعته واستقيت منه. فالمؤيدون سيوافقون والمعارضون موقفهم معاند وهم أحرار. ولم أجد نفعاً إضافياً في فَهْرَسَةِ المراجع.

في الكتاب آراء لسوايَ تبنّيتها على مسؤوليتي التامّة، واجتهادات أنا توصّلت إليها وتفاسير ذات منطق وبرهان. وهكذا الكتب. وقد بذلت جهدي لقول الحقيقة القومية وتقديم البراهين. وإنّي لصادق في كل ما قلت. ولكلٍ رأيه.

فهرس الكتاب

قرطاجة
العروبة الأولى في المغرب

مقدمــة عامــة :

قرطاجة دامت دولةً وامبراطوريةً حوالى الألـف سنة. وفَدَ أهلها الأوائل الكنعانيون من صور/ سورية، وكانوا قد وفـدوا إلى سوريـة من حضرموت/ اليمن. إنّهم فـرعٌ من الحميريين، من حضرموت اليمن.

ولكنّ حقيقة قرطاجة مغمورة في تشويه روما وأحقادها الموروثة. فاتّخذها الوارثـون الغربيون، واللاتين بـالأخص، كأنّهم مبهـورون ومجذوبـون بالثّـارات التي اختزنتهـا روما ضد قرطاجة وبالمخاوف التي عانتها من هـانيبعل. وانتقـل الثأر من الحـرب إلى الاقتصاد إلى الحضارة وإلى الاسم الكنعاني رمّةً وجميعاً، وإلى الإثم الكنعاني.

الـواقع المرّ أنّ أكثر مـا شوّهت رومـا المنتصرة وما بشّعت في التـاريـخ المزوّر عن قرطاجة والحضارة الكنعانية وعن هانيبعل وهملقار وحنّون هو كذبٌ وافتراءٌ يُفترى.

قرطاجـة شأنٌ كنعـانيّ حميريّ، سـوريّ يمني، إذن عربيّ جملةً وتفصيـلاً. وإذا كان الصّـوريّون الكنعـانيون قـد أسّسوا قـرطاجـة وأنشأوهـا على قيم صـور وكنعان وسـوريـة والعـروبة الحمـيرية معـاً، فتلك الحضارة تستحق إذن أنْ تـدرس كظاهـرة من ظواهـرنـا القومية والحضارية ومن الحضارة المسكونية.

وأوّل ما يواجه المنقّب والباحث هو الإفتراء واللعنة، وأنّ قرطاجة حاكَمَها أعـداؤها بـدون استجواب ولا حضـور، وبدون محضر أو دفـاع. وتبنّت النخبة اليـونانيـة الأحقـادَ

الرومانية، وقد استزلمت الأولى للثانية بعد النصر الروماني، فأمعن المثقفون المأجورون في ورشة التشويه الحضاري والإنتقام من العظمة القرطاجية ومن الحقيقة الكنعانية العربية.

قرطاجة يتيمة من تاريخ ومن مؤرّخين. لقد محقه ومسحه ومحاه = هكذا شُبِّهَ لهم = المنتصرون الغزاة السفّاحون النهّابون. ومن شدة خوفهم من أن يطّلع شعب روما والامبراطورية على الحقيقة، محقوا من التاريخ ما طالت أيديهم وما زوّرت أقلامهم وما هدّمت معاولهم والنّار. والتاريخ الباقي لقرطاجة هو من صنع أعدائها أعداء إيل وسورية وكنعان وصور والحِمْيريين واليمن والعرب والعروبة. المجرم كتب تاريخ الضحيّة، واللجيون الهمجية أزالت آثار العمار والمكتبات والمنشآت الاجتماعية ولم تُبْقِ حجراً على حجر في عملية نشر السلم الروماني المزعوم. وسوف ترون معنا في سياق هذا الكتاب وحتى خاتمته أنّ السلم الروماني كان سلسلة حروب غير منقطعة تتّسم بالهمجية والغزو والسلب. ولسوف يتبيّن أنّ الشعوب المقهورة ذات الحضارة والشعوب التي صَحَتْ على مقاومة تلك الحروب قد رفضوا جميعاً سيطرة روما والتنّين طوال عمر الامبراطورية التي قامت على السيف وماتت بالسيف على يد أقوام وأممٍ جعلت من تدمير روما العاتية والكافرة واجباً دينياً وتكليفاً إلهياً.

* * *

تحت القلم الروماني المنتصر والدّيّان والمنتقم آمّحت طرق البحار القرطاجية وآمّحت مسالك الصحاري وذكر القوافل والتبادل والتجارة والزراعة والصناعة والعمران، وآمّحت الحواويز العجائبية التي انبثقت من حضارة سبق أن أقامت سدود اليمن وحضرموت ومأرب، والجنّات المعلّقة في بابل وقنوات دمشق والغوطة وسدود لبنان وجنّات القاسمية والدامور وصيدون وبيروت وطرابلس وآبار الأنباط وحضارة كريت وهندسة صور وأساطيل فنيقيا وجلالي الكروم في منحدرات لبنان.

تحت القلم الروماني الحقود إمّحت أسرار الصياغة والمعاملات والصكوك والبنوك والاقتصاد العالمي والمزارع السرية ومصايد السمك الخفية ومرابط الجمال والنّوق حتى لما يعرف أحدٌ كيف اختفى الجمل في أيام الاستبداد الروماني وكيف ظهر فجأةً في أفريقيا ما أن تولّى عرش روما امبراطور عربي من قرطاجة أم من حوران أو من حمص. وما من مؤرخ عربي تساءل مرة أو بحث وانتقد ماذا كانت تنتج روما في الاقتصاد المحلي والدولي؟

ماذا هي الصناعة الرومانية العظمى والأساسية؟ ما هي تجارتها الأصلية؟ بل وماذا كانت المهمة الواعية الحضارية في الوجدان الروماني؟.

وأين هي معابد قرطاجة الدهرية التي كَهَنَ فيها طوال ألف عام سدنة من صور ومن حضرموت ومن حِمْيَر ومن أعالي أفقا وجبيل؟ أين راحت من التاريخ وكيف آمّحت نقابات المعماريّين والبنّائين الذين بنوا الأهرام ومعابد مصر؟ أين اختفت وبادت طرق القوافل البرية من جبل طارق واسبانيا أو من مرسيليا عبر غاليا وجرمانيا حتى أقاصي شمالي أوروبة وحتى وادي النيجر جنوباً؟

وكيف يمكن لإمبراطورية قامت على الغزو والسيف مثل روما أن تفهم وتدرك وتستوعب أسرار أمبراطورية قرطاجية دامت برّاً وبحراً ألف عام بدون حروب داخلية ولا ثورات اجتماعية ولا ردّات قَبليّة ولا دينية ولا طائفية، ولا طبقية، بل بدون أزمة اقتصادية أو مالية أو نقدية؟.

* * *

وأمّا الآن، وقد عادت النهضة تتنفّس في المهد الأعرابي البدوي، وفي مهدها الحضري العربي السوري، وفي مشرقها الصوري الكنعاني، وفي قرطاجتها المغربية، وفي حوض النيجر الذي سبق واقتحمته العروبة المغربية الكنعانية، فقد صار من واجب العلماء والمفكّرين والمستقبليّين من بني العروبة أن يعيدوا الأبحاث إلى أصولها، وأن ينطلقوا إلى المستقبل على أسس حقيقية وعادلة. ولم يعد يجوز أن نكتب تاريخنا بناءً على معلومات مستقاة، وفقط، من نشرات الدعاية العدوّة والبلاغات العسكرية الهمجية. وإذا كنا نتمجّد بالإثم الكنعاني العظيم فلا يحق لنا ولا يجوز أن نظلّ تحت اللعنة الرومانية على قرطاجة وعلى حضارتنا عامة. وبدلاً من التغنّي الببغائي بالسلم الروماني، صار ينبغي أن نجري احصاءً للمجازر والإبادات الجماعية الرومانية، وأن نصفّي حساب سنوات الحرب والسّلم في هذا الإمبراطورية الدموية، وأن نقيّم حصيلة سنوات حرب أمتنا وحضارتنا وأقوامنا وحلفائنا ضد السيطرة والاستعمار والقهر الروماني.

والعجب الأكبر هو موقف مثقفينا ومدارسنا الفكريّة إزاء المعطيات المنزّلة والشعارات المزيّفة التي زرعتها حضارة معادية لنا في عقولنا وقلوبنا وكتبنا ومدارسنا ومفاهيمنا وقناعاتنا وعقائدنا حتى تغلغل الفساد والسرطان إلى الوجدان الأعلى

والوجدانات الدنيا وعطّل الحقيقة القومية في أجيال كثيرة. وإلا فكيف يغفل مثقفونا الاجتراريون (وقد مرّ أكثرنا في هذه المرحلة أيّام جاهلية كلٍّ منا الخاصة في الورشة الجاهلية العامة المعاصرة)، كيف نغفل أن امبراطورية قرطاجة التي دامت حوالى الألف سنة متواصلة بغير مَلَكيّة ولا إقطاع ولا عسكريتاريا، لم تعرف ثورات شعوب ضدّ استبدادها أو استغلالها لهم ولم تعرف حروب تحرير ضدّها، فيما كانت تمتدّ رقعتها الجغرافية ما بين ليبيا وايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا وكل المغرب المعاصر والصحراء الكبرى والأطلسي ووادي النيجر وحتى الكاميرون. ولم يخطر ببال مثقف تاريخي تقدّمي قومي أن يدرس هذه الظاهرة الفذّة وأن يتعمّق في النظام الفدرالي أو التعاوني أو الأممي المسكوني أو الاقتصاد التكاملي الذي أقامته هذه المهاجرة الوارثة للعروبة المشرقية الكنعانية الآتية بدورها من تجربة خليجية سابقة، النابتة أصلاً في حضرموت واليمن وفي شواطىء وسواحل العَرَبة الجنوبية.

لسنا في مقام دعاية. ولكنّما هو تحريض ثقافي. بل مطالبة قومية بالعدالة. بل تقريع للذات والسوى. بل مواريث نستعيدها كأبناء أحرار نما عقلنا القومي بهدى ممّن يعلّمون، ثم صار حسّنا المنطقي النقاد البحّاث يخجل أن تمرّ فيه وإليه معلومة أو مقولة نحراً من قلم الغير إلى مستودع ذاكرتنا، بدون تمحيص. بل إنّ الأحرار ليرفضون ويتأبّون ويتمرّدون ويخجلون أن ينفذ إلى سجلهم الفكري وإلى مقادس الوجدان وإلى محتوى القيم المطلقة، كلامٌ جُلُّ حجته أنه فوقي متنزل من سلطة تعاقدية. لا لم يعد يجوز أن يكون الإنضباط وحده سبباً لفرض أم لتقبل أفكار على أنها حقائق وثوابت. بل العقل الباحث، ورصيد ثقافة، واجتماع عقول متعاونة لهو الصراط الأقوم لتقبّل أم لرفض. وإنه لموقف كرامة فكرية يشمل شأن قرطاجة وغيرها، ويقي من زللٍ ويعصم من غرور. وإذا كان القرطاجيون بحّارة ماء وقوافلة صحراء، وإذا كانت كتابتهم قد تسطّر جلُّها على الماء والرمال، أو قضت عليها نار الأحقاد الرومانية ومطاردةٌ حضارية حقود ما انفكّت تستغلّ نصرها العسكري في تدمير مدرسة وإحراق مكتبة وإبادة أثر ومنع شكوى، فإن واجب الأحرار المعاصرين، إزاء اللعنة الرومانية كما إزاء اللعنة الصهيونية، هو أن يعيدوا كتابة التاريخ وأن يستفعلوا القوة التي فيهم كيما يغيّروا التزوير الذي شوّه تاريخنا.

وإذّاك نعرف ونعلّم أنّ قرطاجة كانت، فوق بحريّتها وقارّيتها، مدينة مهنيين وصناعيين وصاغة وفخّارين وآجريّين، ومعدنّين وزجّاجين وكيماويين وعقيريين، إضافة

إلى الصناعات الغذائية الأخرى، وإلى صناعة النسيج والتطريز والمهن البنائية وأسرار العمران ونواميس إنشاء الدول والأسواق.

قرطاجة الأم، مثل صور وصيدون وجبيل وأرواد، ومثل دمشق وحلب وماري وأشور وأوغاريت وبابل، ومثل صنعاء ونجران وعدن ومكّة ويثرب وبترا وعُمان وشبوة، كانت مدينة الأسرار المهنية المتوارثة، ومدينة الحيل التقنية في صباغٍ وحيد وفي تربية المواشي وزراعة وتجسس مهني متطور.

وقرطاجة كانت مدينة مصارف وسوق أموال وودائع، وسوق مقايضة ومقارضة، ومدينة صفقات دولية وتبادل سلع وصداقة وتقنيات.

وقرطاجة مدينة المعبد الأم للمغرب، ظلّت أبداً بنتاً لهيكل ملقرت الصّوريّ، وتؤدي له سنوياً، ولمدّة ألف عام، واجب الحج إلى مناسكه وواجب النذور والتبرك بغية المحافظة على جذور دهرية مقدسة وعلى شرعية كنعانية حضارية مشرقية عربية لم تغب ولا برهة عن الوجدان القرطاجي الحي طوال ألف سنة من القوة والبعد والاستغناء المادي الظاهر. وفي هذا المجال تضرب قرطاجة المثال الأعلى على أصالة ووفاء ونبل محتد وإدراك لنواميس التضامن الجبهوي بين مشرق عروبة ومغربها ونيلها ويمنها.

ولقد ظلّت قرطاجة، المصلوبة على رجمة الحقد الروماني، أقوى وأخلد من اللجيون الهمجي ومن اللهيب، والملح المزروع، ومن البدويّ السراق ومن بومة الخراب ودود المقابر، ومن سكة الروماني الوحش ومن معول تهديمه المُسْتَتِمْ ومن اغتصاب آلهة المنتصرين لمقدّسات الإلّه القرطاجي الحق.

وكأنما روما المنتصرة قد أوكلت، من بعد اللجيون والبدوي والغبار والفناء والملح والمعول، أمر قرطاجة إلى لجنة لمحو الحضارة والأثر والبناء والكتاب ولوحة الآجرّ والعملة والشرائع واللغة والقبيلة المتعاملة والمحطّات التجارية ومناخات القوافل. وحسبت أنها نجحت طوال مدة الامبراطورية الرومانية الظافرة. فلما ابتليت روما بقصاص العدل التاريخي الأعلى وتسلّط عليها ما طالما مارسته مع الشعوب والأمم والحضارات، وارتخى السيف الروماني الحقود من يد حامليه، عاد الفينيق القرطاجي الكنعاني العربي يستفيق من غيبته الدهرية، وظهر من ستره الصحراوي، وخرج من عصمة الرمال إلى نور الحقيقة.

هذه العودة هي موضوع بحث الأحرار، وبعض غاية هذا الكتاب.

ولسوف يعجب المتتبعون لهذه الفصول من مواريثنا العربية الكنعانية في قرطاجة أيّ ثراءٍ لنا هناك، من قبل واليوم ومن بعد، وأيّ حقائق كانت مطموسة وأيّ حضارة، وأي لونية من العروبة الرسولية.

وسيكتشف بنو العروبة المعاصرة شعباً عربياً قرطاجياً كنعانياً من أكثر شعوب التاريخ عمراناً واجتهاداً وتديّناً عقلانياً وذكاءً عملانياً، واستكشافاً، وتنقيباً وزراعة متطورة واختراعاً وأخلاق معاملة وملاحة وقافلة منتظمة وهندسة بناء... وقتالاً وعبقرية حربية واستشهاداً إزاء شرف المصير.

وسنكتشف معاً أرقى نظام قومي جمهوري داخلي، وفدرالي قارّي، وفوق القارّي، وأوسع من القومي، حتى ليرسم صورةً مثالية خالدة عن أمبراطورية غير استعمارية وغير عسكرية، بل نقيضة لمفاهيم ومداميك الاستعمار والعسكريتاريا الغشيمة. وإذاك نحتقر أهاجي أقلام العبودية وأدباء البازار والخطة المدروسة المستمرة لضربنا أمةً وحضارةً ورسالةً سواء في مشرق أم مغرب أم نيلٍ أم عربة، أمس واليوم.

وسيبقى التاريخ وثوابته، والجغرافية وقضاؤها، والمناخ وحتميّاته، والقومية وأركانها، وتطوريّة عقلنا وخلقنا، ونبل روحنا العظمى، ويقظة وجداننا العام، هي المسابير التي عليها يشرّح حق وباطل، ومدحٌ وهجاء، وتحيّز وافتراء وحقيقة، وممكن ومستحيل. وسنطبّق النواميس إيّاها، بعدلٍ وعقل، علينا وعلى خصمنا وعدونا والصديق، فلا يبقى قولٌ غير ممحّص ولا ادّعاءٌ أقوى من النقد.

وتخرج قرطاجة من أنقاضها عروسةً مجلوّةً لحضارة خالدة ولعروبة كنعانية بانية وتحقيقاً لمُثُل ذلك الإنسان الحميري الذي سنرافقه في تاريخنا طوال أربعة آلاف سنة باهرة الجلاء.

الباب الأول

الحميريون
في لبنان والشاطىء السوري والمتوسط الشرقي

استقر الحميريون في لبنان وفي الساحل السوري الغربي على صخرتين أو ثلاث هنّ بالجزئر أشبه إزاء الشاطىء، وعلى صخور أخرى: جبيل، أرواد، صيدون وعلى صخرة صور وبرّها التوأم وما يوازيها من شطّ وريف وجرد وجبل، ومن امتدادات بغير حدود.

السهل الساحلي قليل العرض، متعرّج، ويضيق أحياناً حتى ليصبح، كما عند نهر الكلب ورأس الشقعة ورأس الناقورة، ممرّاً ضيّقاً جداً وإجبارياً. والزرع فيه متقطع هنا ومتواصل هناك، وبساتين مكثّفة وملتفّة كأنّها جنّات تجري من تحتها ومن حولها الأنهار. وكأنّها النعمة العظمى.

في الجزر = صخور البحر = لا ماء قطّ. والجبل يشرف على البحر، وفي أكثر من قطاع يتساقط عليه مباشرة بخط شاقولي مستقيم.

ومع ذلك فالخيار رائع ومصيري.

* * *

الطريق الساحلية جنوباً بشمال هي الطريق الوحداء التي تصل مصر ووادي النيل بمطلق ممرّ برّي نحو آسيا والشرق. والجبل المشرف كالمرصد كالعرزال المشوهر يدعى لبنان.

فلنشرح أكثر! : جميع الطرقات البريّة التي تصل أفريقيا بأسواق الشرق الأقصى والهند وخراسان وكلدة والعربة والقوقاز، سواء اتبعت الفرات أم البحر الأحمر أم شاءت

أن تـذهب غربـاً تمرّ إجبـارياً وحتـماً في هذه الممـرّات السـاحليـة بـالقـرب من الصخـور البحـرية، بـدون أن تضطّر للتـوقف فيها أو الانقـطاع دونها. ولكن ذلك يعني أيضـاً أن موقفاً معادياً تقفه هذه الصخور المضايق من القوافل ومرورها يعني تـوقفها حتـماً وصدّهـا دون ذلك.

الحميريّ الكنعاني الساحلي = الفنيقي = تـوطّن على جـانب هذه الـطريق العظمى وليس عليها ولكنه لم يجعل معنى وجوده هذا أنه يعورض عليها فيمنعها. لم يمتهن الفنيقي دور قاطع الطرق كما في الممـرات الإجباريـة الأخرى في العـالم، بل التقط السرّ الجغـرافي والجيوستراتيجي، وتكنّه به وتوالف معه وتاجر معه وأفاد واستفاد.

أما ستراتيجية الطريق بالمطلق وقيمتهـا العسكريـة الصّرف فلم تكونا من اهتمامـات الفنيقي لأنه ليس بالشعب المقاتل والمعتاش من التقاتل. ليس هو من عيار الشعوب الهَرَدة والهجرات الكلاّنيـة التي تزلـزل الأرض والقارات والعـوالم بأعـدادها وعشـائرهـا وخيلها ورجلها وعرباتها وغبارها. الفنيقيون شعب مختار منمنم منخوب مثقف على دقائق الأشياء ولطائفها وعلى أسرار المعاملات والتجارة والنقل والخدمات الثلاثية. فما هم بشعب زراعي ولا صناعي ولا من البداوة والهجرات الجماعية.

لـذلك ربـخ الفنيقيون عـلى جانب معمعـة الأمم والضجيج والقـرقعـة، في صـور صيدون أرواد جبيل، يشاهدون مرور الجيوش شمالاً وجنوباً فلا يقـاومونهم لأنهم أعجـز من ذلك ولقلّة المصلحة في ذلك. أما المنتصرون فكـانوا يتوقفون برهةً ليخلّدوا مـرورهم المنصور على صخـور الممرات ثم يتـابعون فتـوحهم. وإذا ما احتـاج المنتصرون لخدمـات لـوجستية عـلى حسابهم ومسؤوليتهم إزاء الأخـطار الممكنة لجـأوا إلى الواحـات الشاطئيـة التقنية والمحطات غير المنحازة فـاشتروا نقـداً ما يحتـاجونـه من هذه المستودعات العـائمة والمحايدة. ويوم ستتنامى الأساطيل الفنيقية والناقلات سيؤجّرها أربابها إلى هذا وذاك من الدول البرية، بدون تفريق سياسي سوى ما كان على علاقة بـالتنافس الفنيقي المـركنتيلي. في البـدء لم يهتمـوا بمـا سيؤول إليـه مصـير تحوتمس، فسـواء لـديهم انتصر أم انـدحـر، فاقتصرت علاقتهم به على خدمات وأتعاب. ولكن الخطة تحـوّلت إلى تقاتـل فنيقي داخلي عنـدما استؤجـر أسطول صيـدون لمحاربـة أسطول صـور الخصيمـة فتقـاتـل الأسـطولان التوأمان. وسيبقى هذا القرح التجزيئي وافتقاد الحس التوحيدي لدى الدويـلات الفنيقية الثغرة القاتلة التي ستطغى على الاسم الفنيقي رمّة.

في البدء ترك الحميريون كبار الأرض يتقاتلون فوق الأرض السورية ويمرّون. ولم يتحمّس أي فنيقي حماسة مصيرية عقدية. حمير - كنعان - فنيقيا - يعتبرون أنفسهم أهل حضارة عتيقة، وحكمتهم أوحت لهم والحياة وتجاربها أنه لمن سخافة التصرف أن يفنوا هم في حروب الآخرين وعلى مذبح السوى في معارك عبثية. حضارتهم الدهرية ومدنيتهم الراهنة والعقل والتدبّر تقضي بمحالفة الدهر واعتناق حياد وتجارة.

كان للفنيقي إذن برنامج للعمل مثلّث الأركان: ملاحقة العلائق التجارية مع آسية برّاً وبحراً، تطوير العلائق التجارية مع حوض المتوسط، استثمار الساحل السوري وبلاده الخلفية..

لبنان؟ لبنان قد يكون خصيباً ومجدباً معاً. خصبه اكتشفه الفنيقي. وأما الجدب فللآخرين. فما هو الخصب اللبناني؟؟ إنه خشب الأرز. فالرأي السائد اليوم أن لبنان القديم كان مغطى بغابات الأرز بكثافة اقتصادية. وإنه لخشب ثمين. وأكثر من ثمين: إنه مقدّس. إنه حبيب الآلهة العظام. الأرز أقرب إلى معدن ثمين نباتي يوازي المعادن بصلابته الدهرية، أما اشتغاله ومعالجته فأسهل وأكثر ملاءمة لتقنيات العصر ومستلزمات الملاحة والنّجارة والتأثيث.

وليس بخاف دور الأرز في الأديان. الأرز في الأديان المصرية هو شجرة الزين (حرف الزاي من الأبجدية) فهو الشجرة الإلهية. الأرز إذن هو أوزيريس ومتّكأ الإله ومسند ظهره. الأرز خشب وإله معاً، وهو أول رمز للتجسد القدسي وللخلود. الأرز مادة لا تفنى، وبالتالي فهو مستودع ديمومة وألوهة وخلود. ومنه صنع تابوت الرحلة الأبدية والنوم الأبدي نحو الحياة الأخرى والأبقى. ومن الأرز المفروشات المقدسة وعامود المعبد الواقف يحمل السقف، والنقضة والعارضة. لذلك ظل الأرز هو الخشب المقدس بالإمتياز ورفيق الدين ومصاحبه.

الأرز هو الكنيسة، قال ماسّينيون.

وفي الإسلام، ظلّ الأرز هو الخشب المقدّس والطاهر. حتى إننا لنتساءل هل كان في الدهور الغابرة عبادة مباشرة للأرزة الإلهية؟ ليس الأمر بمستبعد. ففي مصر أثر من ذلك وقد طالما افتقر وادي النيل إلى الصمغيّات عامّة والأرزيات فاستجلبها من لبنان، ومن جبيل بالأخص. وفي افريقيا الشمالية آثار كذلك، وفي قبيليا بالأخص. بيد أنّ ذلك

ليس موضوعنا ذاتاً ولن نتوقف حوله بحثاً مستدقاً وتحليلاً.

إلا أن الفنيقي سيكون هو السقّال والنجّار والحفّار على الخشب والدهّان بالمواد الواقية والمزخرف والمصوّر. الفنيقي هو ابن الأرز وحبيبه. ولسوف يحتكره قطعاً وتجارة وصناعة، وفي الأحواض البحرية والقصور والمعابد وأدوات العبادة والمفروشات. وسيظلّ الأرز سرّ الفنيقيين ومهنتهم المحتكرة.

وينبغي أن نتذكر أن الأرز لم يكن ينبت في لبنان وحده بل كان منتشراً في أشور واللكام. الجبّار أمبابا (في ملحمة جلقامش) كان مكلّفاً بحراسة غابة الأرز، وليس من دليل حسّي في الملحة على موقع تلك الغابة التي قصدها جلقامش وأنكيدو بحثاً عن نبتة الخلود الإلهية والعجائبية.

وقد ظلّ الفنيقي طوال وجوده التاريخي الحيّ، يموّن ملوك مصر، بالأخصّ معابدهم ذاتاً، وأسواق الفن العربي فيما بعد، بخشب الأرز، وإن يكن في الحقبة العربية الإسلامية قد فقد اسمه وهويته السياسية.

* * *

كان الفنيقي يقطع الأرزة ويشذّبها ويدحرجها إلى المياه ويبقيها شهوراً منقوعة حتى يتشبّع النسيج النباتيّ صفاقةً وتصمُّغاً ويتدرّع كلياً. وبعد ذلك يخرجه إلى الأحواض الناشفة والمشاغل فيفصّله بحسب الهندسة المقرّرة والفن ويستخلص منه غاياته الثمينة.

مسيرة التمدد الفنيقي

أسدل الفنيقي أشرعته وشغّل مجاذيفه الدؤوبة ويمّم نحو كيليكيا مكمّلاً سيطرته على الشاطىء السوري الغربي رمّة، فأسس فيها: الكبيرة، المسوّرة، رسكوبس، سيليون، مجدل، فازيليات، سيديما.

ويمّم نحو رودس فعمّر إزاءها ثلاثة مرافىء في البرّ الأناضولي عند الليقيين، وأنشأ حاضرة كبرى أسماها عشتيرة. وأما رودس فدعاها أولاً فنيقيا. والشعب الخليط الذي سيتولّد من السكان الأصليين ومن المعمّرين الفنيقيين سيكتب عليه تاريخ بحري عمراني حافل: سينشىء مدينة المعرّة في العتيقة (Attique). وسيجوب البحار السبعة. وسيكون نواة لتطوير الحضارة على شواطىء بحر إيجه. المعرّة تعني المغارة: الماء.

* * *

وتتفعّل الخميرة الفنيقية بغير حدود. ويتوالد القفير ويتضاعف. ويتعدد النتاج.

جعل الفنيقي رودس/ فنيقيا قاعدة عمليات نحو حملة في البحر الأسود. حملة حضارة وتجارة. فاقتحم ميلوس واستخرج الكبريت والشبّة والأصبغة والمعادن. في كوش وامورغوس وميلوس أنشأ مصايد الأرجوان والمصابغ ومعامل النسيج. فإذا العبقري المقحام هو معدّن أيضاً وحدّاد وصبّاغ ونساج. وماذا يعصى عليه؟؟.

في باتجا/ تراقيا استخرج الذهب وطحش نحو ساموتراقيا ولمنوس وطاسوس ومدخل مضيق عسقانيا. إذّاك أمكن له أن يقتحم البوسفور وما بعده وأن يتّجه موسّقاً

بالبضائع والمشاريع نحو القفقاس. فنزل في هيرقلة وسياموس وكارامبيس وسينوب وعلى مصبّ الدنيبر. فأقام صور الجديدة وجعلها قاعدة عمليات داخلية وتوغّل في سهوب روسيا الجنوبية.

* * *

وكان على موعد مع قدر جديد في كريت.

شطّط الفنيقي في كريت فحصل أمر جلل: سرعان ما أينعت الخميرة الكنعانية في أرض طيبة. وإن هي إلاّ حضارة قديمة ابتعثها القادمون فاستحدثوها وأحيوا. وخرج نسل عجائبي عملاق من تصاهر شعبين منتجين مكرَّمين.

وكان الحصاد شعباً سَرِيّاً.

* * *

وتتالى التاريخ يتبع مجراه والمسيرة. بعد تخصيب العروبة الحميرية الكنعانية وتجويدها وتفعيلها في شواطىء سورية العربية، وبعد توسّع المطامح والنبوغ نحو بحر إيجه والبحر الأسود = وكريت = أصبحت القفزة التالية محتّمة ومكتوبة في طبيعة الأشياء وحكمة التاريخ، نحو المغرب المشتاق.

ملامح العبقرية الفنيقية

كانت العلائق التجارية مع آسيا براً وبحراً تعقد وتجوّد بعد صبر ومصابرة وتعامل بالأمانة. وكانت مفازات الأنهار وممرات الجبال هي الإحداثيات الفضلى لإقامة نقاط الارتكاز والمحطات والمستودعات ومكاتب الصفقات. بعض أسمائها لا تزال باقية: لاييش عند منابع الأردن (بيت هيا) حيث تمرّ طريق آشور من سورية الجنوبية = فلسطين = إلى سورية المجوّفة = البقاع =. حماة في وادي العاصي. طبشاق عند مفازة الفرات. نصيبين عند منابع دجلة.

أما التجارة البحرية فسوف تحرّض الفنيقيين إلى إنشاء إمبراطورية استعمارية في شرقي المتوسط ثم في غربه، لا يشبهها أي إمبراطورية أخرى في التاريخ. قوامها عقد من محطات الارتباط على طول الشاطىء. كنفدرالية بدون سلطة مركزية، ذات عاصمة معنوية ومرجعية مالية ودينية وخلقية ولكن بدون أي سلطان إداري أعلى. إمبراطورية بغير حدود أرضية. لا أرض ولا حدود. معالمها على الخريطة ليست خطوطاً مرسومة بل نقاط مشكوكة متبعثرة بدقة على جميع الشواطىء. ماسبرو في كتابه «**التاريخ القديم لشعوب المشرق**» يقول في ص 233 ما يلي:

«تاريخ هذا العمران ونجاحاته المتعددة، حتى ليصبح المتوسط بحيرة فنيقيية، لا يزال شبه مجهول. لقد أتلفت الوثائق والمستندات التي كانت في أرشيف صور وفي الحقبة اليونانية الرومانية. إن الذي وصل إلينا هو أقرب إلى الأسطورة والروايات».

إننا نعرف مثلاً أن ملقرت (ملك القرية المدينة) الإله الصوري الأكبر (مثله هرقل

اليونان) كان قد جمع جيشاً وأسطولاً كبيرين لكي يفتتح إيبيربا، أي اسبانيا والبرتغال. وفي طريقه افتتح أفريقيا وأدخل إليها الزراعة وأسس Hecalompyles، واجتاز المضيق الذي حمل اسمه أولاً ثم أصبح جبل طارق من بعد، وبنى قادش ونظم ايبيريا غربا ولعله كان يودّ أن ينقلب بعد إلى الشرق الشمالي نحو سيبيريا. ولذلك عاد إلى وطنه ماراً بـأسبة عن طريق غاليا (فرنسا) وايطاليا وسردينيا وصقلية.

هذا التقليد المختصر الجامع التي عينّ الملامح الدقيقة للعمران الفنيقي، سوف نتممه بذكر بعض الأعراف المحلية والتقاليد المنثورة في المحطات الفنيقية:

- تقليد كينيراً في قبرص وميلوس.
- تقليد الأميرة الصيدونية عروبة. وأن الإلّه زوس يخطفها. وأخو عروبة الأمير قدمو (قدموس) ابن ملك صيدون يلاحق الخطيفة أخته ليستردّها من الإلّه المتجرّىء على أميرة صيدونية. فجاب بحر ايجه وقبرص وجزر الصقلوب Cyclades ورودس، وابتنى مدينة طيبة في بيوسية، وأنهى دورته في إلّيريا (يوغوسلافيا اليوم).

يقول ماسبرو: «أينما حلّ فنيقي قامت حتماً مشاريع عمران ومنشآت عمل دائمة. الأسماء الفنيقية وآلهتهم وعمرانهم، ومؤسساتهم ومدنيتهم تدوم وتخلد في الملاحم والأساطير. وبفضلها وما فيها من تقاليد وأعراف وأخبار وآثار يمكننا اليوم أن نعيد كتابة تاريخ الفنيقيين الضائع والمبعثر ومن صباغة وترتيب أعمالهم في ريادة واكتشاف وتأسيس وبقاء».

* * *

الفنيقيون هم أول من راد قبرص وجاب فيها واستكشفها ثم استفروا فيها وبخاصة في تلال تاماسوس حيث النحاس. وقد أسموها جزيرة النحاس بسبب ذلك. وأسسوا فيها حماة وكيتيون ودير بافوس وجوجوس ولاباتوس وقريون وقرباسيا.

وعلى الشاطىء الجنوبي من سورية أسسوا يافا ودور، وعلى تله كازيوس أسسوا عسقلون قرب الحدود المصرية.

وفي مصر ذاتا، وفي مدن الدلتا أنشأوا مخازن وبنادر في تانيس وبوباست ومنديس وسايس. ولأجل أعمالهم وبفضل هذه المنشآت نالوا من السلطات المصرية امتيازات وتسهيلات. وليس بخافٍ أمس ولا اليوم دور هذه المنشآت في تجهيز وتحديث وتدريب

الشعوب التي تستقبل هذه البعثات، وفي تطوير وتثقيف الشعب المضيف حتى ليصبح أمة ذات هوية واعية.

مستودعات الفنيقيين في ممفيس، في حيّ أنخ طا، توسعت وتطوّرت وتكاملت حتى أصبحت مدينة تامة. وصار لها أثر وقدوة وجاذبية في شتى الحقول وبخاصة في مشاريع الريّ والمواصلات المائية بين البحرين المتوسط والأحمر وفي برزخ السويس الذي احتفر قبل دوليسبس، وفي بحيرة موريس ما بين أفريقيا وآسيا.

في مصر تحوّل الفنيقيون البحّاره والملاحون والتجار، إلى بناة ومهندسين ومخطّطين ومعماريين. فمنهم مدبّرو الغابات ومنهم السقّالون والنجّارون والحفّار. وهم التجار بالجملة والمستوردون والوكلاء والمصدّرون. وهم المطلعون على الأسرار والبواطن والحضارة والخطط حتى أن أهل العلم والاختصاص اليوم قد قاربوا يبتّون في شراكة فنيقية أكيدة في نشوء الحضارة الهيروغليفية. وبخاصة أنه قد تبينّ، بعد اكتشاف شامبوليون لحجر الرشيد، وبعد تجاربه وأبحاثه في فكّ رموزها، أن المدنيّة الهيروغليفية هي احدى بنات ومشتقات الحضارة السورية العربية الأمّ. وما ليس يعلنه العارفون هو أن شومبولبون بعد أن عجز عن حلّ رمز واحد من حجر الرشيد، استمع إلى نصيحة خبير عليم بأن عليه أن يتعلم العربية لأن فيها جرثومة الحضارة الأولى وفيها الأكسير المحوري الذي سيسمح له بفك رموز الحجر الجامعه. فتعلم شومبوليون العربية في جذورها الآرامية النبطية الكنعانية فتأتي له أكثر مما كان يرتقب في قراءة هيروغليف الحجر. ولم يتكذّب معه أي تفسير بعد أن استزاد آثاراً ومعرفة واطّلاعاً.

فنيقيا والدولة المسكونية

إمبراطورية!!.

لا يتوهمن أحد أن صور على صخرتها هي عاصمة إمبراطورية لها إمبراطور وبلاط وخدم وحشم وولايات تابعة، وشرطة وجيش لحفظ الأمن في الامبراطورية، وأن فيها موازنة وبيت مال يعج بالضرائب والمكوس والجمارك.

لا لسنا في أيام رومة.

ولا حتى في أيام بريكليس.

المستعمرات ليست ولايات تابعة، وليست بلداناً مفتوحة وخاضعة.

هنا، الحرب لم تخلق الامبراطورية، ولا هي الحرب تغذي المدينة. والفتح لا يهدف إلى الترف وتغذية «الديمقراطيات» الاستعمارية.

في صور وصيدون، لا سياسة من هذا النوع.

ومفهوم الامبراطورية، وترجمة الكلمة، بمعناه اليوناني والروماني والاستعماري الأوروبي لا ينطبق على حقيقة صيدون وصور.

صور، على صخرتها، هي مركز اجتماعي، ومكتب طلبيات، ومرفأ تحميل، ومشغل، ومصنع، ومستودع، وهي علبة بريد، وكل ما يتصوره العقل، ما عدا عاصمة لأمبراطورية ذات زعماء وعملاء وجيش قوي، وكل ما تستوجبه الامبراطورية، في نظر

الغرب ومفاهيم الاستعمار الأوروبي. فإذا كان في «هذه الامبراطورية» قوانين فوقية فإنها لخلقية ودينية، وإنها لَلْعرى الوحيدة القادرة أن تسوس هؤلاء الناس المبعثرين في كل مكان وبدون نهاية، والذين يتداولون بعمليات تجارية ضخمة ذات طابع مالي، وبالربا والدين المؤجل، وبالنقل والأجور والتأمين والمقايضة والعملات المختلفة، وبالأسواق الدائمة والمرتجلة، وبالتقسيط وغبّ الطلب، ونقدا، وبصرف عملات مختلفة، وبالتحكيم، وبكل ما سَيَحسب الغرب بعد أربعة آلاف سنة أنه قد اخترع وابتدع واستنبط من العدم. فالضمانة الوحيدة للفرقاء المتعاملين في صفقات طويلة الأمد، وما بين بلدان وقارات وأسواق متباعدة، وفي ظروف اتصال ولا أصعب، هي العضوية الأخلاقية والدينية: أي التقوى ومكارم الأخلاق.

وكم سنلتقي عبر التاريخ بروادع متشابهة بين أهل التجارة والمقايضة وحتى اليوم بين تجار المشرق الأنقياء.

إذن، ما من مستندات سوى المواصفات الفنّية للبضاعة، وسوى الأجور بالعرف، وما من قانون سوى القانون الأخلاقي. ولربما كان ثمة قانون للتجارة البحرية، والحكم واحد أحد: الله/ايل.

إنها لأمبراطورية فذّة عجيبة. ومع ذلك فليست دولة مركزيه قاهرة. إلّا أنها **حضارة ذات نكهة خاصة**. وإننا ليحق لنا أن نتساءل ما إذا لم تكن تلك هي **الحضارة**.

ميزة التاريخ الحميري أن الدولة كانت تتقلص بقدر ما تتوسع الامبراطورية التجارية والعمران، لأنه كلما نجحت مستعمرة في الاكتفاء وبشروط الحياة كانت تستقلّ على تراصٍ وتنفصل عن العاصمة الأم. فأينما استقرّ الرجل الأحمر، «الحميري» فإن حضارة جديدة شابّة حيّة كانت تنفصل عن الكرمة الأولى فتنشىء حياتها الخاصة الفذّة مرتبطة مع المؤسسة الأم بما لا يحصى من الروابط التجارية والثقافية والأهلية والدينية، وبمساندة اختيارية وبعرفان ودود، وبكبرياء مشتركة وإيمان واحد. ولا قسر ولا إكراه في الولاء.

المؤرخ لا يجد في أي مكان كتابات فنيقية ولا قوس نصر فنيقياً.

وأي كتابات كانوا يحفرون على البرونز أو المرمر؟؟ إليكم نموذج:

«هنا، في يوم لم يحفظوا منه أي ذكرى خاصة، شطّط ملّاحو سفينة ونزلوا لليلة

واحدة. فوجدوا لطوة أو ملجأ من الريح. وأعادوا الكرّة مرات في المكان ذاته. ثم بنوا غرفة صغيرة خبّأوا فيها مأكولات ولوازم لعلّهم إذا عادوا يوماً يجدونها. ولكن السكان أقبلوا واستقبلوا وهشّوا وقايضوا بلطف. فلم نجد حرجاً ولا خسارة في التأصّل بعد أن أذنَ الشعب وارتضى بنا».

وقد يطول هذا القول ويقصر وقد لا يكون منه فائدة طنّانة. وإنها لأشياء تافهة ومعروفة. وقد نجد مثلها في عشرات اللطوات على طول الشاطىء المتوسطي.

إذن، لا يجد المؤرخ ما يستوقفه. فيحرد وينفشل. ويعجب أن هؤلاء القوم، وإن لأسباب كسب ومال، قد اخترعوا الأبجدية الأولى، ثم لم يستفيدوا منها، فلم يكونوا في حصيلة التاريخ سوى أُجراء وقراصنة، بدون مهنة ولا صنعة ولا فن، وسوى نَقَلة نسّاخ مبسّطين. حتى لما يستحقون أن يكونوا مستعمرين.

قبل ماسبرو الذي أدرك العجيبة الفنيقية الحميرية الخارقة في ليونتها، لم يُقل ولم يُكتب عن آية الحضارة والمغامرة والفن = الامبراطورية الفنيقية = سوى مقاطع هزء وظلم.

ذلك أن مؤرخينا كانوا يتطلبون عربات نصر تجرُّ خلفها ملوكاً أسرى ومكبّلين مثل ڤرسانجيتوركس وزنوبيا وكان يلزمهم البذخ السياسي، وأعمال عسكرية باهرة ومعارك يموت فيها الألوف. لقد انفشل المؤرخون بالأسطورة الفنيقية، بالملحمة الصامتة، ودارت ما بينهم تساؤلات حول ماهية هذه الامبراطورية المختلفة. وفي النهاية، وبعد المقارنات لم يفهموا شيئاً من السر الحمبري.

ومع ذلك فإن تلك النتيجة تستحق أن نتوقف عندها:

فأينما جاء أو توقف الفنيقي قلْ قامت ورشة عمل: يبحرون، يصطادون، يتعلمون حراثة الأرض، يزرعون الزيتون والكرمة والقنب والقطن، يدجّنون منتوجات أفريقيا في آسيا الصغرى، ومنتوجات آسيا الصغرى في ايبيريا، ويستخرجون المعادن، وينبشون المقالع المطمورة، وينسجون، ويُعملون الفكر في كل شيء، ويحاولون أن يعيشوا كما تعيش في واحاتها المنظمة شعوب العربة السعيدة ومصر والمشرق. ويقيمون عبادات آلهة رحماء عادلين يحاكمون بعدل يوم الدينونة بغية نيل الأبدية. الفنيقي يحمل معه فكرة ألوهة تحاكم أعمال الناس، وفكرة روح خالدة، أي أسمى أفكار عن الأخلاق والواجب

ومحبة القريب والتضحية. الفنيقي يأتي بهذا الدين مع بضاعته المتنوعة من زجاجيات وحاجيات ومنشورات. هذا هو الوصف الطبيعي والعرف إذا ما تكلمنا عن الفنيقي مقيماً أم متجولاً. ألم يجد الأثاريون في جبيل نشرات جَيب عن الأماكن الأثرية في مصر وتاريخها ووصفها؟؟.

وهكذا تسقط الأسطورة البشعة والصورة المبشّعة عن «الحضارة الفنيقية المادية الصرف» التي أشاعها أعداء المدنيّة الفنيقية.

الكنعانيون الحميريون - التوسع غربا

من كريت انتقل الكنعـانيون إلى سيتـيرا وبنوا فيهـا هيكلاً لعشتـار. ومن هناكْ إلى البيلوبونيز، ثم إلى إيليريا (يوغوسلافيا) وإلى ايطاليا.

وكذلك اختـرقوا اليـونان القـارية: كـورنثا، ايجـين، سلامـين، أرغوليـد، الأتيك (العتيقة). قدموس، قدموس الإلهي، أسّس طيبة. ومخترع الحروف أنشأ في بيوسيا جالية قوية.

يقول ماسبرو: «كان لـوجود الفنيقيـين وسط شعوب اليـونان البـدائية وعـلى الدين اليوناني، آثار عاد العلماء يفتشون عنها وينقّبون بعد أن طالما أنكروها وتجاهلوها».

سنعـود بعد قليـل إلى النفوذ الـذي كان للرجـال الحمر، الحمـيريين، عـلى الأدب والعلم وتقنيات الفنون التشكيلية في اليونان. فلنرافق سير الفنيقيين على طرقات الماء.

لم يكن ثمّة آثار مقنعـة نتأكّـد بها أن مـرسيليا وطـولون مصرفـان حميريّـان. ولكن اكتشافات متأخرة جـداً لقطع من تمـاثيل عشتـار (أي تعنيت) في محيط المـدينتين، ولبعض الصور والنقوش، عزّزت الرأي القائل ان مرسيليا وطـولون مصرفـان كنعانيـان حميريـان. في مرسيليا اكتشفوا بياناً إحصائياً للمبيعات الحمـيرية مـع التعريفـة الجمركيـة. وفي طولـون اكتشفوا تعويذة قديمة أو صينية برونز. في البدء حسبوها ترسـاً مستديـراً من نموذج تـرس هانيبعل، وترس سيبيون، ولكنهـا في الحقيقة أدوات للزينـة ذات طابـع كنعاني حمـيري لا ريب فيه.

ومع ذلك فثمة أدلّة وشواهد على أن هذه المرافىء قد عرفت الفنيقيين قديماً.

فالجذر الشامي ر س و ـ مرسى ـ هو جذر معروف ولا يزال في العربية الراهنة. وهو يعني المرفأ والرسوّ والساحل. ومن لا يعرف مرسى قرطاجة، والمراسي في مالطة، والمرسى الكبير، ومرسى مطروح، ومرسالا في صقلية وعين المريسه في بيروت. (المريسة = المرسى الصغير).

فإذا لم يكن كل مرسى هو فنيقي فإنه عربي لأنّ الجذر واحد واللغتين توأمان. ولكن مرسيليا لم يبنها العرب إذا كانوا قد بنوا مراسي أخرى في البحر الغربي بعد الفتح. وإذا لم يكن العرب قد بنوا مرسيليا فهي إذن فنيقية لأن الرومان ـ مثلاً ـ لن يسمّوا مرفأً يبنونه باسم فنيقي.

أما طولون فشيء آخر. فعلى مدخل المرفأ يوجد برج صغير قديم ـ حُصَين ـ اسمه قلعة مار لويس، مبنيّ في البحر ومربوط بالبرّ بجسر. وهذا المكان يسمى شاطىء الملق La Malgue. وهذه الكلمة لا تعني شيئاً بالفرنسية ولا بالبروفنسية. ولكنها الجذر الشامي ل ق ي معروف في جميع اللهجات الشامية (السامية). وهو يعني مكان التقاء التجار أو القوافل أو الأساطيل، ويعني ملتقى مجاري الماء كما في قرطاجة. الملقى في قرطاجة هو متجمع الحواويز أي ملتقى مسارب المياه ومجاريها: متجمع المياه.

وإذا تتبعنا شاطىء البحر الغربي فشخةً فشخة وجدنا أثر الملاحة الفنيقية أينما كان. عبر عواميد هرقل (جبل طارق) ثمّة مؤسسة حميرية كنعانية فذة جداً: طرسوس (ترسيس، ترشيش). وقد ذكرها سترابون وكتب أخرى. ثم ذكرها أفلاطون في كلامه عن الأطلنطيد.

كثيرون من العلماء والشعراء كنّهوا ترشيش بالأطلنطيد بلاد السعادة والعدل والحكمة. وأهلها كذلك.

ولكنها كثيرون يذكرون بتأكيد أطلنطيدات أخرى في افريقيا، في فارس، في سكنديناڤيا، وأميركا. فهي عند الجميع جنّة مفقودة، أو مدينة في بلاد الأوهام واليوطوبيا.

ولكن ترشيش هي بلاد الحورية كاليبسو. بعد قليل سنخوض الموضوع.

ترشيش كانت المرفأ الأطلسي للعالم المتوسطي. قاعدة عمليات لعبر الأطلسي. فهي

مباشرة تلي عواميد هرقل، ومركز صيد أسماك بدون حدود، ومنشأة بحريّة قديمة جداً. أما البلاد الخلفية فغنية بالمعادن: إنها سيرّا مورينا، أغنى منطقة معادن في العالم القديم.

والأرض عند مصب الوادي الكبير خصبة جداً بسبب الريّ. فجعل الإنسان من هذه المنطقة البعيدة من أروبة جنّة مباركة. وعاش سكان هذه المنطقة، منذ عصور مجهولة، بفرح وسلام. وثمة يقين أنهم كانوا على اتصال منذ أبعد العصور مع الرجال الحمر الفنيقيين والكريتيين.

وكان تأثير هؤلاء الغرباء ـ إذا كانوا غرباء ـ قوياً جداً بدليل أنه لا يزال متأصلاً حتى اليوم في التقاليد والعادات واللباس والأعياد في الأندلس والبروفانس.

في القرن التاسع قبل المسيح كانت أساطيل صور ترتاد ترشيش. ولسنا نعرف هل كانت تتابع فوق المحيط أم كانت تعود محمّلة مما كانت البحرية الترشيشية المحيطية قد جلبت.

في القرن السادس، سوف تتحالف ترشيش وقرطاجة حلفاً أزلياً. ولسنا نعرف كيف. الدولتان البحريتان المتشابهتان والمتنافستان هل اشتركتا في بعض المشاريع أم تحالفتا؟؟ وليس في التاريخ أن حرباً أم نزاعاً قد نشب بين الدولتين، أم بين البحريتين والأسطولين.

وستظل ترشيش هي القاعدة القرطاجية الوثقى لقرطاجة في إيبيريا، والمرفأ الصديق على المحيط، والمؤتمنة على أسرار المهنة، . . . وأداة الإنتقام.

الإنتقام هو الدور الذي عادت الأندلس Vandalousia فلعبته في عهد جنسريك، ملك الفندال، عندما وصل العرب إلى المغرب، في حقبة الفتح.

وترشيش هذه سوف تعود إلى ازدهار هائل بمدنيّتها القرطاجية وفنونها اللبنانية، عندما ستصبح الأندلس منطقة عربية تدعى سورية الجديدة.

كريت = قريت = قرية

الأميرة عروبة بنت الفنيق

العلاقات بين الفنيقيين وبحر إيجه مختصرة ومفيدة: تجارة وصناعة وتبادل ومشاريع. وإذا كان الصمت كثيراً حولها فلأنّها خلو من حروب وتقاتل. ولذلك انصهر الشعبان على تؤدة، بعيداً عن ضجيج التقاتل والدمار.

ترى هل يكونان من أصول واحدة؟.

اليونانيون لقبّوهما كليهما فنيقيين. وإذا كنا لا نغوص هنا مرّة ثانية في أصل التسمية الأولى والهوية فإنّ هذه الظاهرة اليونانية تعني أنهما كانا متشابهين حتى ليليق توحيدهما. فهل كان الكريتيون من حِمْيَر الحمراء أيضاً، وموجة سابقة من حضارمة مقاحيم؟.

المصريون أيضاً أسموهما باسم واحد، الكفتيين أي بحّارة الشمال. فهل كانت هجرة سابقة من المستطيلي الرؤوس الحميريين قد أمّت الجزيرة قبل بني عمومة لحقوا بهم؟.

ليس من دليل ولا برهان ولا نفع من التعصّب إزاء اعتداد الآخرين. ولكنها فرضيّة علمية تُطرح وليس يُبتّ فيها بغير بيِّنة. ولكن يبقى أن بين فنيقيا وكريت من التشابه في العمران والعادات والفنون والدين والصناعات والمهارات ما يستوقف الدارس والمتمعّن. ولا يمكننا إذن أن نهمل المقارنة والتقريب سواء في تأريخ الأحداث وأزمنتها أم في الأسباب والنتائج. فعندما ستولد قرطاجة في نشأتها الأولى ستختفي كنوسّوس في الوقت ذاته تحت غزوة همج من الدوريين القادمين من ألبانيا. وستكون قرطاجة هي

الوريثة الشرعية الوحيدة = لماذا؟ = لكريت = القرية = وستكون قرطاجة هي قرية حدشيت أي القرية الحديثة أي كريت الحديثة مثل نيو يورك ونيو أورليان ونيو انجلند ونيو فرنسا وألف نيو حديثة جديدة بديلة. وسترث هذه الحدشيت = الحديثة = منشآت كريت التجارية والمعنوية والمؤسسات التجارية وشبكات العلاقات.

إزاء تيار فكري يقول ان الفنيقيين والكريتيين شعبان مختلفان نتبنّى نحن مقولة وحدتهما في الأرومة والحضارة والمدنية والثقافة والمواريث والعادات والتقاليد والفنون وأسلوب الحياة وفلسفة الحياة: فكلاهما مؤمن، ملّاح، تاجر، فخّاري (برغم الغرابة في ذلك لأنّ أهل كريت هم جزيريون)، وكلاهما قوافلي ورجل نقل شريك في شركات نقل دولية. (وجدت في كريت، في كنوسّوس، خواتم منقوش عليها شعار الجمل).

وكان كلا البحارين يمخر البحر إيّاه، نحو مقاصد متشابهة، ويلاحقان الصيد البحري الواحد، والأسماك والقريدس، وحيوانات البحر، على سفن صيد متشابهة جداً، بأدوات واحدة ومراس واحدة وشبكات وسنانير واحدة. والسفن ذات هياكل موحّدة وسكان موحد، وشكل موحّد، وصدر موحّد في شكل مهماز من خشب قاس، وغرفة قيادة واحدة، وجسر واحد. وكانت هندسة ومدرسة وأسلوب المجداف من طراز واحد. وكذلك أسلوب وأدوات ارتباط السفن إلى الشواطىء.

وكلا التاجرين يستعمل القياسات والعيارات الواحدة (الشاقل الفنيقي الذي يزن 7.32 غرام.

وكانت العملتان متعاهدتين أي متصارفتين. والفخّاريان يصنعان الوعاء إيّاه والأشكال الفنية إياها الموافقة لمختلف الاستعمالات. والفنانان يقولبان الدلغان والفخار للآنية المتشابهة العملانية والجمالية، والأزهار إيّاها البحرية والبرية. وعلى بيض الزرافة نقش كلاهما الوجوه البشرية الواحدة. واعتمر الشعب والآلهة هنا وثمّة بالعمرة إياها مع زوزقة ريش النعام وطير الأيبيس، وليس في كريت نعام. وكلاهما صنّع وعالج خشب الأرز والسرو وليس في كريت أرز.

أما المرافىء فمتشابهة كنقطتي ماء. ومهندسو الماء والريّ والسقي والجرّ والحفظ استعملوا الحيل والتقنيات والبنيات إياها. والمقابر متشابهة حتى مع جزيرة البحرين في الخليج العربي وفي حضرموت ذاتاً وفي الساحل السوري الغربي. فأدوات السّفرة الأبدية هي إياها لإبعاد الجنّ والشيطان ولإضاءة صراط الخلود والإقامة الأبدية.

وكلاهما أحبّ الفنـون والموسيقى، والألـوان الحية والمغـامرات والأعيـاد المكشوفـة، ولعبة الشطرنج أيضاً. والألبسة إياها، وحلاقة الدقن والعمرة ذاتها: اللبادة المستطيلة.

نساء الشعبين، بـزينتهن الغنية والغنـوحة كنّ يخـترعن هندامـات فاتنـة. فعلى قـبر مصري من القرن الخامس عشر قبل المسيح تبدو أميرة صـورية بفستـان ذي أكمام قصـيرة وتّنورة مفتوحة ومشقوقة كالتي نراها في كنوسّوس وجميلاتها وفي بسيرا، وفي هاجيا تريـادا، وعلى تابوت لنبيل قرطاجي. ولسنا ندري أهي كـريت أم قرطـاجة أم كنسـوس اخترعت ونشرت التنورة المشقوقة والتنورة السروال، والقبعة العريضـة والقلّوسة المنحنيـة Béret، والقبّـوعة المـزوّاة والميترا والتـاج والعباءة النسـائية، أم تـراها جميعـاً نشأت في حضرمـوت وتجدّدت في سورية وتأقلمت في الأرخبيل ثم في قرطاجة؟؟.

إن أجمـل عروسـة فنّ أنتجتها كـريت لهي الإلّهة ذات الأفـاعي، إلّهة السـيروفيم - Serpents - وأهم وأجمل إنتاج قرطاجة هو الإلّهة ذات الأفاعي.

حمـامة عشتار، عاجية أم برونزية، كانت تجمّر شعـر الجميلات الأنيقـات المتفتيات في قـرطاجـة وكريت. (وإن أمثـالها قـد وجدت في فـرنسا أيضـاً في منطقـة طولـون قرب مرسيليا - مرسى إيل).

وكان لكلا صور وكريت العلائق نفسها مع آسيا وافريقيا: تـاجر كـريتي نقش على خاتمة جملاً باركاً، وثان نقش نعامة وثالث وحيد القرن.

ومرفأ مغارة - Megare - ذو الاسم الفنيقي الأصل سيصبح مينوا - المينا - المنْيَة.

والكريتيون والفنيقيون أقاموا مصارف في الدلتا وبنوا مرفأ فاروس.

ونقلوا لتحـوتمس الثالث الأرز اللبنـاني و«ساهمـوا» بشهادة فخـاريـات ذات طـابـع مشهور، في بناء أهرام سنوسرت الثاني وامينحوتب الثالث.

ما هي طبيعة هذه المساهمة الفنيقية في بناء الأهرام؟ هل هي يد عـاملة مسترقّـة كما يدّعي بعض أم كما نقول نحن، أم هي التزام هنـدسي كامـل ذو مؤسسة بنّـائين وأسرار؟ سنقول التفاصيل فيما بعد.

أما اللغة فإن الأبجدية الفنيقية والأبجدية الكريتية فتنتميان إلى نظام لغوي واحد.

وقد حرّضت المدنيّتان غيرةً واحدة لدى الهمج، وحقداً واحداً، ورغبة جامحة للغزو، والتدمير والإبادة.

ولكن كنوسوس، برغم دمارها، كانت أكثر حظاً في نكبتها، من قرطاجة. لأنها لاقت قبولاً حسناً لدى المؤرخين المعاصرين بسبب أعمال فنية مذهلة ذات أسلوب «معاصر» وضد أكاديمي. وهو فن كان يعتبر همجياً منذ مئة سنة من قبل فنانينا، ولكنه أصبح اليوم في قمة الموهبة بعد الاعتياد على ما تنتجه مدارسنا وفنانونا المعاصرون.

الباب الثاني

مسيرة التكوّن القرطاجي

في آسيا الغربية منذ قبرص حتى عدن، وفي وادي النيل كما في العراق ذي الدجلتين، قامت منذ الزمن الأبعد، منذ غرّة المجتمعات الصغرى البدائية، منذ أوّل تحسّس بمعنى المتّحد وسرّه، مدرسة تعلّم الإنسان والمجموعة وجارتها أن يعيشوا سويّة بتعاون وتبادل. ثم بتكامل في إنتاج رعوي قَنْصي أم زراعي بدائي في أرض ذات ماءٍ وزرع، أم بحريّ ذي صيد، أم نقلاً وقوافل وتواصلاً.

فقامت بحسب البيئة مدنيات متنوعة في مجرى نهر أو دلتا خصيبة، في الوديان، وفي الواحات والسهول والسهوب، وحتى في الصحراء والبوادي.

في الصحراء والبوادي والواحات والحرّات ينيخ الإنسان، البدويّ، ما أن يجد ماءً وعشباً. فيستريح ويشرب ويسقي ويتوقف عن التجول وينصب خيمة ويستقر ما دام الماء موجوداً والعشب. وإذا جاع فلح وزرع وحصد وجنى. فإذا كان على ماءٍ سنويّ مستديم استقر. ويروح يتحضر على تؤدة ويتزايد وينمو.

وما بين مستقرٍّ وشبيهه على مسافة نشأت تيارات متحركة في ذهاب وإياب وسفرات وتبادل. هؤلاء المتحرّكون على قصد ولغاية نقل واتّجارٍ هم القوافل وقطارات هذا الزمان وطياراته الجبارة. أما الانتقال الآخر، بقصد عشب وماء فهم الرّعاة يتابعون توالي الفصول والأمطار غير المنتظمة في المراعي والحمادات والرمال والبوادي.

وثمة هجرات قسرية وأخرى مرادة. فقبيلة تذهب لسبب مبهم تفسّرها أغنية عتيقة

عتق الرمال والبداوة تقول = ما عاد جارنا عالخاطر. . . وأما الجلاء القسري فلأنّ قبيلة قوية أزاحت عن الماء والكلأ قبيلةً أضعف، على سُنّة تنازع البقاء.

* * *

البداوة الأصلية هي قطعان سارحة وإنسان مترحّل سيد الزمان والمكان وماءٌ وكلأ ورياح وندى وطَلٌّ، ونفلٌ وثمار برية. البدويّ يعرف اتجاه الرحلة. . . بإذن الله. الله هو سائق المطر وسوّاق الغيم وربّ المراعي وفالق الحبِّ والنوى. ولكن التجوال الدهريّ وغير المنقطع لا يلبث أن يتنظم في المدى في فراغ الصحراء وفي صمت الدنيا الواسعة. . . وفي جيرة الحَضَر المستقر. وهكذا تتحوّل البداوة إلى بريد متجوّل وإلى مهمّة ارتباط بين فلاح وفلاح. ولكنه فوق هذه المهمة غير المقصودة يتحوّل إلى خوف ورعب في قلب الفلاح لأن الجوع كافر ولأن العطش أشد كفراً.

وما بين علاقة ودٍّ أو تخوف وعداء تنتسج علائق بشرية وشبكة ثابتة من طرقات ودروب وقوافل ومحطات ومناخات وأسواق، ومفارق هامة تجمع الأشتات وأهل النواحي الأربع. يقول الشاعر والأغنية =

هُمُ قومٌ لقوا قوماً

كما قد تجمع السُّبُلُ

هذه السبل والأقوام والطرقات لا تلبث أن تتكامل في رزنامة شاملة لأسواق موسمية ثابتة ابتدعت عملة تقايض بين الأباعد، ونواميس للضريبة والعمولة والجمارك والمرور والإقامة والخدمات والبيوع والصكوك والأخلاق والمشاراة والوزن والقياس والكيل.

التجارة طبّعت البدوي ونظمت القافلة فأصبح البدوي الآخر غير المتطبع أو المنتظم في مؤسسة الصحراء والحضر هو أسوأ ما تلتقيه قافلة أو يستقبله سوق وبخاصة إذا كانت القافلة تجتاز في أرض غير مُعاهدة ولدى بدوٍ متمردين، قراصنة.

القافلة هذه هي أسطول بري. والقوافليون كالبحّار. فمن سيدعوهم التاريخ العام فنيقيين وقرطاجيين فهم بحّارة في الأصل وقوامهم سفينة ومرفأ ونقل وتجارة وتبادل. بعد زمن طويل سيقوم من القرطاجيين أهل قوافل برية.

ولا ننسينّ أن أسرار الرمال السوافي أقل ديمومة من أسرار الأمواج. إن البحارة

والملاحين أكثر كلاماً وتسجيلاً من قوافل البر والجمّالة. ومع ذلك فالأعجوبة الكنعانية الأكثر ديمومة ستكون سكان الداخل الصحراوي، أهل القوافل البرية، حُماة البلاد القصوى، شركاء الكنعانيين في إنتاج واستهلاك ومصير.

لماذا اختاروا موقع قرطاجة؟

العتيقة Utique في ذَروة تامة من جميع الرياح الرطبة والمحرقة. تنعم شتاءً برطوبة مثالية. ولكنها في الربيع أتون حرارة لا تحتمل. سهل العتيقة هو وهدة وتجويف ذو حمّيات وقساوة. فالأرض تحترق احتراقاً والطمى الأحمر يتشقق شقوقاً كبيرة حتى أن القطعان لما تعود تجتازها ما إن ينتهي الحصاد، بل الثيران الكبيرة توشك فيها أن تنجرح. النهار هواء مشتعل والليل حرارة ثقيلة كما لو أن رماداً قذفه البركان يحطّ بعد تطايره.

أما قرطاجة على مطلّها وشرفتها فستكون مملكة الريح. رياح الصيف تبلغها وقد ترطّبت بخمس مئة كيلومتر فوق البحر، منذ السيرات Syrtes. ريح الشمال تهوج هوجاً على المقلب الشمالي، ولكن المقلب الجنوبي، حيث المدينة، سيكون نسبياً في ذروة.

العتيقة ذات أفق مقفل محكم، أما من قرطاجة فإنك تهيمن وتشرف وتشوهر على المدى. إنه لمشهد شامل واسع لا مثيل له. من المرصد القائم شاقولياً فوق الماء، على ارتفاع خمس مئة متر فوق البحر، تستكشف مشهداً دائرياً أوسع مما تراه من فوق سيدة الحراسة في مرسيليا، وأوسع مما تراه من موري Muori فوق نابولي وخليجها، وأوسع مما فوق الإيغات Aegates على تلة أريكس. من برج إيفل نشرف على الأفق من ارتفاع ثلاث مئة متر. قرطاجة أشبه برأس الشقعة في لبنان.

من المرصد، تشرف إلى الشمال على خليج العتيقة. وترى مرتفعات بيزرته. إلى الغرب ترى البحيرات المالحة والسمراء التي تحيط بتونس، ويسبح النظر إلى البعيد نحو سهول الغرب.

نحو الشرق تقوم جزيرة زمبرا، كأنّها زهرة سقطت على الأمواج. وهناك رأس بون وشبه جزيرته ذات الصخور المشحوفة، وثمة خليج تونس الأكثر تلوّناً في الدنيا، مع خلفيته الرملية المضيئة التي تجعل الماء المشمس أجمل تلوينة خضراء زمردية خلقها الباري. وإذا كان المصريون لرؤية الدلتا الخضراء قد وصفوا المتوسط بالبحر الأخضر فماذا كانوا قالوا لو رأوا ألوانه في تونس؟؟.

ومع ذلك فالنظر أكثر ما يمتدّ فنحو الجنوب. يمتدّ بدون حدود كأنك تتملك إفريقيا كلها. إنّه إطار اللانهاية مع نتوءات صخور تبرز وتتجدد على مدّ النظر: ففي قلب الخليج الجبل ذو التوأمين، هرم مصري حقيقي ذو قمتين، بهندسة مثالية. ثم إلى أبعد، وكأنها غير حقيقية في السماء الزرقاء، ترى كتلة ضخمة مرّبعة ومزرقّة يعلوها عرف تنّين. ذلكم هو جبل الرصاص. وأبعد منه، كأنّما هو تابوت من صوان، الزغوان، جبار المياه، أبو الأمطار. وبين هذا المشهد المسوسح من بحيرات وسهل وسهل بعده، وسهل يقودك إلى قلب إفريقيا ويوصلك للسيرتات، فجوة منفتحة بين نهرين يصبّ أحدهما في الخليج والآخر يغور نحو العتيقة.

في جميع الفصول، في أعلى المرصد، حيث يولعون ناراً، يميّز الناظر بين نار على جبل التوأمين، ونار على جبل الرصاص، وأخرى على الزغوان. يتراسلون بالنار مع تُجّا Thugga ومع سيكا، حتى شيرايين، حتى الأرباتا، ومع جميع قمم الأطلس وجميع مدن الداخل والشاطىء حتى واحات الجنوب الأقصى، حتى الأرخبيل في البحر. سؤال وجواب بالنار، وعلى كل قمة من المرصد البحري حتى الصحراء، سيقام معبد للبعل، وستولع نار، وتنطلق الأخبار والاستنفار والأوامر. خلال ساعات قليلة يصل الخبر من أقصى أسواق الجنوب حتى المدينة. فكأنّ أليسا ومَن قبلها قد هندسوا الأرض وقولبوها ورفعوا القمم وحفروا الوديان قبل بناء المدينة العظمى.

منذ سنوات متأخرة ذهبت الإشارة من مرتفع إلى مرتفع. شعر الإسلام أنه في خطر بسبب ظهير (مرسوم) من سلطان المغرب. وبرغم منع وتعطيل الهاتف والتلغراف، إستعاد الأفارقة ذاكرتهم الدهرية، فتذكّروا الإشارات النارية، وأطلقوا الخبر من المغرب إلى القاهرة وإلى المشرق العربي وإلى سيلان بليلة واحدة. ذلكم هو العالم العربي إذا استقام وجدانه. وقرطاجة من أركان هذا الوجدان العربي ومن مداميكه.

* * *

القرية الحديثة = حدشيت، قرطاجة

شطّطت أليسّا على أرض أفريقيا، على ساحل كمبة، كمبة ستصبح قرطاجة. منذ ثلاث مئة سنة كان الحميريون قد نزلوا في كمبة. ولكن نشاطهم ظل محصوراً في نطاق الشاطىء. إلّا أن قدر قرطاجة مكتوب في موقع كمبة منذ البداية.

القرية الحديثة إذن لن تنشأ من العدم ولا من الفراغ على أرض بكر وعالم بكر. بل اعتاد السكان الأصليون على التعامل مع الحميريين الكنعانيين الفنيقيين. فغير بعيد عن كمبة (**قضاعة**) وبيزرتة والعتيقة تقوم قرى السكان الأصليين والسوق الدوّار خارج أسوار المدينة الفنيقية حيث يحضر الأصليون بمنتجاتهم فيبايعون ويقايضون بدون أن يدخلوا إلى المدينة الحميرية. وسيبقى للسوق الدوّار صفاته المحلية بدون أن يحرّج الفنيقيون على تبديله.

فإذا كان تأسيس قرطاجة يتأرّخ رسمياً في العالم 814 ق.م. فإن الوجود الصوري الحضرمي قد بدأ في القرن الحادي عشر ق.م.

يقولون إنّ إيليسّا قد هجرت صور لكي تؤسس قرطاجة! الأصح أن يقال إنّ إيليسا بالحريّ قد هجرت صور ولحقت بالسابقين في العتيقة. ولقد تكون الفتنة في صور قد انفجرت بالحريّ بعد قرار نخبة ومجموعة من أذوائها بالهجرة إلى قرطاجة بقيادة الأميرة أليسا، بدلاً من الفرضية التي تقول إنّ الهجرة هي نتيجة الفتنة. فبدلاً من القول إن الفتنة قد طفّرتهم إلى إفريقيا كثوّار مغلوبين يمكن أن نفترض أن الهجرة الضخمة مع رساميلها قد ولّدت فتنة ضد الأمير الشقيق الذي كان يتزعّم حكماً شعبياً يسارياً، فيما أليسا كانت زعيمة الرسمالية الصورية.

إن ما نعرفه عن قرطاجة يحملنا على هذا التفسير. فالوافدون إلى كمبة هم شخصيات وأذواء وفاعليات. وايليسا أميرة ملكية. فليس هؤلاء من النوع الذي يخيّم ويقيم تحت شادر وفي ظل الشجر في انتظار أن يحفر المرفأ باليد، وأن تجرّ المياه للشرب، وتبنى الحواويز بانتظار المطر. فليست تكفي سنوات قليلة لتحضير مدينة كيما تصبح أهلاً لاستقبال نخبة صورية برئاسة أميرة ملكية. فلو لم يكن الوضع جاهزاً لكانت ايليسا وصحابتها قد تأرّضوا في العتيقة ـ مثلاً ـ بدلاً من كمبة. رأيُنا إذن أن الأحواض كانت شغّالة على التمام ومنذ زمان عندما وصلت نخبة أو فئة منشقّة لتكرّس وتدشّن مع ايليسا قدر المدينة الجديدة.

هذه الفئة المنشقة كانت مؤلّفة، في أعقل تقدير، من أصحاب أحواض صوريين اهتموا بتثمير مالهم وأعمالهم في منطقة البحر الغربي، وفي المحيط الأطلسي. ومن بحّارة طالما عرفوا صقلية ومالطة وسردينيا وكورسيكا والباليار وإيبيريا وأفريقيا الشمالية. إنهم ما يحسُنُ أن نسميهم الشعبة المغربية من المؤسسة الصورية البحرية.

صور بعيدة. والمصالح المغربية باتت تهدّدها البحرية اليونانية الناشئة. فلا بد إذن من الاقتراب من الفروع والمحطات.

وكان أسياد صور مهتمين كذلك ومضطربين مما كان يجري قريباً من جزيرتهم. فالآشوريون استولوا على بابل. وبذلك نهاية ألف سنة من الامبراطورية البابلية. إنها نهاية شبكة زبائن وعلائق وعرى مشرقية ومعاملات وقوافل ومركّب متكامل من التجارة والتبادل. كل شيء راح. ولا بد من تأسيس جديد وتحت رعاية مختلفة.

والمتوسط الشرقي في حالة حرب: كريت تتداعى تحت ضربات الهمجي الدوري. وتموت حضارة عمرها ثلاثة آلاف سنة صديقة وجارة ونسيبة للحميريين.

وإنها نهاية الحثّيين أسياد الحديد. وفي آسيا البعيدة، نُكبت الصين بضربة لا مثيل لها: لقد انتهت سلالة شانغ العظيمة. وانقرضت صناعة البورسلين والفخار المشوي والمطلي. ما أبشع هذه البضاعة وما أهشّها في أيدي الهمج؟!!.

صور ثابتة، نعم، ولكنها التاريخ يتحرك. مصر وصلت من زمان إلى قمة أقدارها. منذ خمس مئة سنة بني الأقصر والكرنك. وعمر الحضارة المصرية يغور إلى آلاف السنين. الهرم الأكبر صار عمره ثلاثة آلاف سنة. ومنذ ثلاثة آلاف سنة وصل الحميريون إلى المتوسط.

مستعمرات صيدون وصور في المشرق راحت تنفصل تباعاً مثل أولاد كبروا وانفصلوا. في أوروبة هبطت من الشمال شعوب شمالية نحو الشواطىء المستعمرة. وفي اليونان تهب روح مغامرة وفوضى فتفتن الشعب. فالحكمة تفتي بارتقاب أيام صعبة جداً، وصور جميعاً موافقة على هذا الترقب. وفيها الكبار يودّون أن يرضخوا للمتغيرات وأن يتصدوا للفتنة، وأن يتقولبوا مع الظروف الجديدة، فضّل جماعة أن ينطلقوا غرباً نحو زبائنهم، وأن يفتشوا عن زبائن وأسواق جدد وأن يشددوا البنية المغربية.

في المنطقة التي ستنشأ عليها روما، كانت الخنازير ترعى البلوط، وأثينا قرية صغيرة

وديعة وعليها أن تنتظر ثلاثة قرون قبل أن ينبغ فيها صولون، وخمسة قرون قبل أن تعرف بريكليس.

بعد ألف سنة سيولد المسيح. وقرطاجة تولد اليوم. كمبة تعني القديمة مثل Utique. وتلفظ أيضاً قضاعة Kadueia. أما المدينة الجديدة، القرية الحديثة، الحدشيت، فسوف تصبح قَرْتْ حَدْثَتْ، قرطاجة. وسموها أيضاً قرت ـ عدا: مدينة البحرْ. كمبة قد تكون بنيت حيث تقوم الآن حمّامات انطونين قرب عين الألف جرّة Amphores. ولربما كانت غير بعيدة عن البحيرة، التي كانت أكبر، وممتدة حتى برصة بقرب قنال يصل الخليج بالبحيرة، ويستعمل مرفأ وللصيد. وهو يتوافق مع ما اسمه اليوم كرام، باتجاه محطة قطار سالمبو. .

ايليسا

للتأريخ ينبغي أن نفتش وأن نبحلق وأن نفترض وأن نستنتج، وينبغي كذلك أن يكون لنا رأي ورؤيا. فكيف نرى إيليسا؟.

ليست إيليسا شأناً فولكلورياً وليست هي غجرية همجية ولا سلفيّة بدائية بدوية. وليست كذلك على ترف ظاهري قوي مثل التبرج الغجري.

إيليسا إمرأة عصرية، على الموضة، وفي هندامها شيء من التحدي وكثير من الذوق.

إيليسا ليست دمية مصبوغة. ففي سورية، كما في مصر، تلعب المرأة من زمان دوراً هاماً وطليعياً. إن أميرة أو امرأة يؤهّلونها لأن تتزوج ملكاً أجنبياً أو أن تملك في بلادها، أو تتزوج رجلاً بارزاً، كانت قسراً تتلقى تربية خاصة، وتتلقى ثقافة سياسية واجتماعية وقومية ودبلوماسية. فهي سفيرة لبلادها، أو لقومها، أو عيلتها، أو للعشيرة. وهي سفيرة لحضارتها وسفيرة اللباس والفنون العظمى، وللغة القدسية الكنعانية ـ الآرامية العربية، ولما فيها من فكر وعبقرية. فإذا كانت أيّ بنت صوريّة تتأهل لأن تكون مربية للملوك، ومعلمة، ومديرة مدرسة، فماذا عن الأميرة الزعيمة إيليسا، الأنيقة العصرية، أخت ملك صور؟؟ بل هي حَكَمٌ لجميع الأناقات والأنيقات ولكل أرستقراطية ونسب. بنت صور هي، وسيّدتها، وهي الثائرة على ما ليس يعجبها، بل وربما قامت الثورة لأجلها.

وإنها لعلى اتصال مباشر ومتساو.مع كل ملك مصري، ومع آل مينوس في كنوسوس، وسوف تجمع أولادهم بعد النكبة، وتغيث الآباء وتفدي الأسرى والفنانين والحرفيين من مدمِّر كريت الهمجي. وهي على علاقة، من فوق، مع أمراء أيونيا وإيجه وحضرموت والحبشة. كل اسم يدّعي نسباً وسموّاً يشرّفه أن يتقرب من أميرة صور، إيليسا. لقد زارت مصر في طريقها، وميّلت على كنوسوس، وقرأت آخر كتاب مصري، وحضرت مباراة العجول التي أقيمت على شرفها في كريت، وأبحرت في النيل وزارت طيبة. في القصور نشأت، وفي شواطىء صور وصيدون سبحت، حيث خطفت جدّتها عروبة أخت قدموس. وأشرفت على صناعة البرفير والفخار في رأس العين. وماذا ينقصها من العز إيليسا؟؟. إنها جدّة صقر قريش نسباً ومغامرة.

خمريّة حُميراء، قوية اللمحات، محنّاة بأناقة وذوق. وفيها مزيج من سمار وشقار. إلهة الأفاعي في قرطاجة كانت شقراء حميراء عاتكة.

صدرها عامر، قامتها ممشوقة، خصر ضيّق، أرداف واسعة، كفّها صغير، وقدمها أشبه شيء بتمثال إلهة الأفاعي أو سيدة الرعاة القرطاجية. وأضيفوا عليها ما تيسّر من حلى وجواهر! بتؤدة تسير، ملكة، بخطوة واثقة ونظرة راعية، وبحنان وشموخ. إيليسا قمّة كل زينة راقية وكل فن وتجميل. كل أناقة متأنّية ففي إيليسا. هذا هو منطق الدنيا والناس والزمان.

إيليسا عرفت ما ظلّت الحضارة الأوروبية تجهله حتى القرن العشرين: الحمّامات والنظافة اليومية والمراحيض في المنزل مع كل علم صحي ووقاية. إيليسا في بيوت صور وقصورها وبيوت الناس، كما في فينيقيا وحضرموت، وناطحات السحاب في اليمن، عرفت المياه الجارية والمياه الساخنة والتدفئة المركزية. نعم. وعرفت، وكل الفنيقيين، البيوت ذات الطوابق الستة مع المياه الجارية إلى المنازل. فلما هجرت إيليسا صور لتملك في قرطاجة لم تأت لتتنازل عن حضارتها بل لتزيد فيها من العبقرية المحلية. صور ضيّقة على صخرتها، وإيليسا تهجر الضيق إلى الرحاب القارية، وتهجر تعقّد التقاليد المحافظة والمكبّلة والفوضى، لكي تفتح عالماً جديداً وتتبع أقدارها القلقة.

كانت الشخصية الثانية في صور، فستكون الأولى في قرطاجة، وستنشىء إمبراطورية. وهكذا صقر قريش. كلاهما وصل وتسبقه مهابته.

أحقيقة أم أسطورة إيليسا؟ الجدال لا ينفع. الحقيقة هي أن إرادة عليا، ومشيئة كالقدر عزمت على إنشاء قرطاجة. وكانت المشيئة فردية وجماعية، وكانت مختلطة ذكوراً بإناث. وأسطورة إيليسا لم تأت من العدم. بها وبأمثالها بُنيت قرطاجة وتأسست منذ حجرها الأول كقاعدة لإمبراطورية. وكان ذلك قدراً مكتوباً.

قرطاجة وأنسابها

أعرفوا أنسابكم!
ابن خلدون

المقـدمـة:

ثمة عبارات يودّ الإنسان ألا يعـود إلى استعمالها بقدر مـا أنها استُبيحت وشُوِّهت: كمثل العرْق.

ليس ثمة عرق نقيّ. وما من عرق يـدّعي أنه الأنقى إلا وقـد امتزج مـراراً بغيره. ومع ذلك فـإن جماعـة بشرية أم بيئة أم تاريخـاً مشتركـاً قد تؤدي إلى إنشـاء نوعيـة بشرية مميزة، وإنّ تقاليد قد تؤثر في حصول تناغم جسدي أو عقـلي، فيضطر العلـم أم المـدوّنون إلى اخفاء اسم أو هوية تفرّق بين هؤلاء وأولئك في الـزمان والمكـان. ولكن ذلك لا يعني إذا بحثنا في العمق أن ثمة تميزاً عرقياً أو شعباً مختاراً أو أرض فردوس وأرض جحيم. بل كلّ مكان ينبت الرزق والعزّ طيّب.

فـإذا ما اعتمـدنا عبـارة العرْق فتحت هـذه الشروط والمفاهيم. وإذا مـا تقصّـدنـا الكلام عن الفنيقيين حسبَ بعْضٌ من ضيقي الأفق أننا في صدد الكـلام عن الساميـين، فيكـون الفينقيون إذن نـوعاً من الإسرائيليـين. أما الحقيقـة فمختلفة جـداً ومضادة لهـذه الإدعاءات.

الفنيقيون، أنّى برزوا إلى التاريخ، كـانوا خـارجين إلى الـزمان المـدوّن من العربـة السعيـدة، حضرموت اليمن. ومـا كانـوا آنذاك عـلى توهم بـأنهم عرق نقي. فمنـذ قبل التاريخ الجلي كانت قبائل العربة والشعـوب والأقوام قـد تمازجت واختلطت وتصـاهرت

بفعل حرب وهجرة وغزو. وزواج وتجارة. وكان الشعب مؤلفاً بحكم الإنتاج من فلاحين مستقرين وأهل مدن وقرى وصيادين وقنّاصين وملاحين ورعاة ورحّل وأحرار وأرقاء وسود وبيض. فاليمن والجزيرة كلها منذ المتوسط والبحر الأحمر حتى أعالي الفراتين وطورس هي ممر هجرات وتجارة وملاحة ورعي واستقرار ما بين أفريقيا وآسيا وأروبة. ولا يعرف أحد مبتدأ لهذا السياق المتحرك والمتنقل من حياة الإنسان والأقوام. وكم كان من علاقة وثقى ودائمة وقديمة بالأخص ما بين الحميريين في اليمن وبين الأحباش في الضفة الغربية من البحر الأحمر. والحميريون هم أرومة الكنعانيين الفنيقيين. ومهما حصل جدال حول قرابة أم اختلاف في التوراة اليهودية وغيرها حول هوية الفنيقيين ونسبهم، وهل هم ساميون أم لا فإن هذا الجدال آبق وعقيم لأن عبارة «الساميّة والساميين» هي كلمة مستجدّة مستقاة من التوراة ومصاغة لجدلية يهودية توراتية تهدف إلى تنسيب اليهود القدامى في شجرة الأنساب المشرقية.

ولكن يبقى في الحقيقة التاريخية أن الفنيقي هو النقيض الأتمّ لليهودي خلقاً وإنتاجاً وتاريخاً. فالفنيقي بنّاء منقّب كشّاف بحّار ملّاح مُبَسْتِنٌ كرّام زراع يتقن الجلالي والسقي والريّ والبعل وحتى استغلال نتاج الصحراء. وهو صنّاع تقني معمّر مستعمر تاجر ممدّن وفنّان.

أما العبراني اليهودي، في الزمان الكنعاني الحميري الفنيقي، فهو تائه متنقل راع بدون أرض ولا فنّ، مهاجر دوماً مفتش عن أرض في منطقة عسير وجوارها وصوب البحر الأحمر الجنوبي. وفي الحالتين وغيرهما لم يفعل اليهود، بحسب قولهم هم وتوراتهم، سوى الاستيلاء بالغزو والجريمة على مفتلحات الكنعاني وعماره. ويفتخرون في التوراة في سفر يشوع 13-XXIV بأن إلههم يهوه قال لهم:

«لقد أعطيتكم أرضاً لم تفلحوها ومدناً لم تبنوها فها أنتم ساكنون فيها وتأكلون ثمار كروم وزياتين لم تزرعوها». والأدنى إلى الحقيقة أن اليهودي قد تغيّر وتعلّم بعد احتكاكه بالكنعاني الفنيقي وأن مملكة اليهود قد استفادت في موقعها الجغرافي = إذا كانت في فلسطين حقاً = من طرق القوافل التي أنشأها الكنعاني، فجبتْ الضرائب وتعرفت إلى التجارة والملاحة في إثر القوافل والسفن الفنيقية. وليس ببعيد عن المنطق والواقع أن العبرانيين قد اتخذوا اللغة الفنيقية لساناً لهم.

فإذا ما بان شبه بين العبراني والفنيقي فهو أثر من الثاني على الأول لأن العبراني

الغجري قد انبهر دوماً بأرض الكنعانيين، وانجذب أيضاً بآلهة كنعان وأديانها ورجالها ونسائها. وان التوراة لتعجّ عجيجاً بهذه الأخبار والوقائع.

أما ازدهار صور وعظمتها وسلطتها واتساع مساربها فقد حركت بلاغة حزقيال وهجاءه وحسده.

بالمختصر، ما كان اليهودي بحاراً ولا قوافلياً ولا روّاد مجاهيل في البحر ولا البر، ولا سيد حضر وبادية وصحراء، بل تائهاً بدون جمال ولا خيل أيام كانت صور وصيدون وأرواد وجبيل وعكا سادة المدنية وأمهات الحضارة.

الكنعاني في إمبراطوريته الأفريقية، استقبل الجميع وتعامل مع الجميع. ولما أُنعم على الإنسان والمسكونة بالرسالتين المسيحية والمحمدية تقبّلها تباعاً وتولّاهما وامتزج بالعالَمِينَ مصاهرة وتعارفاً وتلاقحاً فكرياً. أما اليهودي فظل مجانباً للتيارات المسكونية متقوقعاً في عاداته وفرائضه. بل وعاش تحت جناح الكنعانيين وحمايتهم وكأنه بدون تاريخ. التاريخ والزمان والحضارة ملك كنعان، من قبل ومن بعيد.

حضرموت والحميريون

الرجال الحمر = الحميريون = خرجوا من حضرموت، من اليمن. وتوزعوا في عروبا الآسيوية واطّردت شِعَبُهم وفروعهم. حضرموت بلاد آرامية في الأصل، والمصريون اسموها بلاد Pount أي الفونت، أي بلاد الفنيقيين. إنها بلاد البخور المقدس في جميع المعابد قديماً وحديثاً.

حضرموت أصلها الأقدم حمروت أي جمع أحمر. وعاصمتها سبأ = شبأ (أو شبوة أو شبيام) على وادي حمروت تحميها سلاسل من جبال صعبة الولوج صعبة المرتقى. من هذه المنطقة انطلق الحميريون الكنعانيون الذين منهم الفنيقيون (فنيق = الأحمر) والقرطاجيون.

سَبَأ، في الترجوم البدوي، تعني أحمرَّ وأصحرّ وأصهبّ. أما في اليونانية القديمة[1] فإن سبأ أو سريبة تعني سرّاً وسحراً. أما في البدوية الأعرابية الواصلة إلينا فإن سريبة = زريبة = تعني تصوينة وسوراً. وقد كانت اليمن صعبة المولج ومحاطة بموانع وحمايات.

(١) يظن بعض العلماء أن اليونانية القديمة هي لهجة عربية قديمة. ويكاد هذا الظن أن يصبح يقيناً.

والجذر زرب والجدر س ر ب والجذر س ر ر متقاربة في معاني السرّيّة والخفية والباطن والأقفال والمرور الصامت والانحباس. وهي جميعاً تلائم ما كانت تتصف به اليمن من سحر وسرية وحماية. يقول بلين Pline في تاريخه الجديد Histoire nouvelle:

«البخور موجود فقط وقصراً وحكراً في العربة (اليمن) دون سواها. فالبخور المقتطف في بلاد سريبا ينقل إلى شبوة على الجمال عبر درب محميّ وممنوع ومحرّم على مطلق قافلة أو انتقال تحت عقوبة الموت وأما قوافل البخور فلا تلج المدينة سوى عبر بوابة واحدة مخصصة لها دون سواها».

أما الرحالة المعاصرون فبعد أن استطاعوا الوصول إلى شبوة وصوّروا فيها فقد وصفوها بأنها «شيكاغو في الصحراء». ففي جميع مدن اليمن ومنطقة سبأ تتعالى ناطحات سحاب عجيبة من عدة طوابق ذات مخازن ومستودعات. ومنازل وأسوار وخدمات صحية وآبار وعيون. ويعاين الخبير بقايا فنون أشورية وبابلية بدون ريب أو شك، سواء في الشرّاقات والطاقات المبنية معلّقة ومتقدمة على هيكل البناء الأصلي، أم في حيطان الأسوار أم في أبراج الزوايا والمقاوص وأشباه المتاريس والمحارس. وفي البوابات الكبيرة ذات المداخل الصغرى للقافلة المحمّلة أم للعابر المنفرد، وفي الأسلوب المتقلّص صعداً صعداً كالزكّورة والهرم. وأخيراً في منهج عمار دور متعددة مجمعة في حوش متكامل ودفاعي كأنّ كل حي قلعة وكل مجمّع عمارات قلعة متضامنة.

في بلاد الرجال الحمر، حمير، تجد في نواحي شبوة عمارات «مستغربة جداً»، صخوراً «موشومة» وصخوراً مرقّطة بفجوات مرصوفة ومصفوفة وقد ملئت بصباغ أحمر(*).

وإذا كنا نجهل لماذا تسمّى الحميريون بهذا الاسم أو تلقبوا باللقب الأحمر منذ أعالي الأزمنة فإننا في بحثنا عن الجواب سوف نجوب على عدة خيارات. إليكموها:

* البناؤون منهم عمّروا بيوتاً حمراء صهباء بنّية، بلون الدلغان المشوي أو المشمّس.
* الصبّاغون منهم ابتدعوا البرفير استخراجاً من صدفة المور(*). وحتى اليوم كانوا ولا يزالون يزينون النساء بصبغة الحنّة الحمراء.
* المزارعون منهم دجّنوا شجرة الرّمان، التفاحة الفنيقية Pommier Punique، ذات

(*) في الجزائر نجد الوصف إياه تماماً في «قبر المسيحية».

(*) حتى اليوم لا يزال الغنم المور يُعْلَم بالمغرة الحمراء في دنيا الأغنام.

الزهرة الحمراء الفاقعة. وحتى اليوم في المشرق العربي وفي العربة جميعاً لا يقوم بستان ولا يكون إلا إذات كان فيه أكثر من نصبة رمان مهما كان إنتاجه.

* الملاحون منهم سيصبغون الأشرعة بالأحمر سواء بالعفص أم بالبلوط أو بالزعفران أم بقشر الجوز أم بقشر الرمان.
* النسّاجون منهم والبزّازون والمعمّمون سيتباهون بالبزة الحمراء والقبعة الحمراء سواء أكان دلك تاجاً أم عمامة أم طربوشاً أم لبّادة محمرّة من صوف بنيّ أصهب
* أما الجسد المنحّس والمسمرّ فإنه على لونيّة محمّرة، وكذلك الغوى باللباس الأحمر في الأعياد أم كعلامة على ثراء ونعمة، ورضى من الآلهة.
* وأما الوشم فسوف نراه على الوجوه وعلى الأقنعة الفنيقية مع رموز مقدسة أم كحرز ودريئة ضد العين الشريرة وضد الحسد والشهوة.
* أجاؤوا من حضرموت وسبأ واليمن إلى لبنان فإنهم، بصدفة أم بقصد وتقليد دهري، يحطّون الرحال بالأخص حول نهر آدون = نهر إبراهيم اليوم = حيث تحمرّ المياه كل عام في آذار والربيع عند ذكرى استشهاد الإلّه آدون زين الشباب وفي موسم انهيار الطمى الدلغاني الأحمر مع ذوبان الثلوج من مرتفعات العاقورة وأفقا والمجدل وسنّور عبر الوادي المقدس المنسرب من أعالي جرود جبيل حتى البحر.
* وفي قرطاجة، كأنما بقدر لونه أحمر، أقيمت المدينة على تلال دلغانية حمراء، وبنيت بيوتها بقرميد وآجر أحمر.
* وفي غرناطة الحمراء رافقهم اللون في الحقبة العربية الإسلامية.
* اللون الأحمر، كما نرى، رافق التاريخ الكنعاني الفنيقي الحميري العربي وصبغ مدنياتهم واحدة بعد الأخرى في سياق حضارتهم الواحدة.
* وكان الفنيقي، الشعب المتألّه، يعتبر اللون الأحمر ميزة له ويفتخر بلقبه المشتقّ من اللون الأحمر ومن حمير حضرموت اليمن. وسوف نلاحق هؤلاء الحميريين مع توالي الزمان والأجيال، وعلى مختلف الشواطىء والأسماء والأوطان والآلهة، متمددين ومعمّرين ومتوطنين أينما حلوا وزرعوا وبنوا وقنّوا.

ومهما تبدلت أسماؤهم فسوف يبقى حنينهم إلى منابعهم هو الهوية الدائمة، وسوف يظلّ الإثم الكنعاني سمتهم العظمى. وستبقى لهم عبقرية ومعلمّية أحواض السفن والملاحة والقوافل القارية والصحراوية والتجارة العالمية والعمران الكبّار واحتكار البخور والأفاويه والأسرار والمعرفة والعرفان.

الأوديسّى L'Odyssée

كان بين فنيقيا ومصر اتصال مفيد. وسوف نـرى أثر الاتصـال بين فنيقيـا واليونـان القدامى.

بعد موضوع المعابد والأهرام، وبعد الأرز المقدس، سنلج الموضوع الأدبي الأعـظم في اليونان القديمة، مع هوميروس والأوديسّى.

ان لنا هنا دليلاً وهادياً أكيداً. لقد كتب فكتور بـيرار Bérard دراسة أستـاذية عن ينابيع الأوديسّى، وعيّن المواقع التي تدور فيها مأساة أوليس في بحر الغروب، أي المتوسط الغربي.

غادر البطل مدينة طروادة بعد غزوها ونهبها وحريقهـا. نزل نـزلة غـير موفقـة على شاطىء تراقيا، عند الكليون. ولكن العاصفة طردته عبر الأرخبيل وتوّهته عن ممر سيتـيرا (Cythère) الذي منه يكتنف البيلوبونيز ويعود إلى إيتاك.

كـان أسطولـه يتألف من ست سفن فـدفع بهنّ ريـح عاتيـة إلى بحار مجهـولة تقـع جنوبي سيتيرا. فتاهَ فيها، أو وقع أسيراً، حوالي ثماني سنوات بدون أن يتمكن من العـودة إلى المياه الآخية

جميع مغامراته تحدث طوال شواطىء المغرب، بعيداً عن «بحار الطحين» التي يأكل سكـانها الخبز المقـوّي لعصب الملاحـين (مسامـير الرُّكب) ولا يلتقي إلاّ بـأقـوام همج أو مدهشين:

- قوم اللوتوباج الذين يقتاتون بالنسيان،
- قوم الصقلوب وقوم اللستريغون الذين يأكلون لحوم البشر،
- الوحشَين شريبد وسيلا، وآلهة طماعين،
- وإيكول، والآلهة الساحرة سِيْرْسة، وحوريات سوء، وجنّيات، والحوريّة الحسودة كاليبسو. هويات الآلهة دقيقة جداً. لم تخترع الأوديسّي أوهاماً ولم تتكلم على التقريب. الوصف الدقيق يسمح لملاّحي اليوم أن يتعرّفوا على المناظر كما تُرى من البحر، وكما وصفها الشاعر.

سيرسة: تجاه الشاطىء الطلياني، بين روما ونابولي، تظهر التلة سيرسيو Circéo وقمتها التوأم. انها عند الطرف الجنوبي من بحيرة بونتين Pontins. هذا الجبل يبدو كجزيرة عن بُعد، كما تقول التعليمات والإرشادات البحرية.

كاليبسو، هل تريدون أن تكشفوا بلاد كاليبسو وبلاد الصقلوب؟ فتشوا ماذا يمكن أن تكون ترجمة الكلمات إلى اللغة الفنيقية. جزيرة كاليبسو هي جزيرة الإختباء (المخْبَأة). ! فالمغارة والينابيع الأربعة وأشجار الكاليبسو موجودة في جهات اسبانيا. وحقول البقدونس Persil أعطت اسمها لجزيرة Peregil التي توازي جبل طارق، غير بعيد عن ترشيش.

الصقلوب، الصقلوب اليونانية تعني العيون المدوّرة. على الشواطىء الايطالية ثمة اسم لمكان قديم: عيون الثريا «Oînotra». اليونان واللاتين عرفوا هذا المكان، ولكنه الآن صعب التعيين.

فكتور بيرار يصف هذه العيون بالمدورة: «مدينة كوم/كومباني، هي أقدم مدينة في ايطاليا، وهي المدينة المرتفعة التي اضطهدها الصقلوب والتي يسميها الشاعر الهبّارية ذات الحيارات الواسعة. الهبّارية وكوم هما كلمتان توأمان في اليونانية والفنيقية.

السّيرين - الشيرين - الحواري: جزر الحوريات الثلاث تقع جنوب جبل سيرسيو، بعد خليج نابولي ومضيق كابري. كان اسمها في القديم جزر الحواري.

شريبد وسيلاّ، جميع كلمات الوصف والمغامرة الأوديسية تتوافق وجغرافية مضيق مسّينا وتسمياته، ولا يزال، بعد ثلاثة آلاف سنة، يحتفظ على ضفته اليسرى بصخرة سيلاّ، وعلى الضفة اليمنى بمغارة شريبد.

وفكتـور بيرار يعـيّن تماماً حجري النـار والطيـور اللتين يسميهـا الآلهـة بـلانكتس Planktés لأن العـرب يستعملون جذر ب ل ق/الأبلق/ بمعنى بيضـاوي أو قِمعي (ننسبة إلى قِمع).

طريقا سيرسة يميـلان، بعد المثلث الصقـلي، لا نحو ايتـاك أو المياه الإغـريقية التي يريد أن يبلغها أوليـس، وإنما نحو طرف افـريقيا الشـمالية حيث قـامت في القرن التـاسع قبل المسيح المدينة الفنيقية الصورية الجديدة قرطـاجة. هنـاك بالـذات كان الفنيقيـون قد أسسوا في القرن الثاني عشر مدينتهم القديمة الأوتيك.Utique، **العتيقة**، **العاتكة**.

سيرسة كانت محطة، عميلة وتلميذة لبحّارة العتيقة، العاتكة.

اللستريغون: اللستريغون الهوميريون كانوا على المضيق بين كورسيكا وسردينيا.

مؤلف كتاب «**الفنيقيون والأوديسّى**» يستبعد فرضيـة «هوميـر هـو أوليس» شخصـاً واحداً، فالشاعر إذن هو إياه بـطل مغامـرات الأدويسّى، وهو كـان زار الأراضي المغربيـة قبل أن يصبح واصفاً لها. فكتـور بيـرار انـدهش من الوصف الـدقيق للمشاهـد، ومن توافق تعابير الشاعر مع تسميات «**التوجيهـات البحرية**» المعاصرة، وتـأكد أن التسميـات سهلة وحقيقية كما لو كان الناظر يشاهد بانوراما موسعة للمنطقـة من على ظهـر السفينه. ثم أكتشف بيرار «غلطة ترجمة» تنقض المعنى، فرفض نظرية كون الشاعر هو البـطل، أي رحّالة يصف ما رأى.

الحقيقة التي في الأوديسّى تبرهن أن البطل كاتب الأوديسّى قد توجـه نحو الـرؤوس الصخرية الثلاثة التي هي رأس بون ورأس قرطاجة والرأس الأبيض.

وثم... فإذا ما ذكر شاعر الأوديسّى قرطاجة بالاسم فلأنه يؤلف ملحمته في عهـد قرطاجة ـ بعد أن بنيت قرطاجة ـ متأخرة عن تاريخ حرب طروادة. فإذا مـا ذكر الشـاعر المدينة العظيمة فتدليلاً «معاصراً» عـلى الأمكنة الجغـرافية التي كـانت فارغـة أثناء حـرب طروادة، وبغير إسم.

اليونان كانوا يجهلون البحر المغربي كلياً فيما كـان الحميريـون منذ تـأسيس العتيقة، العاتكة، يعرفون البحور والمياه والبر، ثم ازدادوا بها معرفة بعد أن أخذت القرية الجديدة (قرطاجة) مكان العتيقة.

وكان لقرطاجة مصلحة في إبعاد اليونان عن البحر المغربي كيلا تتكرر المنـافسة التي

حصلت في المتوسط الشرقي، وكان من مصلحتهم إذن أن يصدر وأن ينتشر كتاب مثل الأوديسّى يخوف البحارة اليونان من مخاطر البحر الغربي ويبعدهم عن مدى قرطاجة الحيوي.

ويستنتج فكتور بيرار:

«سأقول فكرتي بدون حرج. رأيي أن استكشاف الفنيقيين لبحر المغرب ولّد دورة من الرحلات أصبحت هي الإطار والمادة لملحمة شعرية عن ملقارت ـ هيركليس. وأظن أن الشاعر اليوناني «**لِسِفْر الألكينوس**» قد ارتكز على نصٍّ فنيقي واستغل الملحمة الصورية الصيدونية، تماماً كما أن شاعر الأنييد Enéide استغل «الأشعار الهوميرية»».

* * *

في مدينة ملّات Milet حصل الدمج الباهر للشعرين الفنيقي واليوناني. ويقول بيرار في هذا المجال:

«يخبرنا هيرودوت ان طاليس الملّاتي، أول فيلسوف أيوني، هو سليل عائلة فنيقية من صحابة قدموس ومشهورة ما بين يونانيي آسيا. وكان أحد الحكماء السبعة «بياس» (Bias) هو أيضاً سليل إحدى العائلات الصحابية القدموسية. وأول من كتب التاريخ في ملّات هو قدموس. وكتابه «تأسيس ملّات» هو أول كتاب نثري باليونانية. وطاليس هو سليل آل تليد Thelides، الذين هم الفنيقيون الأنبل (الأتلد) مابين أحفاد قدموس بن أجينور. وما من أحد إلا ويعرف أنه جاء إلى ملّات برفقة منفيّ من فنيقيا يدعى فيلاوس، بعد أن عايش الكهان المصريين وتتلمذ عليهم.

الصحابة القدامسة كانوا قضاة مصلحين وسفّاطاً(*) ما بين الصيدونيين والصوريين العائشين في ملّات وبين اليونانيين. وكانوا يفتخرون بنسبهم الفنيقي وحضارتهم. وقد نشروا بين اليونانيين المنتجات والعادات والعلوم والفنون والآداب الكنعانية الحضرمية الحميرية على أنهم من رتبة آلهة وشعب متفوق وينثرون ما أُنعم به عليهم على الأقوام الغريبة الجاهلة لكي يرفعوا من سويتها المجتمعية. وكان من البديهي والمنطقي أن ينشيء

(*) سفّاط جمع سافط. س ف ط = جذر سرياني آرامي (متحدّر ربما من الأكادية) يعني تنازل عن حقّه مسالمةً، وأبرأ ذمة الخصم مع تسامح. س ف ط = جذر عربي (موروث) يعني: كان طيّب النفس سخيّاً أريحياً كريماً سموحاً. الكنعانيون جعلوا السافط هو الحكيم المصلح المؤتمن على الحقوق والقاضي بالحق العدل.

القدامسة الصحابيون والتابعون وبنو الحضارة الكنعانية أولادهم وذرياتهم على الآداب الفنيقية والكتابات التي تقوّي الانتساب والإنتماء وترصّن الأخلاق، وتفيد وتسرّ.

وإنه لمن منطق الأمور أن يكون قد نبغ في اليونان الأيونيين أول كتّاب وشعراء وحكماء ومثقفين من بين ربائب بلاط ملّات ومن حوسة الملوك والحكام والسفّاط أي من الصحابة القدموسية وذرياتهم.

سؤال فريد حول هوميروس وإسمه: حمير، حميري، عمير. . . المهم أن الجذر HMR، ح م ر، هو إياه جذر حمير وأحمر واحمرار، ذلك اللون المرافق لتاريخ حمير وفنيقيا والعربة. أفلا يكون هوميروس (حُمَيْرُس):

أولاً: أحد سلالة العائلات القدموسية، مثقفاً كاتباً جوالاً عارفاً بالأسرار والأديان الأورفية Orphiques، العرفانية.

أو ثانياً: ابن عيلة يونانية استحبّ أن يتخذ اسماً فنيقياً كي يطرح على ذاته وكتابته سمة الاحترام والصدق والعلم؟.

ثالثاً: رجلاً صوريّ الأصل فنيقي النسب، اسمه ملك، مالك، ولد في صور العام 233 وأصبح من أشهر تلاميذ أفلوطين، فلقب ذاته، برفير (الأحمر). وبرفير هذا هو مرادف لهوميروس، حمير، الأحمر (حُمَيْرُس).

لماذا يعمد المؤلف هومير، إذا كان يونانياً، أن يساهم في إبعاد بني شعبه عن شواطىء قرطاجة بالخوف والرعب؟ بل الأكثر معقولية أنْ نفترض أن الشاعر، هومير، عُمَير، هو سليل بحار فنيقي عتيق من رودس أو غيرها. . . أو ربما. . . من قرطاجة. . .

إن الذي يعرف اليونانية الهوميرية، الخبير بها، ليعجب من قدرة هذا الشاعر اليوناني، هومير، على التلاعب بيسر وسهولة فائقتين، وبجمال وتأنّق، بالجذور الشامية الواردة في الأوديسّي، بأسهل مما يمكن لشاعر يوناني قحّ أن يتلعّب بالجذور الغربية.

ميشال بريال، يقول ان لغة هومير مزيج من الأيونية والقبرصية والعتيقية. (لغة قرطاجة العتيقة، أي الكنعانية الصورية). وهكذا تكون أيام قرطاجة الأولى مرافقة لصدور الأوديسّي. وليست قرطاجة بمدينة جديدة ويتيمة لكنها هجرة إلى افريقيا لقفير من مثقفين حضريين متمدنين، يحملون أوراق اعتماد ولا أسمى. إنهم مهندسون ذوو رصيد تنفيذي في بنايات عظيمة، وأنهم لأدباء وشعراء وحكماء وفلكيون وحسابيون. إنهم نخبة

صورية معاكسة ثائرة يودّ أيّ شاعر أو مثقف أن ينتمي إليهم.

في مكتشفات رأس شمرا عثر كلود شيفر وڤيرولّو على مجموعة ملاحم وأساطير شعرية قد تعوّض فقدان كتابات سنكون ياتن التي تؤكد أحباراً عن شعراء فنيقيين كبار وعن مثقفين منتجين. فلم تكن فنيقيا إذن مجرد مرفأ وسوق ومصرف وأسطول.

ولكن القليل المكتشف عن سنكون ياتن وايل مالك يؤكد هوية هوميروس الفنيقية الحضرمية، ويسهّل فهم الأسماء القرطاجية في الفهارس التي نجت من الهمجية الرومانية.

سنكون ياتن: اسم مشهور جداً. كتب قبل حرب طروادة تاريخاً وقائعياً يعود إلى بداية الخليقة. لم يبق منه سوى شقف مبعثرة، ولربما كان هو مؤلف سفر التكوين الذي تدّعيه التوراة اليهودية، بعد أن شوّهته على هواها.

أما أشعار رأس شمرا، ذات الوزن المضبوط بدقة، فإن فيرولّو الذي شرحها وقدّمها يصفها بكلمات لأرنست رينان: «جعبة من أسهم فولاذية، وحبل ذو مرّة، ونفير من نحاس، تعلو في الجو بجرس حاد».

صاحب هذه الأشعار هو إيل مالك. وقد أُنشد في شعره تسابيح للآله بعل ولأخت بعل الآلهة عنات. قال:

«بعل يولد في الربيع، يصارع ويجاهد في الصيف، ويختفي عند بدايات الشتاء، ويبعث بعد ستة شهور».

هذه الرؤيا الشعرية للطبيعة وللأشياء في تجددها الدائم، نجدها اليوم أينما كان في الآداب العالمية. ولكنها قيلت أول ما قيلت في رأس شمرا.

فيرولّو يقارب هذه الأسطورة من أسطورة أدونيس الذي سيُعبد في جبيل وعند منابع أفقا.

شعر إيل مالك يروي قصة عنات: فلكي تبني هيكلاً لأخيها استنفرت حطّابة لبنان وصاغة فنيقيا. وبعد عمار الهيكل يحدث أن بعل، في حفلة صيد غزلان، ينطحه وحش كاسر ويموت. فتدفنه عنات وتضحي له وتموّنه بما يقيته طوال فترة دفنه.

وتتغلب عنات على الموت: إلاهة شمسية تحيـي بعل وتقيمه من قبره. وتنتصر الحياة على الموت.

ليس في هذه الملحمة الفنيقية شيء من الأوديسّى وغمطها. ليس فيها سفن. وهي في رأي الخبراء، سابقة للقرن الرابع عشر. ولربما ألّفت في الألف الثـالث قبل المسيـح، أيام عظمة صور وقوتها.

ولكن كان في رأس شمرا اله للبحر هو يَمّ، وكان دائماً في صراع مع بعـل. وأخيراً تنتصر الأرض، كـأنما هي سيـطرة القوافليـين البريـين على جمـاعـة البحـر. أو كـأنها أول احتكاك للرجال الحمر ـ الحميريين ـ بالبحر وتغلّبهم عليه؟!

قرطاجة: البر والحيوان والحصون

■ لماذا ابتنى القرطاجيون معتصماً - قلعة - حصاراً - بلوكهوس - دشمة محصنة إلى هذا الحد، وتكوّموا وتجمّعوا في مكان ضيّق، ولم يخرجوا أبداً من أسوارهم؟ فماذا كانـوا يهابون؟ وأين كانت منهم آنذاك البلاد، البر الأفريقي.

البـرّ كان هادئاً، بدون تاريخ. العتيقة وبيزرته وكمبة/ قضاعة كنّ قد استثمـرنه. في البرّ البعيد مناجم معادن، ومقالع رخام، وغابات وقطعـان. وجميعها استثمـرت بدون أيّ عداء.

وطنيّو افريقيا الشمالية كانـوا أفارقـة منذ زمن طـويل، في أغلبهم. وإننـا لنجد في الشمال فرنانة كما في الجنوب قفصة وفي كل مكـان وطنيين نكـاد نحسبهم خارجـين أحياء من متحف الإثنيّات البدائية، مثل الپاليولـوتيك والنيـولوتيـك، متخلّفين بـل متحجّرين. حتى اليوم لا يزالون يجهلون استعمال دولاب الفاخوري، بـل يصنعون أدواتهم أغشم مما يصنع الطفل جبلته عـلى الشاطىء. يجهلون مـا المعدن، ويقصبـون الحجر بـدون فن أو علم. ليس عندهم قطيع ولا كلب. أطفال كثيرون منهم لم يروا عملة معدنية حتى اليـوم ويحسبونها طعاماً يؤكل.

وفي هذه البلاد، حتى اليوم، يوجد بناة لأكواخهم ومقابرهم بحجارة من أبنية أثرية أو معاصرة لا تزال عليها نقوش وكتابات تدل على أصولها وأنسابها.

افـريقيـا هي بـلاد رجـال العصـور الأوائـل منـذ المثقف الأرقى حتى رجـل المغارة الخارج من قرديّته، المتخلف، المبهول، والمتوقف عن النمو منذ ثلاثة آلاف سنة.

هؤلاء كانوا كثرة سكان البر. شعب غير منظّم، مشتّت يقتات الثمرات البرية، ومن صيد بدائي، ومن تربية الحيوان على الطبيعة. قطعان بشرية ورعاع هم أصلاً ومنذ زمان في حالة الإنقراض.

بدائيون لا أدوات عندهم. تروغلوديت فقراء يسكنون في مغر كما في مكناسي، يقدّدون اللحم في الشمس على الحجر، ولا يصنعون أيّ شيء. حتى لَما يجدلون حبلة ولا يستعملون المنشار ولا يحيكون ولا ينسجون.

آخرون أكثر تطوراً يخزنون مؤونتهم في كوارات من الوحل متشابهات كتلك التي تنسجها بعض الحشرات لبيوضها. وفي أماكن أخرى، وحتى اليوم، أقوام لا تزال في مرحلة يسميّها علماء ما قبل التاريخ المرحلة الموستورية.

مثل هؤلاء المتخلفين كانوا سينظرون إلى حضارة المغر الدردونية Dordogne كأنها حضارة في قمة باهرة.

وكان في أفريقيا أيضاً أقوام ليست بحثالات تنقرض ولا بقايا حيوانات، وإنما تعيش في مكانها وزمانها ومناخها متوالفة جيداً مع بيئتها. هي أقوام تعاطت الصيد، وتسوق معها قطعانها، وتفلح بعض البساتين ذات المياه الطبيعية. ومنذ الرحّل الساحليين الذين يتبعون، بتبدّل الفصول، طريق السهل فالغابة فالسهل، وحتى الرعاة الذين يستغلون الصحراء، كل شيء كان متنقلاً. لا مدينة ولا قرية سوى ما كان حول مصرف فنيقي ينبت هنا وهناك وهنالك على الشاطىء. شعب مؤلّف من جميع طبقات الماضي، ومن زبد موجات الزمان، فقراء، همّهم الأوحد أن يدافعوا عن ذواتهم ضد الحيوانات المفترسة التى تعجّ الطبيعة بهم.

ففي الشمال الأسد والفهد والخنزير البري في الغابات الكثيفة. في سهوب الوسط قطعان من الأفيال ترعى منذ واحات الجنوب الطبيعية حتى الغابات الشمالية، تبعاً للفصول والعشوب. في رمال الجنوب قطعان الزرافات. وثمة الغزال والأيل. وفي المستنقعات والسبخات تماسيح مفترسة. ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب أنواع من الحيّاة منذ البوا حتى النجا.

لسنا نعدّ الحيوانات عن هوى. فالأفيال الأخيرة التي ظهرت في الامبراطورية القرطاجية قد أخذت تنقرض فعلاً بعد بداية العهد المسيحي. وكان الأسد في الموغود

Mogods. ويقدّر جيرار أنه كان حوالي ستين زوجاً. ولا يزال العرب يتكلمون حتى اليوم عن الأسد كما لو أنهم رأوه وسمعوه.

أما الفهد، فكانوا في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين في كل شتاء، يعرضون في تونس بعض الجثث المصادة حديثاً. بعض المهندسين الروس، من أسطول وراغنل، أرسلوا في العام 1928 إلى منطقة تامرة، شمالي سد جنان، فلم يطيقوا جيرة الفهود، وتركوا العمل وعادوا. الخنزير البرّي يكثر بدون عدّ في مناطق الموغود. النعامة لم تعد سارحة بكثرة في تونس، ولا تزال حيّة في الأغنية الشعبية. ولا تزال حفلات الصيد الوهمية تمارس ضد النعام فيها يلعب دور النعامة هَجّان على جمله.

العاج كان شؤماً على الفيل. الشيء العجيب هو أن الوطني الأفريقي يكاد ينسى الفيل. الفيل لا يزال محفوظاً في حفريات حجرية، ولكن الفولكلور لم يحفظ عنه شيئاً كثيراً. فيل أفريقيا أصغر من فيل آسيا ويكاد ينقرض بعد أن أبعدته الصحراء المتمددة على المرعى الاستوائي. فيل افريقيا كثُر ذكره في ناريخ قرطاجة. إنه دبابة القتال في معارك شمالي افريقيا. إنه الخيالة الثقيلة. ويُظن أن هذه الحيوانات الضخمة كان يدرّبها ويسوقها رجال آسيويون. ونظنّ أن القرطاجيين، قبل أن يستعملوها في القتال، قد استغلّوها في أعمال السلم، في المناجم والمقالع، وفي النقل والجرّ.

إنّ بلاداً ذات أفيال وأسود وفهود وخنازير، وحشرات سامة وأفاع، لم تكن بلاد خمر وخمير ولا مسكونة بكثافة. فقطعان الأفيال تستوجب مساحات شاسعة من المراعي. وحول مراعيها لا يقوم بستان ولا حقل قمح ولا كرمة. وحول أجمات تعجّ بالأسود لا يمكن لتربية القطعان أن تكون ربّيحة.

ليس لدينا أي إحصاءات تؤكّد عدد سكان قرطاجة منذ ثلاثة آلاف سنة. ومجرد الإشارة إلى أن المنطقة كانت مستودع وحوش مفترسة، وأنها ظلت تموّن قرطاجة ثم روما طوال خمسة عشر قرناً، لأجل حاجات الحروب، وللسيرك، ثم لتسلية هباشة الشعب الروماني، يجعلنا نقدّر أن سكان قرطاجة وما حولها كانوا موزعين وقلائل. ويمكننا القول إذن إن الفنيقيين نزلوا في بلاد متوحشة وإن كل شيء فيها كان ينبغي الابتداء به منذ الأول.

الاسوار

خراج قرطاجة مثلّث يشبه رأس الرمح موجهاً نحو الشرق. ولم يكن البرزخ متصلاً بالقارة إلا بشريط ضيّق عرضه حوالى الثلاثة كيلومترات. أما طمى المتجردة فقد بدّل تخطيط الساحل وأنشأ سبخة طويلة وشريطاً ساحلياً متبعّجاً.

منذ البرزخ تتصعد الأرض حتى رأس قرطاجة والمنطرة الرابضة فوق البحر حيث تقوم اليوم أجمل وأمثل قرية عربية يحلم بها إنسان: سيدي أبو سعيد والمنارة التي على قمتها. ولكي تشعر بالأمن والذاتية إبتنت قرطاجة أسواراً شاهقة وعريضة القاعدة كالأسوار التي في حضرموت وسبأ، ومثل الأسوار والقواعد التي في مصر، ومثل أسوار الغرادية Garadia في المعزاب M'zab. وما هي بأسوار مدينة فحسب بل سياج لأقفال البرزخ ولمنع تسرّب القطعان الداشرة، ولحماية البساتين، ومراقبة الروحات والمجيات، ولجباية الجمارك والضرائب، ولِوَأد نيّة التسلق والعدوان.

إنحناء حيطان السور خارجاً يمنع التعمشق الفردي أم طرح السلالم للتسلق. العزل إذن محكم حول البلدة والضاحية والخراج.

لا أحد آنذاك، في افريقيا، كان قادراً أن يحاصر المدينة وأن يهددها بالتسلق والهجوم. ولا جيش عدواً على القارة ولا قبيلة يملكون أدنى وسائل الحرب الآلية. ومع ذلك تصرّ قرطاجة على حماية ذاتها. السور، يتقدمه خندق، يقطع اللسان الرملي الذي يمكن أو يجوز أن يتقدم فوقه عدو مفترَض.

هذا العمل هو نموذج مصغّر لما سيصنعه «تشي هوانغ تي» بعد ست مئة سنة ضد التتار كيما يحمي الصين الناهضة.

وسوف ينمو داخل هذه الأسوار روح أمان واتحاد وسلام، كالذي نشأ في إمبراطورية بكين حتى أطلق عليه اسم روحية السور.

شقفة الأرض الأفريقية التي تطوّقت بهذا السور كانت مساحتها ثمانية عشر كيلومتراً مربعاً. ويخطىء من يحسب أن هذه المساحة جميعاً كانت مسكونة ومأهولة.

إننا نعرف بالضبط أين كانت قرطاجة، وأين كانت حدود المدينة في أعظم أيامها. كانت المدينة الجديدة هي بلدة برصة، (أي المشحوفة والجرداء)، أي ما كان أيام

الانتداب تلة مار لويس وتلة الكرمل وتلة الأوديون، وتلة بطارية البرج الجديد حتى عين الألف جرّة على الحافّة الصخرية.

المدينة الجديدة، غربي وشمالي المرفأ، وجهها نحو الشمس، محمية من ريح الجنوب، مواجهة لريح البحر في الصيف، تتصاعد درجات منذ أحواض الكُتْنة والقصب (Cothon) حتى تيجان المعابد والقلعة على المرتفعات. مسرح بشكل هلال ربعيّ.

وكما في سبأ/ حضرموت، بنيت المدينة الجديدة في الارتفاع. كل بناء طوابقُ متعدّدة. لا نعرف اليوم معدل الطوابق ولا أقصاها. ولكن فرجيل يخبرنا أنها كانت مدينة متكبرة ومتعالية، ونعرف أنهم في روما، فيما بعد، منعوا أن يشاد أبنية ذات طوابق متعددة مثل صور وقرطاجة.

ولما أمنت المدينة الجديدة على ذاتها من جهة البرزخ، بالسور الطويل، إتّقت المفاجأة من جهة البحر بابتناء مجموعة هائلة من التحصينات تعتمد، كعامود فقري، على سور تدعمه قلاع هرمية مبنية في الماء. لا نعرف ارتفاع هذه التحصينات التي لا تزال أساساتها الجبّارة الضخمة تُرى حتى اليوم على عدة أمتار من الشاطىء. هذا السور البحري كان يحيط قرطاجة ومرافئها بحزام لا يُخترق. وكانت أسوار ثانية تضاعف السور الطويل بقرب المدينة.

وكانت أسوار خارجية أخرى تحمي القنال المتصل بالبحيرة وتحمي مصايد السمك.

المؤلّفون يتكلمون عن سور مثلّث ولكن أساساته غير موجودة، إلا إذا كانت المدينة قد بنت تحصينات بين السور الطويل وسور المدينة، على البرزخ، أو حول المشرف الأعلى. ولسنا نرى له موجباً لأن المدينة لم يكن لها قط ضاحية مأهولة.

عبثاً حاول الآثاريون أن يجدوا أي إشارة إلى وجود قرية فنيقية ما بين السور الأساسي والسور الطويل. فالحواويز الموجودة في هذه المنطقة كانت لسقاية البساتين والجنائن ولخدمة فيلّات الترفيه. «المغارة Magara» في ضاحية قرطاجة لربما كانت المنطقة المخصصة لعائلات المرتزقة المقيمين تحت الخيم، أو بيوت القصب والعرازيل. ولم تكن منطقة ذات بناء.

لا ريب أن سور البحر الذي كان يحمي المدينة قد أُطيل بدون اختتام ـ وهو بمنظور اليوم شيء هائل غير معقول ـ أو ضُوعف حول المطلّ، وربما حول الشاطىء. ومن حقنا

أن نفكـر كالتـالي: لو أن الشـاطىء الفارغ الآن من أي أثـر بناء كـان مفتـوحـاً للمـرور وبدون سور، فلسنا نفهم لماذا راح القـائد الـروماني، مـانشيوس معاون سيبيون، وتسلق رأس قرطاجة. . . في المعركة؟.

إننا نتكلّم عن عشرين كيلومتراً من التحصينـات الضخمة الخـارجية، خمسـة عشر منها مبنية في الماء، ضمنها أسوار تحيط بالقلعة.

أما المرافىء فكانت محاطة بأسوار عالية، ويفصل بين الواحد والآخر مخانق محصنة.

المنـطرة التي كانت عليهـا المنـارة تشرف عـلى المـدينـة جميعـاً وعـلى الأفق البحـري بكامله. من رأس القلعة كـان الراصـد يشاهـد البرزخ وأطـراف البحيرة الـرملية وتـلال تونس، والآفاق جميعاً التي يمكن أن يأتي منها خطر برّي.

بالرغم منا نفكر بمدن الصحراء اليوم، مثل معزاب M'zab في أفريقيـا، وسكوبـوا Schoubua وأحيائها العالية المتلازّة، وشوارعهـا الضيقة، المتعـرجة، ومجمـوعة أسـوارها وقلاعها والأبراج المشرفة على أبعد الآفاق.

فنتساءل كم كان سكان قرطاجة؟.

ليس من السهـل أن نقدرهم، ولا بـالتقريب. إلّا أننـا نشير إلى أن المسـاحـة التي كانت المدينة تغطيهـا فعلاً ليست هي التي كـان يطوّقهـا السور. ثم ينبغي أن نـطرح منها المساحة المخصصة للمستودعات والمشاغل، والمرافىء النـاشفة والأحـواض، والخدمـات. فالمساحة المسكونـة إذن ضئيلة، حتى لو سكن النـاس فوق المستـودعات والمشـاغل. وإذا فكرنا بالبناء طبقات فإن الارتفاع المسموح ضيق المجال نظراً لأدوات البناء ومواده. ولسنا نهمـل حدود الـتراصّ السكني عند المشـارقة ولا ميـل الناس إلى سهـولة الإقـامـة وتـرف المعيشة.

فإذا محّصنا هذه المعطيات تبدّى لنا كم أن عدد السكان كان قليلاً. ولا نعود نـأخذ بأقوال المتحمسين ونقارب المليـون نسمة. فعـلى مساحـة مماثلة، وفي عصرنـا الراهن، لا تتجاوز مدينة شرقية مكتظة أكثر من مئة ألف نسمة.

قرطاجة
من نحن؟ وماذا نحن؟

الشمس الفنيقية اسمها مولوخ
أي الملك والمولى والسيّد.
والشمس المؤلّهة هي روح أفريقيا ووجدانها.
وهانيبعل كان يسمي الشمس روح قرطاجة...

عِشْ في بلاد تفهمْها وتحببْهـا أو فارحـلْ عنها! غُصْ إلى كنـه الأشياء فيهـا، إلى الجوهـر الأبقى، فما من حياة بدون جوهر خفيّ أم بدون أسرار وجود وخلود وفناء. وخير ما تفهمْ الأشيـاء والنـاس إذا أنت أحببتهم وابتعـدت عن القشـور والسـواقط ورنـوت إلى ثـوابت الحق. وإذّاك تدرك التاريخ شأناً مجتمعياً بشرياً وتدغـر في قضايـاه المعاصرة والسـالفة وفي مصاعبه ومشاكله ومتاعبـه. فتعايش المـزارع والفلاح والبـدوي المترحّـل والراعي والمـدني والصانع والكادح والتاجر والملاّح ويتيسر لك إذاك أن تحوش ورشة الزمان ومسيرة إنسـان ومجتمع وأمة وتشريع. وإذا انصببت على شؤون قرطاجـة تَسَهّل لـك وتيسّر أن تشارك آل ماغون همومهم وآل برقة وحكام قرطاجـة ومجلس السفاط القضـاة الأعلين ومجلس الحكماء وتيارات الحضارة والنشوء والارتقاء طوال ألف عام.

* * *

قرطاجة الطبيعية تجبهك بثلاث: البرّ الداخلي وشمسها والبحر.

الشمس تكـاد تكون روح الخليقـة بقدر مـا أنها أقرب إلى هـوية مستقلة وإلى ذاتٍ وصِفاتها. إنها أكثر من ضوء وحرارة ونور. إنها اشتعـال ذاتي حيّ ووجود دائم ومستقـل، وكأن لها حيـاة خاصـة وعقلاً وإرادة، وكـأنها تخلق وتحيي وتميت بناءً عـلى برنـامج مقـرّر ومكتـوب. ولذلـك طالمـا كنّهها الإنسـان والشعوب بـالله لمـا لهـا من قـدرة ومن مـواهب وويلات ومن قوّة قاهرة وكلانية. الشمس هي المطلق أو الأقرب إليه. وكأنها إيل.

صيف أفريقيا حريق مُستعِر منذ أيار حتى تشرين الأول. في الظل = حيث ثمّة ظل = تنخفض الحرارة من 40 درجة إلى 35 في أبرد الحالات.

أما الريح المرافق للشّوب والقيظ فيلهب ويعصف فيها الأرض أتون والبحر عَماء والحجر يغلي ويفتّ والدلغان يتشقّق كيوم القارعة والزرع يتفتّق، والزوابع الدائمة غبار من ذهب يعمّ الأرض والفلك.

إنها رقصة النار واللهب فوق أرض مشوية بارَ عشبها في خلقين مستعر وحرائق متواصلة. ومع هذه الحرارة ينضج كل شيء قوياً قاسياً ويتجمّع مطر الشتاء طوفاناً يتحفّز أو رذاذاً رحوماً. وأما بعد الشتاء وقبل القيظ فالرمال تزهر والأرض تَزْيَنُّ فالثمر والبقول والمراعي بغير حساب وكأنها بركات تهطل جملةً لتموّن الإنسان لعامٍ مقبل.

الفنيقيون لقّبوا الشمس بـ مولوخ أي الملك والمولى والسيد. فالشمس المؤلّهة هي روح أفريقيا ووجدانها. هانيبعل كان يسميها روح قرطاجة لأن المدينة العظمى مدينة للشمس سواء ببحرها الجميل وأسماكها البركة أم مغيبها الميمون فوق البَحيرة (هكذا كانوا يلفظون الكلمة) أم بسياجات الورود والمزروعات السخية والنخيل والرمان والخمر والزيت والروائح والطيب. قرطاجة ومحيطها نسخة تامة عن صيدون وبساتينها وعن صور والقاسمية وجنة عدن حولها، وعن طرابلس الفيحاء وما حولها من مساكن الجن، وعن دمشق وغوطة القيامة.

ولكن شمس افريقيا هي، كما ليست في المشرق الكنعاني، هي أرواح وجنّ وسباع البراري والأفاعي والرياح الحارّة والجراد والويلات والقحط وما يقذفه القحط من غزوات البدو صوب الحضر.

وشمس قرطاجة وافريقيا هي أنهار تنضب في مجراها وكأنها بغير مصبّ لأن الحرارة تبخّرها فيسترجعها الجو غلاباً.

البرّ. وماذا عن قرطاجة بعد؟ هي أيضاً بلاد البحيرات السطحية كأنها ممدودة مدّاً بغير عمق، وبحيرات غير ذات ماء بل ملح صافٍ كالمرايا المتلألئة ذات السراب المتوهّج يتلاعب فوقها أسراب من الجان والأرواح الجذلى والتائهات في فراغ العطش.

وقرطاجة بعدُ بلاد الغابات من صنوبر وشربين ووزّال وزيزفون ولزّاب وأرز، وأما الباقي من الأرض والجبال فهيشةٌ بكرٌ من العلّيق والشوك والشيح وملاعب الريح.

وقرطاجة، بكر أفريقيا، تتمدد في بلاد بغير حدود ولا نهايات ولا أفق وفي بوادٍ جردٍ أقاصيها صخور جرداء طامحة نحو المستحيل الأعلى، مشقّقةً بشاقوف بوزن السماء وتنحدر أشياراً شاقولية يزلق عنها الذباب، وبمهاوير سحيقة لا يُسمع فيها وقع الحجر المتدحرج، ويتخللها وديان ناضبة منذ الأزل أمسَكَ الخالق دونها ينابيع الرحمة والحياة.

فإنسان هذه البيئة أحد اثنين: مؤمن إزاء العدم والخير هنا وثمّة أو كافر إزاء حرمان مطلق في الصحارى والفلوات. وأصعب ما يعانيه ابن آدم في هذا الجو أنه يعايش الأمل واليأس حول غلّة آتية أم جفاف وقحط لهذا العام.

المشكلة في أفريقيا القرطاجية هي الماء أولاً والماء آخراً. ومن يحالف الشمس والماء فيرضيان عنه فهو الوليّ المُجتبى وهو حبيب الأرض والسماء وهو خليل مولوخ وإيل وعشتار. ولذلك أُضيف إلى ألقاب عشتار المغربية لقب المُرضعة. فهي هناك ذات نعمة وتبسّم وهي شفيعة لدى مولوخ وإيل وهي سائقة الغيم والمطر.. وهي شاهدة للناس على رحمة إيل.

* * *

وأما البحر = المتوسط الصوري القرطاجي = بحرنا = فهو أزرق مخضرّ، وهو مخمليّ داكن، وهو الأجمل، وكأنه حيّ بذاته وبيئة تامّة مزروعة وذات غلال وثمرات. البحر المتوسط أشبه بأمّة تتمّ طوراً وتتفكك بحسب الإنسان ورضى الآلهة.

البحر المتوسط بحرنا ليس بحاجز ولا بمانع ولا بسدّ معيق، بل مضياف ودود. الملاحة فيه سالمة والمسافرون عليه يقفلون المشوار ويرجعون موثّقين خيرات وبركة. طرقه مستقيمة وسريعة وعروةٌ بين الشواطىء التوائم حيث البشاشة والودّ والتجارة وسهولة المعشر والتعقّل.

المتوسط ماء مستطيل يماشي خطوط العرض، فكان مناخه متشابهاً جداً ما بين مشرق ومغرب وشمال أروبي وجنوب عربي.

وهو أقل البحور مدّاً وجزراً لأن الأراضي التي يتوسطها تحميه من العواصف الهوج ومن التيارات الفاغرة والبالوعة المفترسة وشرّاقات الماء، ومن رياح البُعد الواحد ومن الضباب وجبال الجليد وأفخاخ العواصف الفارغة.

أوحش ما في المتوسط كلب البحر الخجول وسمك القرش الأشدّ شراسة، ولكن شراسته تنحصر في الشباك والسمك.

* * *

المتوسط موطن السفينة الصغيرة وأمّ الملاحين. وقد كان مدرسة طويلة البال للخبرات والمغامرات التي حملت بحّارة الأطلسي غرباً وجنوباً ونحو دورات الكرة الأرضية.

وإذا ما غضب المتوسط يوماً وهبّت رياح سريعة ومفاجئة وأمواج عميقة وغاضبة فإنّ العاصفة سريعة الزوال والغضب ليلة وضحاها.

في المتوسط وحوله حياة ونشاط وأمة تعيش على شواطئه وتمخر فيه كأنها أمّة برمائية تعشق الشمس والرمال هزيلة قوية مثل العريشة السورية الدهرية.

ولكن شواطىء المتوسط فقيرة بالخشب والغابات المرتجاة لأحواض سفن كبيرة أم طويلة طيّعة، وفقيرة بأشجار الصواري العالية والقوية والمجاديف العنيدة واللجوجة. ولولا قلّة من الغابات مثل القمّوعة في عكار/لبنان الشمالي، أم في غابات الأرز في بعض لبنان وفي الشمال السوري وفي المغرب الأقصى لما قامت ملاحة حيّة. لذلك غلب المجداف والجهد البشري في نهج الملاحة المتوسطية، لأنه لا رياح موسمية ولا صوارٍ شوامخ. وهكذا كان المجداف في يد الملاح الفنيقي كالصولجان في يد نبتون. المجداف هو عصب الحياة فوق مياه المتوسط، أما الشراع فمتأخر جداً ويكاد أن يكون معدوماً. ولسوف يرافق المجداف حياة البيئة المتوسطية في تجارة وفي قتال ومناورة ونقل وسباق. صور وصيدون وجبيل وأرواد، وملاحة النيل، وقرطاجة ومن سيمدّنون من يونان ومن سيقلّدهم من الرومان، قاموا بفضل المجداف.

أمّة المتوسط، الدنيا المتكاملة حول هذا البحر، هي مجموعة من آسيا العتيقة أي سورية ثم آسية الصغرى، ومن أفريقيا في جنوبه ومن أروبة شمالاً.

آسيا العتيقة، سورية، في مشرقه، هي أرض الحكمة والأسرار، والجبال الشامخة سور دون الصحراء الزاحفة أبداً. المتشحة بالفخامة والأبّهة المتطيّبة بالعبير والعطور. وهي الممتدة عبر الجبال الحاجزة نحو واحات الداخل والعراق ذي النهرين حيث العقل والفلسفة والأسرار والسحر.

إفريقية واسعة محيّرة مرحرحة كثيرة اللونيات، خصبة بالمفاجآت، وحشية

ومضيافة، محرقه وثرية. مصر، فيها، واحة منظمة منسّقة، وحولها شعوب تتحرك بغير انقطاع ولا تعرف إلى أين ترحل وتنيخ.

أروبة = على اسم الأميرة عروبة أخت قدموس = سلطانة عاشقة للآلهة، مزمومة الأرض، تنقرها الحفر الكبرى، تشقّقها الخلجان وأشباه الجزر، وتطوّقها الجزر ويتدفق منها في كل صوب أنهار تصبّ في البحور المحيطة، ومع مجاريها تقوم طرقات ومدن ومرافىء. والأنهار كثيرة تشعّ من الداخل نحو الأطراف البحرية، فمنها الصخّاب ومنها المتجمد ومنها كسولٌ فاتر رمادي وآخر خمريّ كُميت.

النيل يأتي المتوسط من خط الاستواء، والرون ينبع في جبال الجليد. هنا زنوج يمتطون فيلاً أو يسوقون نعامة، وثمة هامات طوال شقرٌ كثّة الشعر زرق العيون. حول المتوسط حضارات وهمج وبداوة، وجليد وخط الاستواء، وسوريه وقرطاجة ومصر ويونان، وممرّ نحو البحر الأسود وممرّ نحو المحيط، وشبه ممر نحو البحر الأحمر والشرق الأقصى. المتوسط قدرٌ مكتوب وتاريخ ينتسج على مهل. عند مضيق صقلية تتماس أفريقية وأروبة وينقسم البحر أو يكاد إلى شرق وغرب. وسوف يكون لهذا المضيق طوال التاريخ شأن هام ومصيري في وحدة أم انقسام أم اجتياح وعبور، كما جبل طارق والسويس والدردنيل وأمثالها في العالمين القديم والحديث. ويبقى المتوسط جميعاً برغم ذلك أقرب إلى مُتَّحد ليس كلّه من أوروبة ولكن فيه من أفريقيا لمحة وفوارق، غير أنّ أمّه وأباه من المشرق.

شعب الجزر والمرافىء والسفن والأشرعة والفلوكة والشختاتير، أمة المجداف، فأولئك شعب مشرقي. الشواطئيون لم ينتشروا أو يتناموا بين عشية وضحاها فملأوا المرافىء وبلادها الخلفية، بل تطاول الزمان وكثرت التجارب والنكسات والحروب والغزوات وتيارات التمدين والعمران والتحضير حتى تشابكت وتصاهرت أقوام وأمم وتصاهرت قبائل فنشأ متّحَدٌ متعارف. خمسة عشر أسطولاً تنافست وتخاصمت وتغارقت وتحالفت إلى أن توالفت في مفاهيم متوسطية مشرقية الأعراف والحنين والقاموس المهني.

قرطاجة:
وجدان المغرب وشراكة حياة

التاريخ معلومات مستوثقة ومنهج بحث أيضاً واكتناه حقيقة زمان ومكـان وإنسان. والتاريخ أن تدرك وجدان الدهر وما هو مكتوب في السرائر وما مهمة شعب وأرض وأمـة في ورشة الأقدار والأحداث. إدراكك لسرّ التاريخ معناه أنك تحيا في قلب الحدث وأنـك تسبر الظاهر والباطن في كبيرة وصغيرة وأن تتجاوز قشرةً أو حرفاً جامداً أو ألفـاظيةً تـافهة ونـاضبة. التيبّس من شيم المـومياء وأمـا نضـارة العقـل والإدراك وخصب القلم واكتنـاه الوجدان الكامن في الأشياء فمن شيم الحرية التي تعانق الجوهر.

وليس يُكتب تـاريخ بـلادٍ إذا لم تقـترن الكتـابـة بـالحب. التـاريـخ أن تنقب في بـاطن الأرض والكتب والمستندات، وفي عقلك المحقق وفي وجـدانـك المقـارن وفي تلك الموهبة العليا التي هي حدس الحقيقة والبرهان.

لقد قيل إنـه لا جديـد تحت الشمس. بل إن المستجـد الأبدي هـو العقل المستنبط والمقارن والمكتشف للنواميس التي سيّرت الأمم والدول والمـدنيات والتي ألهمت الـدوافع العليا التي لأجلها يسخّر كل حدث وكل اجتهاد.

فإذا شئت أن تكتب عن قرطاجة فدونك افريقيا المعاصرة وواقعها ودونك تونس أمّ قرطاجة وبيئتها الأولى وبنتها معاً، ودونك البلاد الـداخلية والسهـوب والصحراء والجبـال والحمادات والديرات والقوافل والطرق والواحات والمفازات!! ودونك ذلك النسيج الأزلي الـذي تحكيه الشمس والقمـر والريـح والرمـال والعواصف والبحـر والصحـراء والـريف

والساحل، والداخل، وما يفعله قافلةٌ وإنسان وجمل والمزارع والبحّار والسفينة وحيوانات البحر والجو والبر.

ولا ينسينّ أحد الزمان الأفريقي المختلف عن أزمنة الناس والأرضين، ولا الوقت المنسرب بدون حساب ولا تاريخ ولا أثر، ولا التاريخ الذي يتكرّر مثل صوت المطحنة حتى يضيع إنسانه والمكان، وتبتلع لجّة العدم قروناً وعقوداً وعهوداً كأنها لم تكن ولا صارت. ثم بلمحة واحدة يعود كل شيء يتجدّد وينبعث ويتابع المسيرة كأنه كان مُنيخاً ومقيِّلاً تحت النخيل الدهري. فتعود الكتابة إيّاها وإن اختلفت لهجةً أم لغةً.

كل شيء في افريقيا رائل وموقّت وفانٍ ما عدا الشمس والبحر وقرطاجة. كل شي يعيدك بعد غيبة وفناء إلى سرّ حاجة قرطاجة الكامن في الأرض والريح وفي عزيف جنّ الصحراء كما في تدارك الأمواج على شواطىء الصخور الدهرية.

التاريخ كله هو قرطاجة أصيلةً أم متكررة. والحاضر كله محاولة لاستعادة قرطاجة بعضها أم جميعاً. الصدق فأنْ نقترب من المثال القرطاجي، والقيمة فبقدر ما أنت تدنو أم تبتعد عن الأيقونة القرطاجية الخالدة. قرطاجة كانت سدرة المنتهى والمطلق الأعلى والمثال المرتجى. ولا تزال.

* * *

شراكة حياة

إمبراطورية الفنيقيين البحرية لا شبيه لها. إنها بحرية صرف وإمبراطورية بدون إمبراطور ولا عاصمة ولا جيش.

وإمبراطورية قرطاجة لا تشبه الإمبراطورية الفنيقية. فهي بحرية وقارّية معاً. ولكن قوّتها البحرية لم تقم أبداً على النظرية الصورية أو الصيدونية. وهيكليتها القارية لا تشبه بأيّ حال إمبراطورية برّية معروفة. ولو عاشت قرطاجة أكثر لكانت سيطرت على القارة الأفريقية جميعاً ولكانت إمبراطوريتها البحرية عمّت شواطىء الأطلسي. ولنذكر دوماً أنه فيما كانت قرطاجة تنشر نفوذها على ما بين الجزر البريطانية والنيجر ومن سيرته حتى الكونغو، فإنها ظلت تحترم استقلال المدن الفنيقية في افريقيا حتى تلك التي كانت على مرمى حجر من أسوارها. لماذا؟.

لأن الإمبراطورية لم تكن مؤلّفه من أراضٍ ولا محصورة في حدود. فهي لا تصوّر على الخريطة كما تصور الدول المعاصرة بحدود وألوان مميّزة. أبسط طريقة لتخيّل هيكلية هذه الإمبراطورية هو تشبيهها بمؤسسة مسكونية مالية ذات محطّات لا تُحصى، ذات شراكة وأسهم في جميع الأعمال والمشاريع عبر العالم. وهي مؤسسة تتوالف بدون مضايقة ولا حرج مع مؤسسات أخرى مشابهة قريبة المكان منها متلاصقة، توائم في الاهتمام والنشاط، ولكن الزبائن ومادة العمل ونوعه مختلفون عمّا لدى الجيران. وكما يتواجه اليوم، في مدينة واحدة، مصارف من جميع جنسيات الأرض، بدون تقاتل أو عراك، هكذا تجاورت وتعايشت قرطاجة والعتيقة وحضرموت وليبتس. وكان لكلٍّ إختصاص، والعمل منفرداً أو بالمشاركة أو بتغاضٍ وتجاهل. العصبية لا تشنّج التجارة والأعمال والمال.

ولقد تنقلب هذه النعمة لعنة في ساعات المصير، ولقد يتحوّل الإنفتاح بدون حدود إلى مذلّة: ذلك أنه لمّا خاضت قرطاجة حرب وجود وفناء ضد رومة، كانت العتيقة تتابع أعمالها بدون أي اهتمام، وبدون أيّ إدراك راقٍ أن خسارة قرطاجة لصراعها الروماني سيكون ضربة قاضيةً على جميع الفنيقيين في افريقيا، وفي العالم.

سؤال آخر نطرحه: هل استشارت قرطاجة، أو كانت تستشير توائمها الكنعانية في قرار حرب أو سلم؟؟ الأرجح لا.

تابعت العتيقة اهتمامها التجاري بدون اهتمام بالحرب، بل ربما فتحت أبوابها ومرفأها للرومان. أليست تلك عادة فنيقية دائمة؟ أليست عرفاً لدى صيدون وصور؟ ألم تساند صيدون الإسكندر ضد صور؟؟.

هذا القول ثابت ومؤكّد. ولكننا نحن لم نحصل على برهان، سوى ما يقوله مؤرّخ معادٍ.

* * *

راحت قرطاجة تكتشف البحر وتسكتشف الجزر والشواطىء بحثاً عن منافذ تجارية وعن زبائن ومقالع ومناجم، وعن أي نوع من الأعمال.

بعد مئتي سنة من تأسيسها افتتحت قرطاجة مصارف في الباليار، في أجمل جزر الأرخبيل المدعوة إيفيسا. وبعد مئة وخمسين عاماً احتكّت بكورسكا، ونزلت في سردينيا وبدأت تستقر فيها بدافع من مالكوس ـ مالك ـ الذي كان من أكابر قرطاجة.

بعد مالك تولّى حنّون الكبير، فهيمنت المدينة على المتوسط الغربي جميعاً، وتاجرت مع الجزر البريطانية عبر البحر وترشيش، كما عَبْر غاليا - فرنسة - بالقوافل البريةْ، منذ مرسيليا حتى كالى، وعبر وديان الرّون والسون والمارن والسين (كانت عليه قرية تدعى بار إيزيس = معبد إيزيس = أصبحت فيما بعد باريس) (وكان بار إيزيس إسماً لقرية على ضفاف النيل). ومن المرجح أن مدينة أكيزيا - في وادي السون كانت إحدى المحطات الأساسية على مسلك القوافل.

قرطاجة وجدان المغرب

واعتمدت قرطاجة أيضاً على نظام رحلات قوافلية بريّة، عبر جرمانيا. ويبدو أنها ورثت هذا الخط من فنيقيي صور. وكانت هذه الخطوط الجرمانية نلتقي جنوباً عند مصب نهر البو، في المكان الحالي لمدينة البندقية. وكان العنبر المتجمّع على بحر البلطيق يصل عبر هذه الخطوط إلى المتوسط.

إبنا ماغون، عزروبعل وهملقار أسّسا كاجلياري وسوسلي في سردينيا. حنّون حفيد ماغون أسّس جيجلّي وسلداوة (Bougie)، ولول (Cherchell)وتنجي (طنجة). واستكشف حنّون أيضاً شواطىء الأطلسي جنوباً حتى دلتا النيجر وأبعد.

يبدو أن قرطاجة خلفت صور في استثمار معادن الكورنواي (بريطانيا) وفي كسّيرتاريد (Sorlingues) وفي استثمار معادن الأندلس حيث استخرجت الفضة المصفّاة عن وجه الأرض. غير أنّ المعدن الذي كان عماد اقتصاد قرطاجة، أكثر من الفضة، هو القصدير. فقد كانت شعوب العالم القديم آنذاك تستهلك مقادير كثيرة من البرونز ولكن لم يكن لدى أحد منهم قصدير. فكان القرطاجيون يأتون به مصبوباً بشكل سمكة السومون فيتنافس عليه أسياد الأسواق في المشرق.

عندما فقدت قرطاجة صقليه، أرادت أن تتشبّث بإيبيريا. فالساحل الإيبيري كان مزروعاً بالمصانع والمصارف منذ زمن قديم حينما استغلّ الحميريون جبال شبه الجزيرة. ولكن الداخل الإيبيري كان مستعصياً بحماية سكان الأسترامادور والأندلس وقشتالة الجديدة ومورسيا وفالنسيا. فكان التشبّث بمنطقة قوية يستوجب عمليات عسكرية دامت عدة سنوات.

صهر هملقار، عزروبعل، تقدم نحو نهر الإبر وبنى في رأس بالوس قلعة قرطجنّة. فلما اغتيل فيها عزروبعل، خلفه هانيبعل في قيادة الجيوش. وبدأت ملحمة هذا القائد القرطاجي الشاب.

ولكن سيطرة قرطاجة على إيبيريا لم تدم طويلاً، لأن سيبيون الروماني، في هجومه على قرطجنّة طارد القرطاجيين في إيبيريا حتى قادش.

عدا عن المناجم الإسبانية والمستعمرات الاستوائية تألّفت إمبراطورية قرطاجة أيضاً من نقاط ارتكاز، أي مدن بحرية متباعدة ومتواصلة ما بينها. فليس للإمبراطورية رقعة متلاحمة على الخريطة. ونحن، على كل حال، لا نعرف أسماء جميع المحطات والمصارف القرطاجية على المتوسط، ولا جميع قواعدها الأطلسية. فأكثرية المواقع التي ارتادها بحّارة قرطاجة قد انتقلت ميراثاً إلى بحريات لاحقة، ولم تصمد آثار الحضارة الفنيقية فيها. ولكننا نقدّر أن إقامة وسيطرة القرطاجيين في الجزر البريطانية كانت أكثر بكثير مما هو متداول اليوم في أوساط العلم.

وثمّة من يدّعي ـ الكولونيل وادّل «Waddell» ـ أن أصل البريطانيين هو فنيقي. وإذا كان العلماء لا يوافقون الكولونيل على جميع آرائه فليسوا يستبعدونها جميعاً أو يناقضونها في الجوهر وفي احتمال صحّتها.

وكذلك لمّا يبتّ العلم في الأخبار والفرضيات عن ترشيش، وجزر الكناري، والآمور، والأنتيل، والمكسيك. وما هي بأوهام مطلقة. ولكن العلم مقصر أو ينتظر براهين أكثر.

العلم يعرف أن ثمّة تقليداً بحرياً حيّاً قويّاً ومتأصّلاً في البرتغال والأندلس يقول بهذا القول. ثم عاد بنو ترشيش، سلالة البحر المؤتمنون على الأسرار = ائتماناً مبرهَناً أم بالحسّ والحدس البحري القرطاجي = فوصلوا ما كان انقطع من الملحمة القرطاجية القديمة حول رحلات البحرية القرطاجية غرباً، حتى البرازيل، ونحو مالقا شرقاً وماكاو وسيبانجو.

يوم عمل في قرطاجة

لأننا قررنا أن نلج موضوع قرطاجة الحية، وأن نقوم بتحقيق طويل عبر التاريخ، فسوف نحاول أن نصور المدينة في طفولة هانيبعل.

صباح مشمس من أيام قرطاجة. نصل بالبحر إلى قرطاجة. ضباب الليل يرفرف فوق البحر، والموج يضرب الصخور عند أدنى اللسان الجبلي. الضحى الوردي ينير الظلال في رأس بون. والأرض غافية في نهاية الدغشة.

في أعلى رأس بون لا تزال الدخنة تصعد من النيران التي توقدها قرطاجة طوال الليل. يتنفس النهار فيما نحن ندخل بهدوء في الخليج بجانب الجبل، ونمخر المياه الخضراء الراكدة والفاترة. وفي أقصى الجنوب، كما هرم ذو رأسين، يشرف جبل المياه الحارّة على الساحل والمستنقعات والطرق المغبّرة التي تسلكها القطعان بين البساتين.

السور البحري الطويل يطوّق الجبل ـ القرن ـ والتلال الحمراء التي تنام قرطاجة خلفها كما في مخبأ. موج البحر الخارجي يتوّج السور بزبد عجّاج.

استفاقت قوارب الصيد وأبحرت فُرادى وثُنى ساحبةً شباكها نحو عرض البحر. قوارب مستديرة آبتْ متأخرة إلى المرفأ وألقت مراسيها خارج الممرّ تنتظر انفتاح الخنقة التي تمنعها في الليل جنازير محروسة.

إلى الخلف وتحت الصخور السمراء في تلة المعابد، مرسى العين، ونبعة الألف جرّة وقبّتها الداكنة التي يحرسها تمثالان نسائيّان جبّاران. هناك تتملّى القوارب من مياه الشفة.

وفجأة مع ظهور الشمس تظهر خلف الدريئة التي تتجاوز سور البحر المدينةُ الفنيقية ذات الواجهات النقية. المدينة واقفة عالية مع جميع مشاهدها الحجرية والقرميدية، مواجهات للشمس الشارقة، مبهورة، عند استيقاظها، بأول أشعة النهار. ولأن على سطوحها المتدرجة البيضاء تلوح وتهلّ وتلتعب شراشف منشورة للريح والشمس، تحسب أن قرطاجة قد تزيّت ببهجة العيد. منذ الشاطىء حتى التلال، ومنذ المرافىء حتى القلعة، تتصاعد المدينة كأنها جماهير يوم الحشر تعمشقت على مقاعد المدرج. قبب المعابد تشرف على المدينة، والأبراج الهرمية في القلعة تتوج السقوف.

وبرغم الوقت الباكر أخذت المرافىء تزدحم بالسفن وملاحوها في ذهاب وإياب، والأولاد يتراكضون حول السفن المتجهزة، وطواقم بعد طواقم تأتلي أعمالها بعد ليل الراحة. وتسقط جنازير المخنقة وتدخل السفن المحمّلة بالثمار والخضار والغلال المشحونة من باغردا.

سفينة محمّلة بالمعادن تأتي إلى المصطبة لتفرّغ حمولتها من الببغاوات. وعلى الشاطىء بحّارة فرحون بالعودة من بعيد يغتسلون ويأكلون البطيخ والعنب والفاكهة ويسلّمون على المعارف والأصحاب. أينما أدرت النظر فصيادون ينشرون شباكهم فيما جيرانهم يشبكون القصب سلالاً وأوراق النخيل قففاً.

إن هي إلاّ ساعة قصيرة حتى تحوّلت المدينة ورشة عمل وقفيراً يشتغل بجذل. أي إنتاج افريقي ليس هنا: حيوان أم نبات أم معدن؟ أيّ صيد بحري لا يصنّع؟

اللهجات فمن كل حدب وصوب. التنادي بكل لغة معروفة. الخمور فمن أعالي العراق وجزر البحر حتى أواسط افريقيا: خمور عنب، خمور تمر، خمور جوز هند، خمور قصب السكر. أي غناءٍ لا يرتفع، أي فولكلور لا يتمثّل في هذه المدينة النشيطة المجتهدة الشغيلة المنفتحة على تجارة الأرض؟؟ فما من قصة إلا تروى، وما من أسطورة إلا تحكى، وما من شعر إلا يُلقى.

كن أيّاً شئت من دائرة البحر المتوسط أو افريقيا!! من أيّ لون ولغة! فإذا كنت بحّاراً أو تاجراً فأنت في بيتك، عند أهلك. هويّتك وُشومُكَ واللون واللهجة والخمرة والتعاويذ. وفي الليل، عند بداية السهرة، عندما تؤوب الناس إلى بيوتها يتوجه هؤلاء الموشومون الغرباء إلى مطاعم شعبية معروفة، وإلى مراقص فيها مغنّون ومغنّيات من أطراف الأرض الأربعة.

لا نزال في أول النهار. المرفأ استفاق أولاً وأهل البحر، رجال الأعمال والمهنيّون والموظفون يبدأون يومهم بالصلاة، ثم يتناولون العوّامات والمشبّك عند بيّاعي الزاوية. وتفتح المخازن والمصانع والمتاجر والمشاغل أبوابها، ويدور القفير بدون تأخّر، بدون ضياع وقت، بدون تفريط.

من هنا يخرج العاج المشغول والغزل والنسيج والزجاج والصيغة، والتعاويذ والأحذية والمأكولات وجميع ما ترى اليوم - حتى اليوم - في أي مدينة من المشرق أو المغرب، في ذلك الحي الذي يسمّى «السوق» حول الكنائس والجوامع.

في قرطاجة، كما في مدننا العتيقة اليوم، حيّ لرجال الأعمال وللتجّار الكبار وللممونين بالجملة وللمضاربين والسماسرة والعملاء والوكلاء. إنهم عصب الاقتصاد العالمي ويديرونه بتؤدة وحكمة وتبصّر، وبحسابات يستنبطها عقلهم ومستشاروهم في شؤون البلدان والإنتاج والشحن، وفي شؤون القدرة الإلهية والهمجيّ المجاور والمنافس البعيد. إنهم عصب البنوك والمصارف وأسياد المشاريع والاستثمارات الممتدة من أعالي بحر الشمال حتى أواسط افريقيا في نيجيريا والكامرون والكونغو، إضافة إلى علائق متميزة مع المشرق الأصيل. ولربما كانت ثمة علائق سرية مع أرض تقع إلى الغرب البعيد من طرف افريقيا الوسطى. من يدري ما إذا كانوا وطئوا القارّة الأميركية أم لا . . .

على التلة المقدسة، يقوم مجلس الشيوخ المشرّع، ويقوم مجلس السفّاط التنفيذي «Suffetes». قرطاجة جمهورية تجارية يحكمها تجار، ودولة صناعة يديرها تقنيون. قرطاجة سليلة مئة جيل من تجار قوافليين بحارة صناعيين رجال مال وأعمال وزراعة وشركات مساهمة. مئة جيل لم ينفكّوا أسياد البحر والبرّ والمال والثقة والأمانة والمشورة والصفقات. إنهم أسياد الجرأة والإقدام والمغامرة والاستكشاف والاستثمار.

حكماء قرطاجة جاؤوا إليها وقد أثقلتهم الحياة والتاريخ والأجيال خبرة ودروساً وتجارب ومحناً. وإن معهم ذكريات من حضرموت إلى البحرين في الخليج فإلى الشاطىء السوري كله وصور فإلى قرطاجة. وليسوا يعدّون الامبراطوريات والدول والحضارات والمدنيات التي انهارت تحت أعينهم بسبب خطيئة أصلية خاصة لدى كل شعب وأمّة. منهم من امّحى اسمهم أصلاً في سجلات الخليقة، وإن منهم من بقي بعدهم وجود رمزي لا يزال يفعل أو لا يؤثر ولا يبدأ ولا يعيد.

ولأنّ حكماء قرطاجة يتذكرون ويتذاكرون فإنهم يعرفون أن ثمة نملاً شغيلاً ونملاً شريراً وأن الغرائز لا تتبدل.

حكماء التاريخ مهمومون.

همّهم أن صقلية قد سقطت في أيدي عدوّ شرير. وقد دفعتها قرطاجة ثمناً للسلم. لقد اشترت من الرومان حرباً أتوا يريدون شنّها. وقد فضّل الحكماء صلحاً رديئاً على حرب مدمّرة. والمال المدفوع للرومان قد بدأ يرجع لأن الرومان لا ينتجون شيئاً ويحتاجون كل شيء.

لقد حوّلت قرطاجة الشغيلة انكسارها العسكري نصراً اقتصادياً. واسترجعت بالحنكة غرامة دفعتها للروماني الهمجي. إلاّ أنّ العدوّ الغنيّ لا ينفكّ يدور كالذئب حول القطيع.

مجلس قرطاجة ينشىء أساطيل سلام واستكشاف وتجارة، فيما روما تحتلّ أراضي في كل جهة وتقصّر المسافة والمدى إلى قرطاجة. وإذا كانت قرطاجة تحصد المحبّة بين الشعوب لحاجتهم إليها ولحسن تعاملها، فإنّ الشعوب يكرهون الرومان ولا يحبّذون جيرتهم.

إذن، يقول التجّار، هل ستنتصر قرطاجة بفضل محبّة الشعوب، وستخسر روما بسبب بغض الشعوب لها؟ ولكن هل تتحمل روما الانكسار؟ يبدو أنّها لن تتحمّل وأنها كالأفعى المشوّبة في حجرها. قرطاجة قوية بفضل نظامها الاقتصادي وقوانين العمل ومناقب المواطنين وخلقية الدولة وأمانة العمال. وليس من ينكر أن قرطاجة لم تعرف أيّ مظاهر انحلال كالتي عرفتها ديمقراطية أثينا. فلا ربا ولا تضخم عملة، ولا كسل في المواطنين، ولا هجرة سكّان ولا تشتت ونقص في اليد العاملة، ولا هرب عبيد ولا ظلم عليهم أصلاً، ولا ركود أو كساد في الريف ولا هجرة منه، ولا أحكام وسجون بسبب الدَّيْن، ولا مجاعة، ولا حروب داخلية أهلية، ولا ثورات، ولا أوبئة.

حتى الرومان وأقلام العبودية المسخّرون لديهم فيما بعد من اليونان، لن يدّعوا شيئاً على قرطاجة مما عددنا، بل المدينة وريفها وبلادها وصحراؤها تنعم بالنظام والشبع والعمل والعدل. أليس غريباً ألاّ تنشب حرب أهليّة برغم الخلافات السياسية الجذرية،

وألاّ تنشب ثورة عبيد أم قِبَـل أي شعب خاضـع أو حليف أو شريك، منـذ المتوسط حتى النيجر وطوال ألف عام؟؟.

قرطاجة تصلّي ثلاث مرات: الضحى والظهر والغروب. وتصلّي بـدون مواكب ولا جماعة ولا مهرجانات ولا أضاح. بل الصلاة هي نجـوى وإيمان ذاتي فـاعل فـردي سرّي وصامت. القرطاجي يصلّي في بيته، في متجره، في دكانه، في سفينتـه، فوق جمله، فـوق جواده، بصمت، بتأمّـل، بتقوى. وأمـا المعبد فهو لأيل وللجماعة، قل لـوجهٍ من وجـوه إيل، لمظهر منـه، لصفة من صفـاته. والصـلاة فبدون فلسفـة ولا تعقيـد ولا لاهـوت، وبدون آلهة مبهمين غامضين، ولا امبراطور يُعبَد، ولا رموز جمالية ولا جدل فيثـاغوري. القرطاجي مشرقي كنعاني حضرميّ عربيّ. عقيـدته تُقَـوْنِن وتقود جميـع تصرّفاتـه. ويؤمن ذلك الإيمان الحيّ الذي ينتج أمثال المهدي والمرسلين. يصلّي كما يعرف. ولا يشرك بـإلهه شيئاً. ينزّهه عن هذا العالم ويساميه عن الرّغام، ويطمح إلى رحمته. يعاشر إلّهه ويصـادقه طوال العمر، وفي الآخرة. تتبدل العقائد والطقوس والآلهة والأنظمة، وأمّا الإيمـان فيبقى واحداً والمؤمنون. وتبقى قرطاجة وكنعان وصور وحضرموت. ذرّيّات بعضُهم من بعض. ويظلّ الأثم الكنعاني محجّة الحنين والولاء لحضارة أشبعت الناس وعدلت فيهم.

قرطاجة والبداوة والنظام.

عبقرية المثابرة

آفة الحضارة البداوة والترف.

طوال قرون لم يكن لأفريقيا تاريخ ولا لقرطاجة. ولكن قرطاجة ستلعب دورها الجديد الصبور كممدنة لأفريقيا. وليس الأمر برنامجاً هيناً وسهلاً في بلاد شاسعة واسعة مجهولة، قليلة السكان، بلاد سهوب ومراعٍ وغابات وأعشاب وهيشات وصحارى. أفريقيا قارة سكانها تائهون، غبرة أقوام بدون استقرار، قلقون، ينتمون إلى بقايا وحطام مدنيّات بدائية، بدون تنظيم، بدون قواد، بدون تقاليد، بدون فنون، ولا حاجات. صيادو الأفيال الرحّل الكبار وصيادو الأفخاخ الصغيرة للواوي والأرنب، كلهم بيئة شتات وحثالات من قبل التاريخ، وبدون زمان. الزمان في أفريقيا كما التاريخ لا يتعدّى موسم الصيد أو موسم الرعي.

قرطاجة لم تسْعَ إلى فتوحات أرضية، ولا إلى حدود طبيعية أو وهمية، ولكنها اعتمدت التسرب الممدِّن والاختراق، وأقامت علاقات سلمية مع العالم الأفريقي فاجتذبته شيئاً فشيئاً، رويداً، إلى صناعة التعدين وإلى التجارة. كانوا جماعة لا يملكون شيئاً فجعلت قرطاجة منهم مموِّنين. وحرّضتهم إلى صيد منتج، وإلى تربية مواشٍ ربّيحة، وإلى تدجين الحيوان البرّي، وإلى عمليات نقل. وسعت لاجتذابهم إلى الاستقرار والعمران وللإقامة بشكل مستديم. وسعت إلى تنظيمهم في نقابات تحت وصايتها. جهّزتهم بأدوات لم يعرفوها، ولقّنتهم بدايات ثقافة وتربية، وعيّشتهم تحت حمايتها وحمتهم من الشغب والفتنة والغزو، وأعانتهم على مقاومة المجاعة والجفاف:

قرطاجة اتّبعت خطة عامة بعيدة المدى، فأحاطت ذاتها بفلاحين ومزارعين وعمال

يدويين وبستانيين وزرّاعي خضرة. فأصبحوا رجال عمل وكدّ ومجاميع مسالمة شغيلة وحاذقة. وبسبب الفتن السياسية المكتوبة في أقدار صور، حدثت هجرة كوادر تقنية عجّلت لا ريب بقيام وإتمام المشاريع القرطاجية. الحميريون علّموا الزراعة للوطن الأفريقي، وأمّنوا له البذور والعدّة والماء والطعام، في ارتقاب الأثمار والجنى. وعلّموه تطعيم العنب والتين والثمار والزيتون ووسائل الري بحسب ما صنعوا في حضرموت وفي صور وفي مصر. وأمّنوا له السدّ والبئر والحاووز والقناة.

هذا العمل الدؤوب والصبور من قبل القرطاجي غطى شبه جزيرة بون بمساحات من البساتين. في الغرب زرعوا المساحة بين العتيقة وقرطاجة بالكرمة والزيتون، وتغلّبوا على العنّاب البرّي، وعلى الرمال. وفي أفريقيا الجبلية، على بعد قليل، حول مراعي تجّة Thugga وعلى مرتفعات الوسط، بقرب المناجم التي يستغلونها، ومقالع الرخام، وحول مشاغل المعدن، تركزت الحياة القرطاجية والحضارة على أساس العمل والسلم والنظام.

وعلى طول السهوب البحرية في الشرق، منذ رأس بون حتى سيرتا، اصطفّ الزيتون على مدّ النظر معربشاً التلال، نازلاً المنحدرات، حتى أبعد الأفق. وفي الجنوب، في الواحات التي تحرسها البحيرة الناشفة، وفي الشط المالح المشقق حيث لا ينقطع جنون السراب البراق، عشّبت قرطاجة البستان الطبيعي الخام، وقنّت للمياه وقسمتها وقاستها. وحسّنت الإنتاج وأصّلت الأنواع والأجناس، وأنتجت الثمار الشهية، ودجّنت الرمّان وأشجار آسيا. وبجانب الينابيع الطبيعية نفذ الحميري تقنية مثيرة: فقد سبر الأرض والأغوار، وعمّق مجرى الينابيع، واستنبط الآبار من الطبقات السفلى. وليست طريقة السبر القرطاجية عامودية كما يفعلون اليوم بواسطة الآلات الحديثة. ولكنه سبر أفقي، أي مغارة شبه منخفضة عن الخط الأفقي تدغر في الطبقة الأرضية في النقطة الأعلى مباشرة من المساحة المنوي ريها وسقيها. إنها طريقة تفجير المياه أو ترشيحها أو تفويرها من محابسها. ثمة تشابه تام بين البحوث المائية المنفذة في دائرة قرطاجة، في قلب تلال الفاخورة وبين الحفريات الأفقية في السهوب، وبين النفق Tunnel في توزور أو نفطا. هذه الأشغال توسّع الينبوع، تتلقف النزّ والرشح والفوّارات التي تشقّ الصخر الدلغاني وتفرج عن المياه المخزونة في الطبقات الأرتوازية. في منطقة شراحيل نرى أعجوبة الأعمال المائية: مغارة عبر الجبل احتُفرت من الجهتين معاً بالتأكيد، بدليل تراب الحفر، والتقى الحفران من هنا وهناك في وسط الجبل والمسافة تماماً، بدون أن ندري على أي أدوات اعتمد المهندسون القرطاجيون.

الفنيقيون البناة العباقرة المياهيّون الذين لا شبيه لهم، أمدّوا داخل البلاد بتحتيات اقتصادية وبعدة للعمل وبثقافة خالدة.

بعد واحات الشاطىء وواحات التريتونيد Tritonide، جاء دور واحات الجبل، ودور قفصة في الصحراء فأصبحن محور تجمّع بشري هائل، حيث يزدهر شغل الصوان. وانها لشهادة على حضارة تقلصت مساحتها بقدر ما كانت تبعد جنوباً نحو خط الاستواء. ولكن بقي السكان هم إياهم، وفنهم الباقي اليوم على خاميته الدهرية يعيدنا إلى طريقة النسيج النيولوتية.

في إقامة هؤلاء البدائيين في جنات عدن الطبيعية، ووسط هذا العالم الحيواني المتبقي كحثالة من المناطق الاستوائية، جاءت قرطاجة الرسولة وأعانت على التوالف مع المآتي الجديدة، وعلى التغلب على الفناء، وللخروج من حالة اليأس التي يخلقها الخوف من الغزو. فقامت الشرطة الضابطة القرطاجية، بنيران القمم، بمراقبة جميع المنطقة من الجنوب إلى الشمال. فأينما ابتعدت جنوباً في البلاد، وعلى كل تلة صخرية، سيقوم مخفر وناره.

أهل أفريقيا كانوا بحاجة إلى أدوات، وإلى توجيهات زراعية ونصائح، وإلى بذار مختار، وإلى عدالة مائية، وإنهم لفي لهفة للأمن من خوف ومن غزو وفي أمسّ الحاجة للشرطة.

في الغرب الأوروبي، لا يعرفون البداوة الأفريقية حق المعرفة. الفلاح الأوروبي يحتقر ويطارد الغجر الذين لا أرض لهم، ويخاف على مطحنته وعلى قنّ الدجاج وعلى ثماره وغلاله إما يرى عربة البوهيمي البياع أو الغجريّ حلاق الكلاب يتظاهران بالولوج ببراءة على طريق القرية أم بالتوقف على جانب الطريق. ولكن هذا الفلاح لا يتخيّل كيف هي حياة الفلاح الأفريقي، والبستاني في الواحة، وصاحب البيّارة، الذي يسعى ويشقى ويتغلب على ريح الصيف وعلى الجفاف ويتأمل بجنى قريب، ثم يشعر بأن البدوي يتجوّل ليلاً نهاراً حول تصوينة النخيل أو خلف الزريبة والسياج والبستان المثقل بثماره.

البدوي هو الرجل وحيوانه معاً. هو الراعي والقطيع، واليد السارقة، والضرس والناب. رجل واحد ومئات من الحيوان، ولكل حيوان مئة فم تأكل وتجترّ وتنتش وتخرّب وتستهلك.

البدوي المترحّل ليس بذلك الراعي الذي يحنو على القطيع، بل رئيس وعصابته همّهم الغزو والنهب والقضم والقطع والنار. البدوي هو الدلول الذي يستكشف المنافذ، والطريق الأسهل، ويترصّد السانحة للتخريب. هو الرجل الذي يفلت قطعانه تلتهم فيما هو يسرق الدجاج والغسيل المنشور والحطب المقطوع والثمر الناضج، ويبصّ على الصبية النائمة ويخرّب عدة لا تنفعه ويجهلها، ويسرق للسرقة، والأذى طبع، ويكسر ليلهو، ويحرق ليتسلى.

البدوي لا يحترم العمل البشري، لأنه لا يشتغل، ويكره كل عمل، ويجعل بغضه للعمل تشريفاً لذاته وتكريماً، ويحتقر من يعملون.

البدوي يريد المدى والعشب، سواء أزرع العشب ليكون قمحاً أم ذرة أم نبتة منصوبة أم هيشة برية، لا فرق. وإذا ما صُدَّ عن المدى بسياج أو تحويطة حول بستان أو كرمة، فإن له الحق المطلق في تهديم كل حاجز ودوس كل مانع.

البدوي بحاجة إلى ثلاث حجارة لموقدته: فيأخذها من حافة بئر أو من عتبة بيت أو قاعدة سياج، ولا يهمه ماذا يخرب ويدمر. وإذا احتاج إلى عصى أو عامود لعربة أم لخيمة فما همّه إن قطع شجرة ليمون عمرها عشر سنوات أم اقتلع عاموداً من كرمة معروشة أم فرعاً من زيتونة. يقصّ ويختار ويرمي، ثم يقصّ أو يكلّخ كلخاً أو بالبلطة.

يولع البدوي ناره، ثم يرحل والنار والعة أم نصف منطفئة. لقد قضى حاجته ومضى. وما همّه إن احترقت غابة من بعده أم امتدّت الجمرة إلى بيت أم قبو أم تخشيبة، أم عربات أم حيوانات على معالفها أم في مراعيها. إذا أطفأ إنسان ناراً بعد استعمالها فأعلم أنه ليس بدوياً. هذا الانضباط لا يدخل عقل البدوي ووجدانه. لأن الرمل لا يحترق.

تاريخ قرطاجة هو تاريخ أفريقيا الشمالية، تاريخ الحضري المتصدّي لغزوات البدو الأفارقة وذهنيتهم.

كل مشروع فهو ضدّ للبداوة. كل أرض افتُلحت فعنوة عن البدوي، ولا يبقى شيء من الحضر سوى ما صُدّ البدوي دونه، وفُرض عليه فرضاً وأُبعد عنه إبعاداً متواصلاً بالقوة والمراقبة والرعاية.

سرّ الحضارة والأمن هو أن يُمنع البدو الأفارقة من تأليف مجموعات كبرى.

والحضارة فأنْ يتحضر البدوي ويستقر أو فيبقى شتاتاً بدداً، غباراً.

البدوي راعٍ يفتش وقطيعه عن العشب، وينتشر في بلدان العشب الخفيف، متقدماً على عرضٍ جبهة واسعة. البدوي يصعب حصره. لا يتوجّع البدوي إلاّ إذا صودرت قطعانه، وليس يعاقب إلاّ إذا فُرضت عليه غرامات عينية من قطيعه. فينبغي إذن قوة شرطة هائلة لفرض الهيبة، وأسوار ومخافر صغيرة ومراقبة دقيقة وعقوبات شديدة. وينبغي مهما كان الثمن أن ينظِّم المجتمع وأن يقوّى ضدّ البداوة. إما يحصلْ بعض الفوضى أم خلل في السلطة، فما هو إلاّ والبدوي اليقظ قد استعاد الأرض التي خسرها منذ أجيال وعقود. فإفريقيا الشمالية بكاملها هي في خطر. إذا ألغيت البوليس خمسة عشر يوماً في افريقيا فالسلام على إفريقيا. لقد انتهت. وإذا لم تحترس إفريقيا جميعاً وبصورة دائمة غزاها البدوي والتهمتها القارة الصحراوية والجفاف. اليوم زاد عدد المستقرين الحضريين على البداوة. أما في أيام الدولة القرطاجية فكان الفلاح المستقر والكنعاني المواطن بمعدل واحد إلى مئة من مجموع سكان إفريقيا الشمالية. ومع ذلك صمدت قرطاجة ونظامها تجاه مشاعيّة البداوة. ولم يكن الأمر هو شأن قوة ولا عدد ولا سياج، بل حصيلة سياسة حكيمة، ومثابرة، ونظام لم تأخذه سنة ولا نوم برهة واحدة. خلال ألف سنة، عملت قرطاجة عملاً يومياً دؤوباً للتقليل من تجوال البدو، ومن المراعي الصدفة، لصالح الزراعة والبستنة.

قرطاجة هي أعجوبة المثابرة..

ويقولون: كانت قرطاجة قاسية مع النوميدي... متطلّبة من النوميدي.

ومن القائلون؟ أنهم مؤرخو الرومان، جماعة لما يحتكوا بأفريقيا ولم يعانوها. وعندما سيتولى الروماني مسؤولية إفريقيا سيقيّم النوميدي حقاً، وسنرى كيف ستتصرف روما تجاه نوميديا، بعد أن احتكت بالواقع.

قرطاجة لم تكن قاسية ولا متطلبة. بل كانت حكيمة بدون ضعف. فالحياة المدنية والزراعية والحضر لا تقوّم بثمن. مع قرطاجة ساد السلم إفريقيا من شواطىء المتوسط حتى خط الاستواء في مساحات بدون حدود ولا قياس طالما أن الهيبة القرطاجية مسلّطة على الرحّل والغجر والرعاة وعلى البداوة.

لغز الجمل في قرطاجة

الكنعانيون دجنوا الجمل في افريقيا
ولكنهم لم يستخدموه في حروبهم هناك

المؤرخون مختلفون حول زمان ظهور الجمل في إفريقيا. ولا يعرفون كذلك متى وصل إلى سورية، والمناطق الصحراوية المجاورة والبوادي التي يقيم فيها البدو حالياً في مناطق الفرات.

يذكر ماسبيرو أثراً يظهر فيه رامٍ أشوري يرمي على محارب كأنه زنجيّ يعتلي جملاً (ربما كان ذلك في معركة قرقر). هذا الأثر يبرهن أنه كان ثمّة جِمالٌ على حدود الإمبراطورية الأشورية. وقد تلقى إبراهيم الخليل هدية من الجمال من الفرعون الذي عشق سارة.

ثمة وصفٌ لحملة شلمانصر الثاني ملك أشور على حلف شامي ضده في العام 854/ق.م، يذكر أن الرفد الذي ساند ملك حماة ضمّ فنيقيين من أرواد معهم ألف جمل من الأعراب، وأميرهم بدويّ اسمه جندب.

فالفنيقيون في القرن التاسع ق.م. كان عندهم هجّانة وقوافل ينقلون البضائع على الجمال.

وفي الزمن الذي بُنيت فيه قرطاجة كان أهل كريت يعرفون الجمل.

في افريقيا لم يتدخل الجمل أبداً في الحروب الفنيقية. ولا جمال كذلك في حرب جوكورتا. بلين القديم Pline L'ancien، العالم الطبيعي، يتكلم مطوّلاً عن الجمل

الآسيوي، ولم يذكر الجمل الأفريقي. وبلين كان يعرف افريقيا، ولكن افريقيا الشمالية فقط.

يقول ا. ف. جوتيي Gautier: «إن غياب الجمل عن افريقيا القديمة هو واقع مبرهن. وهذا رأي أسطفان جسلْ.

فهل كان الروماني هو الذي دجّن الجمل في افريقيا؟ جسلْ يقدّر أن استعمال الجمل قد عمّ في افريقيا الشمالية بين القرنين الأول والرابع ب.م. والمحرّض والمشجع على هذا العمل هو الإمبراطور سبتيم ساويروس وهو فنيقي إفريقاني من طرابلس الغرب.

الفنيقيون أكثر من الرومان كانت لهم دوافع وأسباب كي يدجّنوا الجمل في افريقيا. وقد كانت قرطاجة تتاجر مع افريقيا الوسطى، وكانت على اتصال بري مع مستعمراتها في منطقة الاستواء. ونعرف أنها كانت تجتاز إلى نيجيريا عبر غدامس وغارما ومرزوق والفزّان. ونعرف أن القوافليين كانوا يستعملون خليج سيرته وطرابلس كرأس لخط عبر الصحراء.

وليكوننّ من العبث إذن لو قبلنا أنه ما بين الزمن الذي بدأ فيه استثمار نيجيريا، وهو سابق لرحلة حنّون، وبين القرن الثالث ب.م. قد استغنى القرطاجيون عن الجمل في افريقيا وعن خدماته المصيرية بعد أن كانوا عرفوه في حضرموت منذ ألوف السنين، وبعد أن كانوا استعملوه في سوريا.

بل ونذهب إلى أبعد في الجدل المنطقي: يستحيل أن نتصور حصول مواصلات برية بين خليج بانين وقرطاجة بدون وسيلة نقل تؤمّن اجتياز منطقة عاير والفزّان. ولا نفهم أو نتصور أن الأسفار والرحلات قد حصلت، بدون الجمل، ما بين الزمن القديم جداً الذي كانت الأفيال تصل فيه بعدُ إلى المراعي وبين القرن الثالث الميلادي الذي يفترضه جسلْ موعداً لوصول الجمل. إنها مسألة منطق سليم: نحن نعرف من مصدر أكيد وجود طرق مواصلات، ونعرف مخططها. الحصان لا يستطيع أن ينوب عن الجمل فيها. والفيل يستوجب كثيراً من العشب، وكثيراً من الماء. والجمل وحده قادر أن يجتاز طرق القوافل في افريقيا الوسطى. وإذا كان القرطاجيون قد سلكوا هذه الطريق فمن المحتم والمنطق أنهم استعملوا الجمل.

والسؤال ذاته يطرح حول طُرُق الطوارق. بل إن وجود الطوارق ذاته لما كان يُعقل بدون تدجين الجمل.

فماذا نستنتج من هذا التناقض؟.

نستنتج أن القرطاجيين قد ألّفوا قوافل تعتمد الجمل، وجعلوا الجمل حكراً على القوافليين دون سواهم، أي جعلوا الجمل خاضعاً للمونوبول. ولا ريب أن القرطاجيين كانوا يتقصدون أن يحرموا البدو الرحل من هذه الوسيلة النافعة في النقل والقتال معاً، وكانوا حريصين على احتكار طرق القوافل الصحراوية وحيوان الصحراء الأول. فالبدوي المتطي الجمل ما كان قصَّر عن تهديد قوافل افريقيا الوسطى.

هذه الفرضية تفسر لنا لماذا ما أن اعتلى ليبي عرش الإمبراطورية الرومانية /سبتيم ساويروس/ حتى خرج الجمل من الظل والستر.

* * *

الفنيقيون ذوو الخبرة القديمة بالجمل كانوا يعرفون كم من خدمات يؤديها في الصحراء، وكم من أضرار وتخريب يتأتّى منه في بستان أو كرم أو حديقة!! فكانوا على درجة عليا من الحكمة والتبصر عندما استأمنوا بلاد غدامس في ليبيا الداخلية وبلاد الفزّان على الجمل الثمين كيلا يستعمله الرومان ولا البدو، لأن استعمال الرومان للجمل سيكون بداية عهد جديد وجرح جديد.

في تاريخ هؤلاء الحميريين وقعنا على عدد غير قليل من الأسرار والمعميات. ولربما كانت قصة الجمل هي أحد أسرار قرطاجة.

ولكن سؤالاً ينبغي أن يُطرح: ألم يجد الرومان الجمل في سوريا منذ منتصف القرن الأول ق.م. حين احتلوها، (إذا لم نشأ أن نعود إلى علاقات لهم مع سورية أبعد من هذا التاريخ). ولقد كان بمقدورهم أن يستقدموا إلى افريقيا الشمالية ما شاؤوا من الجمال. فإذا كان الجمل قد غاب فعلاً عن شمالي افريقيا منذ الغزو الروماني حتى القرن الثالث ب.م، فتفسيره الآخر المقبول هو أن روما تقصدت أن تقطع أوصال الإمبراطورية القرطاجية بعد أن أبادت قرطاجة العاصمة.

قرطاجة والبناء والعمران وعلامة تعنيت

المؤرخون الهلّينيون الكـاتبون لحسـاب الرومـان شوّهـوا قرطـاجة لغـايات سيـاسية وثقـافية وحضـارية. وكـان مما شـوّهوه وزوّروه أنهم كتبـوا باحتقـار عن الفن الفنيقي في قـرطاجـة. ولكننا نسـأل إذن ماذا هـدّم الرومـان من منشآت قـرطـاجـة طـوال سنـوات وعقـود وقرون؟؟ من ذا كـان قد بنى وحصّن في قـرطاجـة مـا عجـزت معاول الـرومـان ونيـرانهم وهمجيتهم عن إبـادتـه ومحـوه بقصـد إلغـاء اسم قـرطـاجـة من ذاكـرة النـاس والأزمنة؟؟.

والحجـة التي تقوّلهـا المزوّرون والمنكـرون لأي فـن قرطـاجي هـو أن القرطـاجيين قراصنة وملاّحون وتجار وقوافليـون فلم يهتموا بـالفن، وأن العمارات الفنيقيـة العظمى في قرطاجة هي على الأسلوب المصري واليوناني.

الردّ هو أن الهولنديين والبنادقة والبيزنـطيين والأثينيـين والمصريين كـانوا تجـاراً أيضاً وملاّحين وقوافليين ولكنهم اهتموا بالفنون.

وإذا كان الفن القرطاجي متأثراً بالفن اليوناني والمصري فمتى كان التفاعـل والتأثـر عيباً أو عاراً؟ وما هو الفن الايطالي سوى المأخوذ من بيزنطة بعـد لجوء النخبـة البيزنـطية وسقوط بيزنطة؟ وما هو الفن الفرنسي في عصر النهضة؟ وما هو الفن الأميركي حتى أمس الأقرب؟؟. وماذا يبقى من اللوفر والبانتيون والسان سولبيس ومن كل فلورنسا وميونيخ، ومن انجازات عهد الديركتوار والثورة والامبراطورية ونابوليون؟؟.

وبعد وبعد، فإذا كان من تشابه وتفاعل بين الفن الفنيقي وبين الأيوني والدوري = اليوناني = فالقناعة والمنطق والحقيقة هنّ اذن أن الفنيقيين هم السابقون إلى استعمال العامود والقاعدة والرأس التي تشتهر اليوم بأنها يونانية.

أما عمن ابتكر وعمن نقل ما بين فنيقي وفرعوني فرأينا واضح حول السبق الحضرمي الكنعاني الفنيقي. ولن يمكن لعلماء الآثار والفنون أن يهملوا من الآن وصاعداً علامة تعنيت = Tanit =.

ما هي علامة تعنيت؟.

للوهلة الأولى يحسبها الغرّ الجويهل صورة هيروغليفية. ولكنها علامة هندسية معمارية فنيقية وجدها الأثريون على أساسات بيت لبنان الذي كان مشيداً في شليم في عهد ملكي صادق كاهن الله العلي. وهو أمام الموحّدين في المشرق والذي إليه هاجر إبراهيم من عاصمة الكلدانيين =أور = هارباً من اضطهاد أهله. وإليه قدّم إبراهيم العشور من ماله ومما كان يكتسب من الغزوات. وهو الذي أرسل إسماعيل مبعوثاً موحديّاً إلى مكة لكي يجدّد بئر زمزم ويعيد بناء البيت العتيق. على أساسات بيت لبنان في شليم القدس وجد الأثريون علامة تعنيت الهندسية المعمارية الفنيقية محفورة في زاوية حجر كبير.

علامة تعنيت إياها محفورة أيضاً على أساسات الأميرالية القرطاجية في جزيرة كثنة Cothon، ومحفورة على مسلاّت ومعابد ونذور وأوقاف ومقابر. وهي بمثابة رمز مقدس وإشارة هندسية للتبرك كان المهندسون والمعماريون الفنيقيون يعتمدونها لتضبيط الرصف والشقع للحجارة المقصّبة والعتبات والنحيت.

ما هو الرمز؟ علامة تعنيت رمز لإنسان واقف متعبداً مصلياً مشبكاً يديه على صدره. ودارسو العمار القديم يعرفون اليوم ان هذا التوقيع الكنعاني على أساس المباني يعني أن الحميريين وذرياتهم هم البنّاؤون وهم المثقفون وطالبو الحماية لمبناهم الذي يؤسسون. ولا ريب ولا شك بعدُ لدى أحد من أهل الاختصاص على تشابه آثار البناء والأسلوب ما بين سبأ وصور ومصر وقرطاجة.

كان لأمبراطورية قرطاجة بنايات ضخمة في جزر الباليار، وفي إبزا خاصة، تمثل سفناً حجرية مقلوبة، وكان لها أيضاً مداميك معابد ثقيلة وأساسات بناء متعددة. وكان

لهم في إفريقيا بنايات كبرى أقرب إلى المقابر. والمقابر هي أكثر البقايا إفادة لنا لأن الهمجية الرومانية قد دمّرت كل شيء سواها.

* * *

الحاووز العام والمرفأ:

الملفت للإنتباه أن مدن الفنيقيين صور وصيدون وأرواد، والمصارف التي لا تحصى في بحر المغرب، لم تكن مبحبحة بالماء المنبجسة من ينابيع دائمة. لذلك انصبّ فن العمران والتمصير والتمدين على الشأن المائي بالأخص كما عند الأنباط بني عمومة الحميريين، ولكن في الصحراء.

* * *

إن خريطة هندسية جوفية للرقعة التي تقوم عليها المدينة لا تمنح حلّاً متواصلاً لتوفر المياه، بل يبدو على المصوَّر مجموعة حواويز متفرقة حفرتها يد الإنسان أصلاً وفصلاً لكي تتعبّأ تعبّأً بالماء. فلكل بيت حاووزه الخاص ولكل معبد وقلعة. ولأحواض السفن حواويزها وللمشغل والمستودع. أما خارج المدينة، على القرن الجبلي، على المنطرة، فتوجد شبكة حواويز مردفة بتدابير مائية أخرى عجيبة دقيقة مَسِّيكة حافظة ولا تفلت منها نقطة مطر. ويضاعفها مغارات وقنوات جوفية وآبار وينابيع وشحايح بقصد التقاط كل نقطة تغور أو ترشح أو تنبع. فكلٌّ جميعٌ إلى حاووز وجاره.

أما العجيبة العمرانية الكبرى فمجموعتان كبيرتان من حواويز متواصلة. الأولى تتألف من ثمانية عشر حاووزاً سعتها العامة 30.000 = ثلاثون ألف = متر مكعّب. المجموعة الثانية = لقبها دار سنيّة = تحتوي على أحواض تصفية وترسّب، وغرفة خاصة للحنفيات والسكور، وعلى مصبّات للفائض. ويتوّج الجميع نظام لاختيار ولصبّ نوعيات متراتبة الجودة والطيبة من المياه، لاستعمالات متعددة. ينزل السدنة إلى غرفة الحنفيات والسكور على درج مرصوف بدقة متناهية. وفي هذه الغرفة تنساب المياه في قناة ذات فوّاشة سامحة مانعة. ولا يمكن لعقل أن يتصوّر حاووزاً معاصراً، عاماً أم خاصاً، أدقّ تنسيقاً أو أمتن تنفيذاً.

جميع هذه الحواويز ونظامها المنسّق وبنيانها المعقّد لا تزال حتى الآن سليمة. الحميريون بطبعهم يبنون للأبد والخلود، مثل الأنباط.

ولماذا نعجب؟ فأسوار أرواد في سوريا، تجاه اللاذقية، لا تـزال كما بنيت وسليمـة، منـذ 3000 سنة. وفي قـرطاجـة ذاتا، وبـرغم التدمـير الهمجي المستتم والمحرور وبـرغم البحر، لا يزال من السور العظيم بقايا مؤثرة: المياه تحوّف الحجر الصلد ولكنها تعجز عن تـذويب التّرابـة الملصقة. وعـلى طول ثـلاثة كيلومـترات يمكنـك أن تسايـر خط المـرافىء والموانىء الصغرى والحواجز المائية.

أما في صيدون /لبنـان/ فلا يـزال المهندسون البحـريون ينـدهشون منبهـرين إزاء الأنـظمة والتـدابير الـدقيقة التي كـانت معتمدة، ألف وخمس مئـة سنة ق.م، = 1500 = لتنظّف **تلقائياً وذاتيـاً** أحواضاً ترمّلها العواصف وتردمها. كان التنظيف التلقائي والـذاتي يحصـل بفضل الميـاه التي تقذفهـا بقوة جـارفة عـواصف بحـريـة تـاليـة فتتسلق الأمـواج مستودعات مبنية بتدرّج متفاوت، وتجرف معها الردوم والـرمول كـأنها تشطف الأحـواض شطفاً، وبمياه مضغوطة.

حتى اليـوم، في أواخر القـرن العشرين لا يزال مهنـدسونـا وبنـاؤونـا ومعـماريـونـا الاختصـاصيـون يقفـون مـدهـوشـين إزاء اعتق نـظام أتمـاتيكي تلقـائي حققـه البنـاؤون الحميريون الحضارمة في صيدون والمرافىء الفنيقية، وفي مصلحة المياه بقرطاجة.

أما في الحمّامات /تونس فلا يزال سور المدينة القرطاجي سالماً غير ممسوس، والباب باقياً مع تعرجاته وموانعه وأقفـاله وفتحـاته الصغـرى. هناك بـالأخص نشاهـد البانـوراما والتفـاصيل والتخـطيط لمعنى ومحتـوى المصرف القـرطـاجي التقليـدي والمثـال. الشـوارع ضيقة، والبيوت ذات شرفـات وخرجـات، والسقوف والسـطوح مَدّة مـدحوّة من دلغـان متماسك مرصوص مضروب ويجدل. وحول هـذه البلاطـة الدلغـانية المصـانة دومـاً حرف خارجي لتَقْنِيَةِ الميـاه بقناة نحـو المزارب فـالجاووز. السقف يؤوي ويحفظ مَن تحتـه، وأما السطح، وجهه الآخـر، فوعـاء دلغاني مسيّـك موجّـه نحو السـماء مستسقياً مـطر إيل إلى مستودع الحياة طوال السنة.

والدار الداخلية دلغانية مرصوصة وتُدلك أسبـوعياً عـلى الأقل بـدلغان محلول كـأنه دهـان للخشب والمعدن. ألم تكن بيـوت طفولتنـا هكذا منذ جيل واحـد؟؟ أنـا أذكـر في طفولتي أن ستّي أم إبراهيم، برغم تبليط البيت ببلاط سـمّاقي أم بلاط مـوزاييك أم بمَـدّة من الترابة الحمـراء، رفضت حتى الموت أن تبـدّل أرض غرفتهـا الدلغـانية، وكـانت هي تدلكها بالمدلكة الزلطة كل سبت.

والبيت القرطاجي في الحمامات/ تونس مبسّط منمّق نظيف وكل شيء لمهمة وقصد. لا مساحة تُتلف ولا ترف مفسد، ولا حرمان كذلك إذا كانت اليد طايلة.

والحمامات/ تونس هي بلاد صيد السمك والزراعة وشغل الفخّار. والنساء سواءٌ في بيوتهن أم في مشاغل حرفية يشتغلن بذوق رفيع كتّافيات مزركشة وزينات أعراس، وكل مذهّب مسبّك وكل زخرفة مبهجة مفرحة. وليس لمثل أشغالهن مثيل في افريقيا الصغرى جميعاً (الشمال الأفريقي). وإنها لتقاليد قرطاجية متوالية في أحفاد وذرّيات حميريين، ولا شيء أصدق منها تصويراً للطابع القرطاجي. إنّ بقرب الحمّامات معبداً فنيقياً ذا تماثيل فخارية مدهشة أجملها تمثال البعل وتعنيت يرضعان أشمون.

وفي المهدية، إلى الجنوب من الحمّامات، مرفأ محفور في قلب الصخر، نسخة عن الكتنة، مرفأ قرطاجة الأصلي، مع قياساته الحقيقية كمرفأ قديم أي بطول 126 متراً وعرض سبعة وخمسين (126×57).

وبقرب هذا المرفأ وجد 400= أربع مئة = إقرأ جيداً 400 = حاووز قرطاجي وعدد من المقابر والمدافن.

هل يتصوّر القارىء ماذا يستوجب هذا الوضع من عمران أصيل ومن يد عاملة ومن تخطيط وعلم ومعرفة وصيانة وانضباط؟

خُرّاب البوادي

في قرطاجة كانوا يعلّمون الزراعة، بالتأكيد.

فهل كانوا يدرّسون التاريخ الفنيقي؟ لا نعرف. ولكنه كان ينبغي أن يكون قصيراً ومختصراً، لأنه تاريخ شعب مسالم.

أمهات قرطاجة لم يخفن طوال سبع مئة سنة على أولادهن الذكور سوى من حادث عمل أو طارىء في البحر أم الصحراء، أم في الصيد.

قد يصعب علينا تخيل سلم دام سبع مئة عام. ويصعب على الفرنسي مثلاً أن يتصور تاريخاً لفرنسا لم يحدث فيه حرب أو ثورة منذ صليبية الملك لويس حتى هذه الأيام. لا حرب ولا فتح ولا اجتياح ولا فتنة أهلية أو دينية أو سياسية، ولا حرب مئة سنة أو ثلاثين أو سبع، ولا حرب عالمية أولى وثانية. لا دمٌ ولا أجيال بكاملها راحت ولم ترجع، ولا دمار ولا حداد الأمهات والزوجات والأخوات.

قرطاجة لم يكن لها كهذا التاريخ.

ولكن التاريخ كان يدور حول قرطاجة ويسكب أمواج الدم حول الشواطىء الشرقية من البحر الفنيقي.

كانت قرطاجة تتفرج على الهجرات البطيئة أم العنيفة وعلى الفتوحات وعلى المدّ والجزر في حروب الناس: اليوناني جاء يتحرش بـ ترينا كري، آسيا توحدت تحت سرجون الثاني وسنحريب وسردانا بعل ونبوخذ نصر. قورش الفارسي يخلف الماديين، بابل

سقـطت، قمبيز يجتـاح مصر. والحروب الفـارسية استعـرت ضـد اليـونـان: مـاراتـون، ترموبيل، سلامين.

وأما قرطـاجة فتهتم بـالحري لتعـاليم بوذا، وكـونفوشيـوس، ولاوتسي، ولما حققـه بريكليس، ولما اكتشفه حنّون، أكثر من اهتمامها ورصدها لحروب البيلوبونيز.

وتعرضت قرطاجة لإثارات متعددة: فقد هجمت قبائل وهردات Hordes الجلالقة عـلى روما وخـربوهـا، فأراحـوا المصارف التـيرنية وفـرّجـوا عن قلب شعب الأتـروسـك Etrusques.

أمـا في الشرق، فـالأسكنـدر ابن الملك فيليب المكـدوني، يتصرف كمـجنـون عبقري، وقد اقتحم آسيـا الصغرى وخـربها. فـانهار كل شيء هنـاك. في المشرق: صور سقـطت، وصيـدون فتحت أبـوابهـا وسقـطت غـزّة. مصر تملعبت ثم خضعت، فـارس والعراق وخراسان ركبهم نير هذا الفارس الرؤيوي. الاسكندر الكبير يقود الموجة المخربة والمـدمرة حتى شـواطىء الأنـدوس في الهنـد. ألـوف من سنـوات العمـل المجتهـد، ومن الاتفاقات التجارية والأعمال المعقدة وئدت في الهاوية.

ويتساءل المتسائلون: هل يقوم المشرق كما كان من قبل؟.

إلا أن القائد المقدوني المجيد، الغيور، الذي تسوسحه فتـوحاتـه، يخطط لاستعبـاد قرطاجة التي لا يحميها سوى الصحاري الليبية. ولكن هذا القـائد اختفى فجـأة في شفق مبكر أعجر ولم يبق خلفه سوى غبار العدم.

أي ناموس، أي قدر مرّ يقضي بأن ينزل على أرض الجمال والفرح والحريـة وبلدان الشمس محـاربون هـزيلون جوّع هـزيلون طوال؟؟ يـأتون من الشـمال البعيـد والمجهـول يحملون قصـاراً وطوالاً وكـل سلاح قـاتل ويحملون أدوات النـار والحريق فـلا يبقـون ولا يذرون.

هردة، هوارة، همج، بدون إيمان ولا بيت ولا فن ولا فكر، لا تهزهم موسيقى ولا رقص راق ولا غنـاء، لا يشتغلون مهنة ولا صنـاعة ولا تجـارة ولا زراعـة. لا حضـارة. يظهرون فجأة في ريف العمران ثم يتسلقون أسوار المدن، يدمّـرون المستودعـات والحواصـل والمشاغل ويخربون البيوت والبساتين ويحرقون الفرش والأثاث ويطبخـون على نـار الكتب

والمؤلفات والمخطوطات واللوحات، ويخبزون على خشب الأرز والشجرة المثمرة والعـريشة الدهرية.

الأفضـل مـع هـذه الشعوب الهمـج أن تفاوض لا أن تقـاتـل!! صـور أرادت أن تتحدى وأن تحترم قيمها فأبيدت أمام التنين المكدوني. صيـدون خضعت، فبقيت...؟؟ ومصر ألّهت الطاغية ونسبته إلى السماء، ففقدت ذاتها؟!..

وها روما تنبعث لأن الجلالقة الملولـين لم يبيدوا المـدينة. فعـادت روما تفكـر بجرأة وإقدام. وراحت تضرب ضرباتها في مكان آخر. وجنودهـا رعاة الخنـازير لا يحلمـون إلاّ بالدم والجـراح والأورام والكسور. جنـود بريـون جيدون، ولكنهم - يقـال عنهم - بحارة وسط وعاطلون.

باشرت روما احتلال واخضاع جنوبي شبه الجزيرة الايطالية. فهي إذن تقـترب كل يوم من قرطاجة. وقرطاجة تفكر بالمفاوضات. ستطرح تنازلات لروما كما تُـرمى العظامْ، لعلها تتسلى وتقضمها. ويبقى لقرطاجة بحار المغرب، والأوقيانوس نحو الجنوب، وبحـار الشمال البعيد.

يونانيو صقلية، المشاكسون أكثر من شعبهم في اليونان ذاتها، حـوّلوا تـريناكـريا إلى قفير مجانين. هنا ينبغي عـلى قرطـاجة أن تحـافظ على الصـبر والبأس. ولكن لا حيلة مـع اليونانيين: بالرمو تستـأهل أن تحـافظ قرطـاجة عليهـا بمعاهـدة. ثم لأجل المحـافظة عـلى اغريجنتي فكرت قرطاجة بمحالفة الرومان ضد اليونانيين.

ولسوف توقع قرطاجة، إذا اضطرت، معاهدة واثنتين وعشراً مع الرومان فلعلَّ أن تشبع روما!! ولكن هيهات.

ومع ذلك ما انفكت الحرب تقترب، فاجتازت المضيق. اغاتوكل صاحب سيراقوزة هو بالحري رئيس عصابة. فقد نزل في افريقيـا، هذا اليوناني، ونهب قرى رأس بون. ولم يكتف الغازي بالسرقة والتخريب ولكنه عمد إلى تحريض الداخل ضد قـرطاجـة، البلاد كلها، منذ القيروان حتى الأطلسي.

برابرة الشمال الهمج خرجوا مـن بحر ايجه، وبعد الرافدين، واليونان، دمـروا كـل الماضي المتمدن والحكمة البالغة!!

والاسكندر المقدوني نثر حجارة صور المقدسة، أمّ كل علم وخبرة!!.

وبعد الجيوش المنظمة، المرتبة صفوفاً وكتائب وجيونات وسرايا تأتي الآن قبائل بدوية، فالتة، داشرة جائعة مثل مد المحيط، كنيران البركان الغضبى، كوباء مسموم، وغيوم جرداء داكنة كرمل البحر، تزحف من الجنوب فتأكل الزرع والضرع والعمار والخضار؟.

البدو الرّحل!! من يقاومهم؟ وكيف؟ وهل يمكن أن تتفاوض معهم؟ لا شريعة ولا دين ولا حتى رئاسة مسؤولة مطاعة تقود.

طوال خمس مئة عام فرضت قرطاجة على هؤلاء الأقوام احترامها وهيبتها بفضل الأسوار والشرطة والعطايا والعقوبات والتحضير والنظام. فكان الاسم الفنيقي بفرض الاحترام والطاعة بدون اضطرار ولا مرة واحدة لشنّ حرب أو شبه حرب، بل بأقل ما يمكن من حملات تأديبية وبفضل سياسة حكيمة مدروسة من التعامل المفيد ومن التفرقة المحكمة. وكان الجميع في أمن وازدهار وانضباط. فما لهذا اليوناني، المدّعي الحضارة، يثير في أرض افريقيا عداواتها، وينفخ في نار مطمورة ويدمّر للتدمير!! ولو أن هذا اليوناني طلب مالاً لأشبعته قرطاجة، ولكنه مخرب بدون حساب، . . . أو لحساب غيره.

لما رحل اغاتوكل ليموت ويهلك في مكان آخر عادت قرطاجة تبني وتقنّي وتغرس وتشيد وتحفر وتستنبط الأغوار والآبار، وتخضل ما أحرق الهمجي.

واستعادت قرطاجة سلطتها على البدوي، بعد تلك الغارة الحامية. فتنفست الصعداء، بخاصة لأن البدوي كان حذراً. فبعد أن تسلح من اليوناني وقبض ووعد، قعد كعادته على الحياد ليرى أيها مغلوب لينقضّ على الأسلاب. ماضي قرطاجة وأسلوبها علّمه الترقب والحكمة. فلما رحل أغاتوكل كان قد حان وقت العمل وفرض السلطه واستعادة الهيبة كاملة. فلا مجال في افريقيا لغياب طويل للسلطان. السلطة ملح الأرض فكيف بالصحراء!!.

فلولا أن قرطاجة نجحت في نهضتها السريعة على الرمق الأخير، ولولا أن اللص اليوناني تعب بسرعة ورحل، ولولا أن البدوي الداشر أحسّ للحال بقوة قرطاجة تطحش إلى عقر المتاهات، لكان البستان المسبّع المئات قد تحول بأقل من لمحة إلى رمال سافية تسرح فيها النعامة وأخواتها.

الزيتونة لا تطعم موسماً قبل خمس سنوات، النخلة قبل عشر، والكرمة بعد سبع،

والمثمرات بعد خمس. أما البدوي فيجتثّهنّ برفّة عين ويحرقهن بوقدة واحدة. . . ويترك النار خلفه.

فكيف يقهر هذا العدو الدائم؟؟.

لقد جربت قرطاجة جميع الوسائل. منذ قرون لم تدع قرطاجة وسيلة إلا جربتها واعتمدتها لكي تقيم ما يمكن أن يقام وأن يثبت ويظل. استنبطت ألف حيلة لكي تخضل السفوح والسهول العالية والجبال وأينما كان. ولكن الرمال والبدو لا يرتدّون ولا يلتجمون.

إذن هل نطفّش البدو إلى الداخل البعيد ثم نبني سوراً منذ سيرته حتى طبرقة ونحوّل افريقيا إلى قارّة مسوّرة ثم لا يدخل السور سوى قوافل الجنوب البعيد؟.

تطفيش البدو نحو الصحراء ليس حلاًّ.

• والصحراء ليست ذلك العدم الذي يظنون. إن فيها موارد غير قليلة. ويعاش فيها. ففي الشتاء والربيع تسمن الخراف على مرأى العين بشرط أن تجود الطبيعة بالمطر وينبت البقل والعشب والنفل. المشكلة المياه. فالآبار التي احتفرتها قرطاجة تُعْلم طريق القوافل الكبرى نحو الجنوب بلاد نخيل التمر، وإلى بلاد نخيل الزيت. وما حول هذه المحطات من مرعى وقبائل فهو ضروري لحيوانات القوافل ولتجارتها. فإذا طفشنا البدوي نحو الجنوب فمعناه أننا فقدنا طريق القوافل. ثم ان الماء والكلأ في الصحراء لا يكفي لمدار السنة. لذلك يرحل البدو من ماء إلى ماء ويعتمدون الغزو وسيلة للعيش. يتغازون قبيلة وقبيلة ويغيرون على الحضر وعلى القوافل المارة في حماهم وفي أرض الله الواسعة والسايبة. فلا بدّ لقرطاجة إذن من الصبر والقوة والهيبة لصدّ الغزو عن الحضر وعن طرقات القوافل.

الدواء الأول هو الصبر في معالجة المشكلة الأساسية التي هي الجوع لدى البدو والعطش. ثم مراقبة البداوة إذ تترحّل، والشدة في التأديب. الصحراء ينبغي أن تكون آمنة وسالكة. وقرطاجة بحاجة إلى الصحراء والبحر معاً وإلى الصحراء أكثر. والصحراء مواصلات وهيبة وتعاهد وقوة وجزاء وعقاب. وليست الصحراء بقاحلة كما يسود التوهم. ولكن فيها موارد لا تنضب وأجيالاً بعد أجيال تعتاش منها.

عرّافو قرطاجة، كما جميع عرّافي الحكام، تنبّأوا أن قرطاجة خالدة أزلية إذا تدبّرت

شؤون البداوة. وقد نجحت منذ البداية ولأجيال طويلة في لجم البداوة دون الـزحف على الحضر باعتماد القوة والنظام وبتـدريب البدو وشراكتهم في تـربية المـواشي وتنظيم المـراعي حتى أصبحت الصحراء شريكة ومساهمة وزبونة وذات مصلحة في حراسة وتعاهد.

قرطاجة نجحت أكثر من أي دولة حضرية تتعامل مع الصحراء. ولكنها ذات نهاية ولو صدق العرافون.

إن الموت حق. وإنْ كلّ لهيب إلّا منطفىء يوماً.

افريقيا الاستوائية

وكان ازدهار كبير منذ 2500 سنة بحماية حنّون الكبير. . .

أينما حلّ الفنيقي أينعت حضارة جديدة.

لقد رأينا الحميريين يزدهرون ويزهّرون المتوسط في المشرق ثم في مغربه. ثم اكتشفنا مؤخراً، بتعجب واندهاش، أنهم مدّنوا أفريقيا الاستوائية.

لم يحملوا حضارتهم الذاتية ليزرعوها، ولكنهم، على سنّتهم، قدّموا الخميرة. لم يفرضوا عوائدهم فرضاً ولغتهم ودينهم، بل تركوا الشعوب تتطور بحريّة في بيئتها. وأما قرطاجة فقدّمت التنظيم من عنديّاتها والأدوات والأمن. وإنها لأمثولة في التعمير المشترك ـ بدل الاستعمار ـ تستحق أن نتوقف إزاءها.

حوالى 520/ق.م ـ كان حنّون قد أقام مصارف على طول الساحل الأفريقي في الشمال والغرب، منذ بوجي حتى طنجة، وإذاك قام برحلة استكشاف هي الأشهر والأبقى في التاريخ.

ساحَل حنّون الشاطىء الأفريقي منذ جبل طارق حتى حدود ليبيريا. وكان معه «ستون سفينة كبيرة»، وكانت مهمته الأساسية، أو الظاهرة، أن ينشىء قواعد على شاطىء مراكش (سالة ـ أغادير). ثم تقدم جنوباً وأنشأ جالية في جزيرة قرنة. ثم تجاوز مصب نهر السنغال، وأبحر سبعة أيام بعد غامبيا، ونزل البحارة في جزيرة ما. . . ولكنهم:

«هربوا مرعوبين لأن الصمت الذي كان يخيم نهاراً على الغابة الاستوائية، تحوّل ليلاً إلى دقّ منجيرات وطبول وصنوج وتحولت الظلمة إلى احتراق أحمر. بل تحوّل الساحل جميعاً طوال بقية الرحلة إلى شريط من نيران، وكانت سيول نارية تتساقط من الجبال نحو البحر. وارتفع الحريق حتى خيّل للمسافرين أن النار قد وصلت إلى السماء».

«بعد ثلاثة أيام وصل المسافرون أمام جزيرة فيها بحيرة (لعلها جزيرة شربرو). وفي وسط البحيرة كان ثمة جزيرة أخرى (ماكولاي) Macauley، وفي هذه الجزيرة الأخيرة وجدوا كائنات ذوي شكل بشري سمّاها العلماء غوريلا. (الأكثر أنهم كانوا شامبانزي). فاستولى القرطاجيون على بعض من أناث هذه الكائنات، وأبحروا إلى وطنهم. وقد قدّموا جلود هذه الحيوانات قرباناً في هيكل البعل»(*).

ان وصف حنّون للشاطىء الحرجي المغطى باللهيب وبنار أعلى وأقوى من بقية النيران، وتطاول السماء، (عرفوا نهاراً أنها تخرج من الجبل)، لينطبق على انفجار بركان الكاميرون الأكبر، المسمى عربة الآلهة. وهو يقع شمال خليج دوالا «Douala»، بقرب الشاطىء على جبل ارتفاعه أربعة آلاف متر.

يقول أ. ف. غوتيى E.F. Gautier: «ينبغي أن ننحني أمام الحقيقة: الملاحون القرطاجيون كانوا، في القرن الخامس ق.م. يعرفون مصبات نهر النيجر. ولذلك نفكر كم كلّفت حملة سيبيون الروماني من الخسارة للاستكشاف الجغرافي: لقد خسرنا ألفاً وخمس مئة عام في انتظار فاسكو دي غاما. أما نتيجة رحلة حنّون وما قد يكون تلاها من استعمار قرطاجي، فهي المدنيّة النيجرية».

إن تقييم غوتيى صحيح. غزوة سيبيون الروماني أخّرت الاستكشاف البحري 1500 سنة، وأخّرت تحضير أفريقيا وقتاً أطول. فليس إلّا في أواسط القرن التاسع عشر أن بارث Barth ثم ناكتيجال ـ Nachtigal = عشرين عاماً بعده سيكتشفان جزئياً الطرق القرطاجية التي كانت تصل إلى خط الاستواء وإلى ما يسمى اليوم نيجيريا وكاميرون والأراضي المرتوية بمياه النيجر الأدنى وروافد الكونغو اليمنى. الطرق القرطاجية كانت تتجه جنوباً على موازاة خط الطول، منذ شاطىء سيرته الصغرى، عبر قابس والحمة

(*) تجدر الملاحظة إلى أن القرطاجيين المتهمين بتضحية البشر ـ وأولادهم ذاتاً ـ للآلهة، لم يقدموا للبعل سوى جلود هذه الكائنات.

ودوز وفطنسّة والدويرة ونالوت وغادامس والغات ومرزوق (أو أغـاديس) والتشاد وبـورنو وأدامو، فتصل إلى نيجيريا وكاميرون.

يقيننا أن قرطاجة كانت تتاجر مع أفريقيا الوسطى عبر طرق القوافل، من الـطريق الأوحد الذي يجتاز الصحراء ماراً شرقي الفلوات، متحاشياً المَدَيـات الخاليـة الشاسعـة، قبل أن يحقق حنون رحلته الشهيرة في القرن الخامس ق.م. ولـو كان الأمـر غير ذلـك لما أقدم حنّون على رحلته. والسبب أنه لا شيء على شاطىء الكامـيرون كان يـوحي له أنـه سـوف يجد في داخـل البلاد الـطرق الوحيـدة التي تصل الشـاطىء مباشرة وبسهـولة مـع العاصمة قرطاجـة. الطريق الـبرية هي الأسبق وهي التي بقيت ودامت، فيـما أن الطريق البحري كان تلمساً واستكشافاً جغرافياً.

رحلة بحرية واحدة ما كـانت تكفي لاستثمار مسـاحات شـاسعة بهـذا المقدار، ولا حتى لتوطيد نفوذ دَوِّيم. وحتى قبل التـدخل القـرطاجي يحق لنـا أن نفترض أن الـطريق الكبرى عبر الصحراء كانت معروفة وتمـر عبر فـزّان وعايـير وتيبستي، وأن المناطق الـواقعة جنوب الواحات القرطاجية في سيرته كان يجوبها البدو الرحل، والـرعاة الكبـار، وقوافليـو الأفيال والقطعان، ولم يكن على القرطاجيين سوى أن يرسموا الطريق فلكياً حتى نهايتـه، أي حتى الشـاطىء، في خليج غينيـا وخليج بـانين Benin. وليس إلّا بعـد وصـولهم إلى البحر عبر طريق البر الأكيدة، إنهم فكروا في الطريق البحرية التي كان يمكنها انطلاقـاً من جبل طارق أن تؤدي بهم إلى النقطة ذاتها.

واننا نلاحظ، بعد المقتطفات والأسانيد التي وصلتنا، أن دورة حنّون تعبّر عن ذاتها تماماً مثل الأوديسّ كأنها تحقيق عجائبي مخيف: .

«وصلنا إلى هناك بعد ألف خطر وخطر، ورأينا هناك أشياء مرعبة.. **لا تذهبوا إلى هناك!!**».

نحن اذن على يقين:

أولاً: ان حنون لم يذهب «إلى هناك» صدفة، وعلى العمى، ولكنـه توقف تمـاماً في المكان الذي كان يقصده، عند منتهى الطريق البرية.

ثانياً: لقد عرف «**عربة الآلهة**» بركان الكاميرون الأكبر، المَعْلم الباهر والمنارة العليا فاعتمد عليه كيما يتعرف طريقه.

ثالثاً: يبدو أنه لم يرتعب أبداً، لأن القرطاجيين لم يعودوا جميعاً بل بقوا «هناك».

وكان حصيلةَ هذه الرحلة والاستثمار السابق لها الحضارةُ النيجيرية.

فالغابة في نيجيريا الدنيا ليست غابة بكرا. بل هي أراض مزروعة وبستان تدجين. وزنوج هذه المنطقة قد اختاروا، بغية استغلالها، النوع النباتي الأكثر إنتاجاً أي النخيل الزيتي فزرعوه صفوفاً متراصّة وعلى مساحات بعيدة. نيجيريا الدنيا هي غابة نخيل زيتي وينبغي على زارعها أن يعتني بها واحدة واحدة. وفي ظل هذه الغابة قامت مزارع تمارس أيضاً الزراعات الغذائية. فإذا عجّت البلاد بالسكان فلأنها تغذيهم. ويقول الدليل الانكليزي عن نيجيريا أن الزيت وجوز الهند هما المورد الأساسي في المستعمرة. وهذه الزراعة تغذي التصدير، وهو يتجاوز أي تصدير آخر في نيجيريا، ولا مثيل له أينما كان في خليج غينيا. هناك يقصد مندوبو المصابن العالمية، وبالأخص مصابن لندن، وهنا ينشئون عنابرهم. وما كان لزيت النخيل أن يكون بهذه الأهمية العالمية الصناعية لولا نيجيريا.

غاية مستعمري افريقيا الوسطى هي استثمار الأراضي الخصبة وازدهار الأهلين، ولا تزال حلماً بعيد التحقيق في شاطىء العاج والكونغو، ولكنها حصلت سراً وبدون أن يدري العالم بها، بفضل الاستثمار القرطاجي.

غابة النخيل الزيتي وازدهار نيجيريا ليستا العلامة والشاهد الوحيدين على وجود دائم للممدّن. ولكن الفنيقي قد علّم الزنجي كيف يستغل مناجم القصدير في جبل باوتشي Baoutchi في شمالي بانووي Benoué، الرافد الأكبر الأيسر لنهر النيجر. وتلكم هي الثروة المعدنية الكبرى في البلاد. فالنيجيريون اذن قد عرفوا كيف يذيبون البرونز، وكيف يصبون على القوالب تماثيل لا تزال موضع تقدير حتى اليوم: هي تماثيل البرونز الشهيرة في منطقة بانين. ولكم يلذ ويفيد أن تقارن تماثيل البرونز المكتشفة في رأس شمرا وفي بانين وكأنهما من صناعة واحدة.

وكذلك تعلم شعب اليوروباس -Youroubas- النيجيري أن يصنعوا الزجاج، وأن ينفخوه في مصانع الزجاج. وتعلموا شطب الحجر الكريم، وتعلموا صياغته. هكذا حرّض القرطاجي الحسّ الفني لدى الزنجي الأفريقي، برغم ما يتقوّله أقلام الحقد عن قرطاجة لتجريدها من القدرة على أي فن.

يصعب علينا أن نتصور أن رحلة حنّون وحدها قد أحدثت هذه النتائج. بل بقي القرطاجيون في إفريقيا الاستوائية وكانت رسوليتهم التمدينية، المتوالية بغير انقطاع، عبر ألوف السنين، نجاحاً لا نظير له ولا أجمل.

القرطاجيون حوّلوا هذه الغابة الاستوائية إلى واحة. ولم يتركوا قوس نصر ولا كتابات تمجيدية كالرومان ولكنهم صنعوا البحبوحة والسعادة. لقد علّموا الناس حب الشجرة المغذية، والنظافة والعمران والترتيب والنظام.

أي من الشعوب التي استعمرت غيرها يمكنه أن يتبجّح بمثل هذه النتائج؟؟.

قرطاجة أبادها أعداؤها، ولكن رسالتها وعملها بقيا، وتطورا في الزمان والمكان. وجاء من يكمّلها. حضارة قرطاجة تطورت وشملت أراضي جديدة. وها هم السوريون واللبنانيون، بعد 2500 سنة من حنّون الحميري يعودون إلى أعمال مشابهة في الغابة الاستوائية جميعاً. وعندما دُمرت قرطاجة وضاعت علومها وأسرارها حصلت في جنوبي تونس أشياء يسميها اسطفان جسلّ في مؤلفه الضخم «تاريخ شمالي أفريقيا» «أحداث كبار وتطرح أسئلة كبيرة:

ألم تدمْ وتتوالَ وقتاً طويلاً اتصالات سرية ما بين سيرته والاستواء؟

ألم يحاول القرطاجيون، برغم روما، أن يصلوا ما كان انقطع من العلائق والعرى؟ لقد ظلت القوافل، لوقت، تجتاز الطرق الجنوبية، ولكن روما كانت تأخذ كل شيء ولا تعطي. فتعبت القوافل فيما الوجدان القرطاجي يودّ لو يبقي على الطرقات التي تعطلت. ولما تولى الحكم الامبراطوري رجل قرطاجي يدعى سبتيم ساويروس Septime-Sévère في القرن الثاني ب.م. تحرّك النسغ الأفريقي النبيل واستعادت القوافل نشاطها.

هذه المنطقة النجيرية المستثمرة تبين لنا إحدى الميزات الأبرز والمؤثرة في الحضارة الفنيقية، وهي الميزة الأفريقانية. فقد كان أسلوب قرطاجة في الاستثمار معقداً:

- اقامة علاقات تجارية في الاتجاهين ولصالح الفريقين القرطاجي والأفريقي الأصلي.
- العمل على اثراء غير منقطع لصالح المواطن الأصلي.
- الاستفادة من البلاد بتخصيبها، ورفدها بحيوية جديدة وذاتية.
- إقامة طريق برية وبحرية، على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر بخط مستقيم، لوصل عالَمين.

- تدجين الجمل الذي بدونه لا تنفع الطريق البرية شيئاً.
- إشراك المواطنين المجاورين للطريق، على ثلاثة آلاف كيلومتر، في المصلحة المشتركة ما بينهم والقوافل والأمن والثروة.
- شبك القارة جميعاً في اقتصاد موجه.

ويبدو أن القرطاجيين قد ثنّوا هذه الطريق البرية المستقيمة، بتوأم لها متوازٍ، وفي الزمان ذاته، في منطقة الحجّار Hoggar. وثمة دلائل لا تحصى تدفعنا إلى الاقتناع، وبخاصة تشابه الأسلحة الدفاعية والهجومية، بأنّ الطوارق المعاصرين هم حراس الطريق الثانية عبر الصحراء الأصعب والأقصر زمناً.

الباب الثالث

عروبة كنعانية قرطاجية

على أرض قرطاجة، في رأس بون، في الساحل كما حول صفاقص، يبدو أن عبقرية قرطاجة لا تزال حاضرة. أهل صفاقص الذين صبغتهم الأرض الفنيقية بولاء للشجرة وبالحس التجاري الذي أوحته قرطاجة، يظهرون اليوم مواهب تجارية راقية، وصبراً على الجهد الزراعي والمثابرة والتقوى العميقة. لقد عاد أهل صفاقص، بعد أعوام من السلم والعمل، فابتدعوا الأعجوبة القرطاجية. عادوا فنصبوا سهلاً شاسعاً بغرسات الزيتون بعد أن كان السهل قد تعقم طوال ألف وخمس مئة عام. اعراب نابول هم اليوم مسلمون ورعون وهم مزارعو فاكهة وعمال فخّار بارعون. فمنذ ألف عام لم تنفكّ دواليبهم البدائية تحيي الصلصال وتقولب الدلغان. إنها الأشكال إياها، والجرار والأباريق الفنيقية التي لا نزال نجدها في المقابر، والمصابيح ذاتها والمزهريات ولكن يكتب الفاخوري عليها: باسم الله الرحمن الرحيم. لقد نشر الإسلام أعلامه وجوامعه ولغته في الأمكنة إياها التي ارتادها الحميريون. فأينما رأيت جامعاً أو رباطاً أو أسطورة أنتَ لا تعرف أباها، أو خبراً لا تعرف مبتدأه، فدونك قرطاجة والفنيقيين وحمير.

قرب تكرونا، في عين جرسي، رباط شهير يحجّ الناس إليه ويتبركون بقبر الوليّ المدفون فيه. تقول الخرافة الشعبية الراهنة ان الوليّ القديس قد فجّر النبعة الشافية فأقيم قبره مزاراً. وفي هذه النبعة وبركتها سلاحف مقدسة هي موضوع تكريم واحترام. وحول العين والنبعة والبركة ومقام الوليّ سيدي عبد الرحمن الجرسي سور قديم أثري وردوم أقرّ علم الآثار انها قرية Agressel أجراس إيل. أو أجر السيل، أو عين الجرس. ومقام

سيدي عبد الرحمن هو حتما لاحق للنبعة والبركة والسلاحف المقدسة ولعين جرسي. فالسلاحف لا تقدس وتبرّك في الإسلام كما هو الحال في طرابلس الشام حيث تقدس أسماك بركة البدّواي حيث كان معبد فنيقي قديم.

على القرن المشرف على قرطاجة فوق الصخور الشاقولية النازلة قصّاً إلى البحر، كان ثمة معبد فنيقي ونار على تقليد الكنعانيين في سورية جميعاً بإقامة المعابد والأديار على المشارف. وعلى قرن قرطاجة تقوم الآن قرية عربية ليس أجمل منها في الأرض، ويعرفها السيّاح في العالم أجمع. اسمها سيدي بوسعيد. تقول الخرافة المنقولة كابراً عن كابر أن قمة جبل المنار (قرن قرطاجة) كانت تبدو في الماضي محاطة بهالة من أنوار عجيبة. فلما استكشفها المؤمنون وجدوا فيها قبر سيدي بوسعيد الباجي منوّراً بأنوار قدسية، ومنذ ذلك سمّي جبل النور. وهو جبل مبارك يقدسه التونسيون ويجلّون قديسه ووليّه بوسعيد المرابط المكرّم المدفون تحت الجامع. ويؤمه الحجيج بغير انقطاع. وإذا كان على بايات تونس أن يتغيبوا عن مقرّهم ودّعوه بصلاة استئذان وتبرك ويعودون إليه بصلاة شكر. وصار الناس جميعاً يحجّون اليه قبل سفرة في البحر وبعد العودة، ولذلك سمي المرابط بوسعيد سيد البحار. ولذلك يسرج فوق المقبرة سراج دائم يغذيه بالزيت المؤمنون والحجّاج.

إنارة السرُج فوق قبور الأولياء هي عادة قرطاجية قديمة لا يُعرف مبتدأها حتى في سورية. وعادة النحر على القبر لإطعام الحجّاج والفقراء هي من عمر إكرام الضيف ونشوء العروبة من قبل الزمان الجليّ.

وبعد ففي أي مكان كان يمكن لقرطاجة أن تنشىء منارة للسفن دائمة النار أفضل من هذه المنطرة المثلى؟؟.

في قرطاجة ذاتاً، بين المرفأين، ممرّ كانت تدخل السفن عبره إلى المرفأ الحربي، وكان على الممر باب عظيم الحجم. اليوم في مكان هذا الباب نرى معبداً صغيراً ذا قبّة، يحرسه سادنٌ مراكشي ويغذي فيه لهبة بدون انقطاع ويطرش حيطانه بكلس أبيض متجدّد.

تقول الأعراف ان هذا المعبد هو مربط يحتوي على بقايا وليّة تدعى لالا صالحة. وهو محجّ للنساء اللواتي يطرشن الحيطان الداخلية بالحنة الحمراء. وهناك تصلي النساء وتدعو لالا صالحة أن تشفع لهن لدى الله. وتقول أسطورة شائعة أن لالا صالحة قد

تكـون بنت سيدي بـو سعيد، الـوليّ المقدس ذكـره والمكرّم فـوق جبـل المنـار عـلى قـرن قرطاجة.

وفي منطقة المعزاب في شمالي الصحراء الجزائرية عـدة واحات تـوائم قصبتها مـدينة غرديّة. وفي المدينة القصبة مربط محجّة للنساء أيضاً على غـرار مربط لالا صـالحة. وثمـة قناعة لدى علماء الآثار والأقوام بأن ثمة علاقة ما بين المعزاب والطقس القرطاجي.

***

أهل المعزاب = وهم فعلاً في عزبة أي في بُعد وانفـراد وانعزال = يقـولون إنهم من الزناتية، ويفتخرون بهذا النسب.

من هـم زناتة؟؟.

زنـاتة هـم أهـل الجنوب. انهم بـدو يصعدون شمـالاً للرعي منتجعين، يـلاحقون الكلأ عند حدود الأرغ الكبير والبطاح وغابات كروميريا وحتى شواطىء رأس بون.

ولا نخلطنّ الزناتية بالرحّل الكبار هجّانـة الجمال الـذين يُدعَـون الطوارق الملثمـين والمتسلحين بالسيف العريض.

زناتة هـم أحفاد ذوو نقاوة سلالية متحدّرون من زناتة الفاتحـين. إنهم عرق شـامي عربي. ويقدّر زمن قدومهم إلى المغرب خـلال القرنـين الفندالي والبيـزنطي = قبـل الفتح الإسـلامي = وقد ضـاع تاريخ قدومهم الأكيـد والمحدد في الـذاكـرة التـائهـة في أعـماق المغرب. ولكن بعض المدققين يلاحظ أن ظهور الزناتية يصاقب مع زمان ظهور الجمل في المغرب بكثرة.

المعنى الممكن لهذا التكهّن هو التـالي: الجمل هـو الذي سمـح باخـتراق الصحراء فعلاً وتطويعها. والقرطاجيون قد نظموا القوافل طوال قـرون منذ مـرافىء المتوسط، عـبر الصحراء، حتى قلب افريقيا ووادي النيجر. وحصروا الجمل في القبائل الصحـراويـة أي الشمبا والطوارق وقبائل مرزوق وتيبستي، لأن الجمل إذا استباح البساتين والكروم خرّب افريقيا واقتصادها. أنياب الجمل أقـوى من جميع مـزارعي البلاد. وكـان الزنـاتي يستحلّ كل شيء لأجل جمله ولا يحترم حاجزاً يوقفه دون المراعي، ولم ترتدع زناتة مرة عن تخريب افريقيا إذا استدعى بقاءُ الجمل. وقد قاومت زناتة الفتح العربي أكثر من أي شعب آخر. وكـان من وسائـل مقاومتهم للفتـح أنهم مارسـوا «الأرض الجديبـة» كما مـارست شعوب

أخرى سياسة الأرض المحروقة أو الأرض المعوّمة منعاً لتقدم جيش غريب غازٍ. وسرّ خطة بني زناتة أن الفاتحين العرب قد ييأسون من التقدم أو البقاء إذا جاعت جمالهم.

الزناتية لا يبنون بيوتاً، وحياتهم نبيلة كريمة أنوفة، ولا يحرثون الأرض، ويصرّون على الإنتاج الرعوي وعِشرة القطعان وعلى الصيد والقنص. ويمارسون الغزو والنهب والغارات الجامحة.

لكن أهل المعزاب الحاليين يختلفون كلياً وجذرياً عن هذه الأوصاف. فلا يعقل أن يكونوا هم زناتة أو من زناتة. فمن يكون أهل المعزاب إذن؟؟

المعزاب أولاً هو بستان وسط صحراء مساحتها ثلاثة ملايين وثماني مئة ألف هكتار = 3.800.000 = من أرض قاحلة جرداء، وصخور ورمال وحمادات، تحرقهن الشمس شيّاً حتى التجمّر. والمعزاب أرض الإيمان العميق حتى التصوّف، والسعادة المقرونة بالسلم. شعب المعزاب على مذهب إسلامي خاص يدّعي أنه الأصفى والأطهر. ولذلك يضطهدهم جميع الشيع والفرق والطرق ولكن يحميهم من الاضطهاد المتواصل ومن الإحتكاك بالسوى ومن التأثير الغريب أرضٌ غير ذات زرع. ولكنهم بجهد متواصل أخصبوا وادي نهر المعزاب الكلسي.

هؤلاء اللاجئون من الاضطهاد، الهاربون، المعتزلون دون العالم، حفروا الرمل والصخر واستنبطوا من الأرض أعزّ كنز = الماء =. فأسسوا عدة مدن وجعلوها أوكار نسور توائم يفصل ويصل ما بينها جرود ووعر. إذا تجوّلت في هذه الواحة المنعزلة حسبت ذاتك في اليمن، وفي حضرموت بالذات. مدينة الزناتية هي قلعة ذات شوارع ضيقة تحيط بجامع ذي مأذنة هرمية مربعة القاعدة ذات منارات أربع باسقات نحو العلى.

المعزاب هو ألف سنة من صراط سرّي باطني ومكتوم عن السوى. تحملوا كل اضطهاد معروف لأجل أن يبقوا أطهاراً وأصفياء. تدرّعوا دون الناس بالمهامه والقفر والمسافات الشاسعة وبالأسوار والتقية، في جمهورية دينية. همّهم الأعظم أن يتأسّوا سيرة الأجداد الذين خلّفوا للذريات آبارهم والبساتين والحدائق والوطن. فلتحفظ إذن رفاتهم بتكريم وإعظام!!

المعزابيون تجار ذوو خبرة ومزارعون يحرثون كل شيء والنخيل ويعالجونه ويصدرونه. وهم على تعاهد صحراوي مع قبائل الشمبا.

والمعزابي فقير وأقرب إلى التقشف المقصود. مدينته رمال وأحلام وواحته أعجوبة مستحبّة. وإنتاجه قليل. دَيدنُهُ أن يحيي المعزاب لكي يعيش فيه حراً وسعيداً، كما في ملجأ صحراوي وحديقة متعة محصّنة. فالبقاء في المعزاب شرف وواجب، وضرورة مكلفة، وليس بأي حال استثماراً ربيحاً. إذا اختل التوازن المالي في القبيلة عاد المعزاب إلى حالة العدم. ولذلك يهاجر المعزابي إما يبلغنّ سن الرشد لكي يوفّر مالاً فيحيي به المعزاب مزدهراً. دستور مكارم الأخلاق والنخوة لدى المعزابيين، وآية الجدود العظمى: «إنه ما فاز بالثروة إلا المقدام الذي يجتاز المسافات ولا يخشى الصحراء مهما بهمت، ولا يخاف تعباً ولا قيظاً وبرداً ولا أعاصير الرمال. الرجل هو محتقر الفراش الوثير والمتغلب على المصاعب والتجارب والأقدار».

هذا الدستور الخلقي يذكرنا بالسافط القديم.

الزناتي المتزوج لا يصطحب العيلة تحت أي عذر. وأول عودة له من بعد الغياب فبعد سنتين، ومروره عابر.

يقول عنهم خوسى جِرْسْ في كتابه «المعزاب»: «هؤلاء الرجال ذوو نفسيات متناقضة: متفانون بطوليون في حياتهم الروحية، أما في حياتهم المادية فحريصون على مال وثروة ومصابرون بغير حدود على العمل والكدّ وعلى الصدق في أعمالهم».

بعد هجرة وجنى يعودون إلى المعزاب ويقنّون ويسيّجون ويبنون ويبستنون وينصبون الأعناب والنخيل، ويمارسون الأعمال الخيرية، ويتعبدون لتنقية أرواحهم ونفوسهم. ويموتون بنفس رضية.

ولكن أرواحهم المتقشفة وتقواهم السرية المستقوية بالله، المتمثلة بظلّه في الجامع وفي البيت والبستان وفي عرض الصحراء وأثناء الهجرة والبعاد، لم يحدسها أحد ولم يسبرها ولم يَغُصْ إلى أعاميقها أو سما معهم إلى رحابهم العلوية.

المعزابيون الذين ليسوا زناتية بدون أي ريب، هل هم قرطاجيون من القدامى، من الأبطال القديسين؟؟ من يدري. فالمعزابيون، كمثل جميع الخوارج، اطهار وأصفياء، وكمثل الخوارج تركوا على الصحراء التقية بَصْمَتَهم وتوقيعهم. وإنه لأمر مبتوت أنه ما من واحة قط منذ قابس حتى فجويج وسلجماسة إلا اجتذبت الخوارج فطوّروها وجعلوها جنّة للمعتزلين.

ولا نـرى حقاً أو عـدلاً ألاّ نشير بقناعة ويقـين إلى سمات مشـتركة بـين المعزابيـين والفنيقيين، وإلى أن لباس أهل جربة والمعزابيين هو إياه اللباس الفنيقي التقليـدي ولباس القرطاجيين. والذين عرفوا من قرب أو عايشوا المعزابيين وأهل جربة وصفـاقص يعرفـون أن الروحية المعزابية تحتوي على جميع المواصفات الروحية والخلقية التي تحلّى بها الفنيقيـون كما هم حقّاً أهل ثقة ووفاء وأمانة وليس كما صوّرهم اليهود في توراتهم المزوّرة أو الـرومان كأنهم فريسيون أو كجنود في اللجيون بلا وجدان ولا دين.

قناعة العارفين تبتّ أن المعزاب معتزل ومنسك للقرطاجيين من قبل النكبة الرومانية وبخاصة من بعدها.

* * *

ألف سنة من العروبة الكنعانية

دام الفنيقيون في شمالي افريقيا ألف سنة. إنه العهد الفنيقي، القرطاجي العربي. ألف سنة تمتد كما في تاريخ فرنسا منذ هوغ كابت Hugues Capet حتى القرن العشرين. فينبغي إذن، إذا تكلمنا عن قرطاجة أن نحدّد أي قرطاجة نعني، كما نفصّل فرنسا االكابيسيين وفرنسا الڤالوا، وفرنسا البوربون، والإمبراطورية الأولى، والجمهورية. . . هل لأن قرطاجة المسالة ليست بذات تاريخ أم لأن الحميريين كانوا يحملون الأسماء المتشابهة صار يحقّ للمؤرخين أن يهملوا التدقيق والروية والتنقيب؟؟.

قرطاجة، عند تأسيسها كانت على درجة عالية من الرقي والتقدم. فالذي سوف يتطوّر في قرطاجة ليس درجة الحضارة (وكانت في حال تشبّع) وإنما مقدار التسرب الأفريقي في قرطاجة. قرطاجة المتأسسة حديثاً كانت على علاقات وثيقة ومتواصلة مع صور ومصر. والعلاقة ذات اتجاهين بقدر ما أن صور كانت ذات نفوذ وأثر وسلطة في الدلتا. الحضارتان الصورية والمصرية متشابهتان إلى حد كبير. إلا أن القفير القرطاجي، وبعد أن انقطع الاتصال الحميم مع مصر وصور، اتّبع قدره الجديد في أن يطوّر افريقيا وأن يتعاون معها وأن يقودها. لذلك ستكون قرطاجة أولاً ليبية وصحراوية. وبعد استكشافات حنّون ودورته البحرية ستكون قرطاجة افريقية وسطى مع لونية حادقة. الدكتور برتولون Bertholon سيّدعي أن الآلهة الكبرى أريستوبول هي امرأة سوداء. وقبل هذه التطورات جميعاً، وبسبب الاهتمامات البحرية، والعلاقات المائية، وبسب جيرة صقلية، والاحتكاك بالتألّق الهلّيني المسكوني، فسوف نلاقي في قرطاجة حقبة هلينية

أيضاً. فالحضارة الفنيقية السورية الأم التي ساهمت كثيراً في تربية الحضارة اليونـانية عنـد نشأتها، سوف تتأثّر بتألق ابنتها. ولن يكون في قـرطاجـة، ما بـين نشأتهـا ونهايتها، هـذا الفرق الهائل الذي يفصل جَلَفَ العادات الفـرنسية في أوائـل عهد الكـابيسيين عن تـألّق باريس ومجدها أيام هي عاصمة الآداب والفنون والفكر، أو كـما بين بـاريس ـ Parisis ـ القرية الصغيرة وباريس عاصمة النور.

القـديس أوغسطينـوس كواعظ مسيحي لعن الـترف القرطـاجي مشيـراً إلى الأسرّة النحاسية المغطاة بالبرفير، ولعن قـرطاجـة وبخورهـا وعطورهـا ومآدبهـا ذات الراقصـات والغناء. وهذا الوصف الصادر في العهـد المسيحي هو إيـاه الذي كـان وصف به فـرجيل قرطاجة، في ملحمته الأنابيد Enéideعندما كانت ايليسا تؤسس قرطاجة.

مقال نفساني عن المؤرخ القديم

نقرأ: طرابلس 177014 نسمـة. فنعـرف أن الاحصـاء حصـل في يـوم واحـد وأن بإمكاننا أن نطّلع على اسم كل واحد وعنوانه وعمره ومهنته وأجار بيته ومدخوله. ونتـأكد بالتالي أن طرابلس تعد كذا

أمـا عندمـا نقرأ لـدى المؤرخ ميشلي Michelet، ان بلدة Agrigente كـانت تعد ـ 200.000 نسمة فإننا لا نثق كثيراًبإحصاءات القرن السادس قبـل المسيح. وإذا مـا مررنـا بمدينة أغريجنت، ورأينا بقاياها وحدودها وأسوارهـا، ثم قارنـاها ببلدتنـا أدركنا أن أرقـام المؤرخ غلط.

وعندما نقرأ عند ميشلي أيضاً أن «سرقسطة أخرجت مئـة ألف جندي من مـرفأهـا» نشك أن المدينة يمكن أن تستوعب سكانها وفوقهم مئة ألف جندي.

نقرأ: سيباريس جند ثلاث مئة ألف رجل. فنضحك.

ويقول ميشلي: «كانت قوة عسكرية هائلة تبحر وتعـوم منذ قـرطاجـة حتى سلوقية» فماذا نفكر؟؟

فإذا عدنا وقرأنا عند ميشلي أيضاً: «خمسون ألفـ رجل التجأوا إلى قلعة قـرطاجـة» شككنا بأرقامية حضرة المؤرخ ولا نصدقه.

ويقـولون أن سيبيـون عسكر مـع خمسة وثـلاثين ألف رجـل وكل خيـالته عـلى تلة القلعة، التي تقوم عليها اليوم قرية قلعة الأندلس الصغيرة فنفكر حالاً أن القوة الرومانيـة كانت ألفين من المشاة وعدة رؤوس خيل.

يتكلم ميشلي عن آخر حصار لقرطاجة بقيـادة سيبيون، (وقـد سدّ الـرومان المخنق الذي يقفل الخروج من المرافىء، فهدم القرطاجيون ليلاً قسماً من السور الطويـل البحري وحفروا قنالاً كيما يصلوا الكُتنة بالبرزخ). يقول:

«ولكن القـرطـاجيـين فعلوا فعلة أعجب: الـرجـال، النسـاء، الأولاد، جميعهم، وكانوا سبع مئة ألف، حفروا، بدون صوت، في الصخر، مدخلاً آخر إلى المرفأ»...

ماذا؟ هل نبتسم؟؟ بل فحصنا الأرض والموقع إياه في قرطاجة فوجدنا مكان القنال (هو بقرب فندق اسمه Pavillon Carthaginois بـين المرفـأ العسكري والشـاطىء. طول الخندق عشرون متراً. وعرضه أربعة، ولا نعرف عمقه. وليس من المؤكد أن وظيفته هي وصل الكوتون والبرزخ على ارتفاع واحد للمياه. بل ربما كان القرطاجيون ينقلون عليه ـ دحرجة ـ سفنهم على الناشف.

أمـا بخصوص جيش سيبيـون وخيله فإن سيبيـون كان قـد موّن جيش الغـزو بمـاء ومونة غير مطبوخة لمدة خمسة وأربعين يوماً. فإذا حسبنا أن حصة الجندي يومياً ليتر واحـد من الماء، وكيلو واحد من الغذاء، يكون الحاصل أكثر من مليون ونصف ليـتر ماء ومثلهـا مونة ناشفة. وينبغي أن نضيف إليها مونـة مطبـوخة لخمسـة عشر يومـاً. فنقل المـاء لجند عدده كما قال ميشلي، يستوجب 157500 جرة تسع كل واحدة منها عشرة ليترات.

أما سكان قرطاجة ومساحتها فإن آخر الدراسات المحترمة التي أجراها الأب ديلاتر تجـزم بأن مسـاحة قـرطاجـة المدينـة لا يمكن أن تتجـاوز المئـة هكتـار، بمـا فيهـا المـرافىء والمستودعات والثكنات والمشاغل والمعابـد والقلعة والمقـبرة. فلا يبقى إذن أكـثر من ستين هكتـاراً للسكن. فلو كان السكـان مكتظين كـأكثر الأحيـاء الشعبية في مـرسيليا ونـابـولي وبالرمو وجنوا، لما فاق سكان قرطاجة المئة وخمسين ألف نسمة.

ونتذكر ماذا كتب ابن خلدون في المقدمة:

«عنـدمـا يكـون المـوضـوع مـالاً أو عـدد جيش فـإذاك ينبغي أن نـرتقب الكـذب

والمبـالغات. ولا يجـوز لنا أن نصـدق ما يخـالف تجربتنـا اليوميـة والمـألـوف، لأن المـاضي والمستقبل يتشابهان كنقطتي الماء».

في تأريخهم للحرب حتى الفناء بين قرطاجة وروما كان المؤرخون اليـونان والـرومان مملوئـين حقداً، وبعيـدين عن العقل العلمي ومـدفوعـين بالحـماسة السيـاسيـة والمصلحـة الفردية. وهكذا بلغ التضـخم حدّ الجنون

أقلام العبودية

ليس پوليب هو المؤرخ المثال. ميشلي جعـل منه شبيهـاً بـ كومّـين. آخرون شبهـوه بابن خلدون. أما فـونتنيل فيشهـد أن پوليب لم يكن مشـاهداً لكـل شيء ولا متجرداً ولا مجتهداً. فاليوناني پوليب، أسير الرومان، كان يعيش في روما كأسير حرب. فلنقل إنـه في إقامة جبرية.

وكان رجل أدب ولم يكن ينقصه ذكاء ولا فهم. وكان يدعي الواقعية. والتجـرد في موضوع الوطنية والقـومية. وعمـل كل شيء في سبيـل الخروج من وضعـه المزري الـذي وضعه فيه القدر. هذه البيئـة من رجال الأدب والفكـر في اليونـان المنحلـة كانـوا حثالـة برجوازية مريضة. كانوا نخبة كذّابة تتزين بعبارات الخطابة والجدل وتلك البلاغة الفارغة اللفظية التي كانوا يعلّمونها في قدموسية أثينا. مثقفون بدون كرامة وبدون عـزة ولا شرف ولا شجاعة في التحـدي. زبدة منحلّة، يجعجعـون، خبراء في الهجـاء والمسبة والمهـاترة، يخيفون الشرفاء باللسان البذيء المثقف ثقافة مشعوذة. نخبة كاذبة عبدة جعلت من ذاتهـا شلعـة نبّاحـين بالأجـرة، يهوشـون بأمـر، وبأمـر آخر ينقضّـون على من يـومىء به إليهم معلمهم وسيد عبوديتهم. لا يتورعون عن استرضاء الجـماهير الغشيمـة، ينتجون صخبـاً وفوضى وضوضى لحساب الكربـاج والمال الحـرام. وقحون كـالقحباء، متشربـون بالعيب والعاز حتى الحثالة والثمالة. وقاحتهم ليس يردعها شيء.

عبيد العبيد.

أقلام عبودية.

هيئتهم أنهم رجال الساعة، ورجال الواجهة وعلماء وخـطباء ومفكـرون وقوالـون. مظهرهم أنهم أطهر الطاهرين، ثوريون مصلحون وطنيون قوميـون. وجدان النـاس. بل

هم متطرفون، هم سوبر يونان، يدّعون أنهم رسل الفكر الهليني والحكمة المتنزلة عليهم من أكابر الفلاسفة!!!.

إنهم كأكابر الفريسيين، مقرّ النفاق.

وكانوا معروفين جداً لأنهم كانوا يؤجرون ألسنتهم وأقلامهم و. . . عارهم. فلهم الاستقبال الحسن، والبشاشة. ولهم مظاهر الزحفطة التي كانوا يبتزّون موازنتها بألف حيلة ورياء. . . وبألف خدعة قانونية ومرسوم.

هكذا تكدست عليهم الأعباء والرواتب والأعطيات والذلّ. وكانوا بالحقيقة معولاً في أساس النظام الذي يستغلونه ويفسدون حكامه وشعبه، بما كانوا يزرعون من هروب وطني ومن تهتك قومي، وبما كانوا يهينون أنفسهم وشعبهم وحضارتهم ووطنهم الذي باعوه.

لقد داخلهم الحرام، وأناخ عليهم الذل لما خضعوا للإسكندر وألّهوه. قبضوا من الاسكندر المقدوني ثم راحوا يلعقون المذلة الرومانية. نشاطهم، عملهم، سيرتهم سممت الحياة القومية. وخمّرت الفتنة، وخربطت المقاومة، وفتحت مصاريع الأبواب للهمج.

ولأن اليونان لم تضحِّ بثلاثين منهم فقد خسرت ذاتها وذلّت وسادها همجي جاهل ووحش. فراح عبيد العبيد يمجّدون ويسبّحون حول العرش. أقلامهم برسم الايجار، وظهرهم مجلدة، ولسانهم يلحس جزمة الجلاد. وجعلوا من أنفسهم مؤرخين عند الرومان لعلهم ينالون مكاناً تحت الطاولة بين الأقدام ليلتقطوا فتات وليمة تدفع بلادهم تكاليفها من عِرضها المسفوح.

الذل أطلق فيهم نكتة الهزء. يحتقرون أنفسهم وبعضُهم بعضاً، وبلادهم وتاريخهم. وعندهم كالمنافقين عبارات اعتذار جاهزة وعبارات تناقضها إذا فاجأتهم مناسبة عاهرة. يهزأون من الصادقين ومن المؤمنين بعدُ، ومن بقية لهبة الوجدان. سيدهم وسيد عبوديتهم أفضل من البلاد التي خانوها. ولأنهم خانوها كرهوها وخافوا منها فأمعنوا في أحرارها الأمناء هجاءً واضطهاداً.

الروماني يبغي أن يمدحوه فيمدحونه ويزيدون. جوقة من منافقين. ويحب الهمجي الفاتح أن يمجدوا ثقافته المعدومة وغير الموجودة أصلاً فيمجّدونها بما كان ينبغي أن يقال عن يونان الكرامة والحرية، وما همَّ أن تكون روما هي طغيان الأرض؟؟.

وكيف تمجّد روما بدون إهانة اليونان؟.

وكيف يمجد أحدٌ نصرَ روما إذا لم يحتقر انكسار اليونان؟ وكيف إذن لا يشكرون المنتصر لأنه شرّفهم بجزمته؟ لذلك جيّروا للهمج كل ثقافة اليونان ومواريث المشرق السوري وكل رجاء في الحضارة السورية كامنٍ في صلب البشرية المعذّبة؟.

تلك الثقافة الراقية التي شوهوها بسلوكهم المستهتر وببعدهم عن مهزة الوجدان القومي حوّلوها إلى مبخرة يشعلون فيها بخور الذل على مذابح روما القهارة.

وبعدُ، فما دامت روما في حرب قرطاجة، وما دام سيبيون يحكم في روما ويتحكم باليونان فماذا لن يقول أقلام العبودية المأجورة عن قرطاجة وحضارتها ورجالها ونسائها؟؟ العبارات جاهزة، والمرآة توحي للعبيد المثقفين بماذا ينبغي أن يهجوا قرطاجة. يكفي أن يصفوا أنفسَهم.

الوحل الذي يغطيهم سينفضونه على قرطاجة ممزوجاً بسم الدهور وبذلة الجبان أمام المقاتلين والشجعان، وكمثل بغض الكافر والمرتد والهربان أمام مؤمن بعد بالعقيدة الأولى وبالجهاد الحقّ.

لقد وسّخوا قرطاجة أكثر مما طُلب منهم ولوّثوها بما فيهم وفي روما معاً. وحسب بوليب وشلعته أنهم دمغوا قرطاجة إلى الأبد وأنه لن يكتب التاريخَ بعدهم أحدٌ، ولن يتصحّح زيف التاريخ.

بلى! إن تغيير وجه التاريخ لمن صلب العقائد الصحيحة وأحرارها.

بوليب ومدرسته جمعوا مثالب الأرض والشيطان وجسّدوها في قرطاجة، وصبّوا كل شرٍّ في القالب القرطاجي. ولم يبقوا تهمة إلّا قالوها في هانيبعل وهملقار، وفي كل امرأة قرطاجية وكل إلـه. وجعلوا القرطاجي وحشاً يسرق العذارى على الشواطىء. والتنين الذي في الأسطورة. وأنه يلعن آلهة الأولمب، وينفث العفن، ويأكل الأولاد والأطفال. ويأكل أولاده ذاتاً. جعلوه يخلّفهم ويأكلهم.

وجعلوه جباناً لا يقاتل.

وأنَّ عنده كنزاً أسطورياً طمره في مغارة.

فلا بد من مجيء الملاك الروماني، خيال الشهباء الخضر الأشبهي لينقذ العذارى

الأسيرات، ولكي يخلص الأولاد من الأكل. . . وبالأخص لكي يكتشف الكنز.

لقد نفّد اليونان بحقّنا في مغربنا نسخة طبق الأصل عما فعله اليهود بمشرقنا.

پوليب وأمثاله هم خير مثل على أقلام العبودية في معارك الحرية.

عروبة قرطاجة الواقعية
والعروبة الوهمية الراهنة

إيانا والتوهّم! مدننا العربية، مغرباً ومشرقاً ونيلاً وعربة، لسن صورة عن جوهر قرطاجة.

دكان صغير في سوق مسقوف، ألوان زاهية وأقوام بأزيائها المحلية البدائية، قد يكنّ نسخاً عن بعض ما كان في قرطاجة.

ولكن الدكان البدائي والسوق والبازار والزبائن الذين لا زمان لهم والأقوام الآتين على طوف بغير تاريخ ومن بلاد لا اسم لها، والبدو والعربان والمتخلفين جميعاً هم بالحري أصداف متحفية متجمدة على صناعات نقصت ولم تزدَدْ وتخلّقت بالنسيان والتنبلة والتقوقع وبالتعبّد لحرف وزيحٍ وشكل. هؤلاء جميعاً قصاراهم أنهم نماذج منقرضة من مهارات قرطاجة الحية.

حقيقة الحال أن الصناعات العتيقة تراوح مكانها وتتخلف وتتفتت وتنعس نعسة الموت. الحرفيون والصناعيون البدائيون يجترون ما ليسوا يعرفون له طعماً ولا اسماً ولا يدرون ما إبداع واختراع وما براعة وصناعة. لقد خملت ملكة الخلق والتجديد والنقد ومنهجية حضارية ما بين صناعة ومعدن مستجد. فالأنحطاط عميم والزمان يتقهقر.

الصناعة المعاصرة تغزو الأسواق العتيقة وتضاربها في إنتاج وجودة وتوزيع وأسعار. بل هي المنتجات التقليدية المستثيرة للحنين والذكرى لأكثر كمية وأرخص سعراً في الأحياء الأوروبية وعلى رفوف المخازن الكبرى. فالمحافظة والأصولية والتجذّر التي يدّعيها الحرفي التقليدي ليست سوى عجز وكسل وتخلّف.

أما قرطاجة . . . .

أما قرطاجة فشأن مختلف. قرطاجة العظمى ذات المجد فهي آخر موضة وآخر طراز ذوّيق متطوّر، وآخر تحسين وتجويد وهي سعر ملائم ومحدود، وسوق عامرة مكتنزة بكل جديد وشيّق.

قرطاجة صاغة مبدعون، وجواهريون متأنقون وصياقلة كالنحل ومزخرفو فضيات كالفَراش النادر. السيراميك والزجاج والزخرف هن أحدث ما طرّز مبضع وإزميل ولوّن كنارٌ وما استطابت أنامل العبقرية. من ذا يصنع الترس المقدس لتكريس الأبطال؟. وصواني الضيافة للأميرات الكنعانيات في مواسم الأدونيات؟ من ذا ينحّس الفخّار ويؤنّق المزهرية تهدى إلى الملوك يا حسنها، وما يقدَّم وإلى الأمراء والمشايخ وكبراء الأرض وإلى المعابد ذات الزلفى؟؟.

ومن يبرز ويُدَمْشِقُ أناقة العروس والأرستقراطية المغناج وجميلات الأرض؟؟.

وهل من جواب سوى واحد أحد؟؟ قرطاجة.

قرطاجة والدين

أحد أصدقائنا كان يتوهم أن الديانة المسيحية، بدلاً من أن تعترف بإله واحد، قد كدّست عدة عبادات. وكان يرمز إلى الثالوث، وإن لم يقلّه، وكان يفكر، بعد زيارته لأفريقيا، بكنائس أو مزارات السيدة في افريقيا وترابانى والكرمل ولورد والوردية، والآلام السبعة، والحمل الفصحي، والقلب المقدس، وكان يحسب أنها آلهة متعددة.

وكم يدهشنا تلك الصعوبة التي يعانيها معاصرون كثيرون، وأصدقاء، في إدراك المفاهيم الروحية لدى السوى. ولكم تتضاعف هذه المصاعب إذا شئنا أن نستجمع عقائد دين باد منذ ألفي سنة. ليس بسهل على العقل العادي أن يتجاوز المعابد التي يكشفها المعول، وتماثيل الآلهة الذكور والإناث، والكتابات غير المفهومة «المخربشة» على آثار الماضين ليرى فيها وخلالها وخلفها ديناً مارسه إنسان عاقل وشعب عاقل.

قرطاجة كانت تعبد الله الكنعاني الفنيقي. إنه الموجود. انه الـ هو. ولا إله إلاّ هو. إنه إيل. إنه الله الخالق السيد الملك، مالك كل شيء ـ مولوخ = المولى =. ومنه ملكي صادق كاهن الله العليّ في شليم القدس الذي هاجر إليه إبراهيم الموحِّد هرباً من شرك أهله الكلدانيين في العراق فخضع له وقدّم له العشور من جميع أملاكه وغزواته. وملكي صادق هذا هو الذي ذكره بولس الرسول في رسائله وجعل المسيح كاهناً أزلياً على رتبة ملكي صادق. هذا الرئيس الأعلى للموحدين في مدينته شليم هو الذي أرسل إسماعيل مندوباً من قبله إلى مكة وبئر زمزم ليكون عميد التوحيد فيها ويضبط البئر ويقيم قواعد البيت المتهدّم أي ليعيد بناء الكعبة وما حولها. إله ملكي صادق هو إلـه قرطاجة.

وهو ملك كل مدينة = مولوخ قرت = ملكقرت = ملك القرية. هو حامي قرطاجة = جنّ قرطاجة = مجنّها = درعها = شفيعها. وليس إلّه عرق أو شعب أو عشيرة، بل خالق العالم والحياة والإنسان والقيم والفضائل والقانون. ليس يهوه بأي حال. بل هو نقيض يهوه في كل حال.

هذا الإلّه = الله = يقوم على ثلاثة مداميك. الأول أنه واحد فرد صمد خالق ومالك لكل شيء. وهو الذكورة المتمثلة في السماء والشمس والنار والنهار والقوة والأسد. المدماك الثاني = الوجه الثاني = هو الأنوثة، الآلهة العظمى = تانيت = المتمثلة في الماء والحليب والليل والقمر والخصب والأمومة المنجبة وعشتار والأرض. المدماك الثالث = الوجه الثالث = هو الابن أشمون = في لبنان قضاء عاليه قرية اسمها قبر اشمون المتمثل في الطفولة والشباب والربيع الأثمار البشر الحياة وفي وعد البعث والخلود للناس، والشجرة، والأرزة بالأخص.

العالم انبثق من زواج الأرض والسماء وكلاهما انبثق من نفحة الله. وكان القرطاجيون، يؤمنون بخلود الروح وبالدينونة والثواب والعقاب.

وكان في المعتقدين الفنيقي والمصري نواحٍ متشابهة. وأما الحالة الروحية الايمانية في المشرق فقد ظلت طوال قرون في حالة إعداد وتخمّر وتسامٍ، في أكثر أقوام المشرف، في انتظار المسيح. إنها الفترة التهميدية في حال الترقب. فلا يعجبنّ أحد إذا ما صادف منذ المغرب الكنعاني ومصر وسورية واليمن ونجران والحبشة أن شعائر كثيرة ومناسك قديمة قد اعتِمدت من قبل الآباء الأوائل في تأسيس المعجمية واللاهوت والطقوس والأدبيات المسيحية. وليس التقارض الواضح والجلي ما بين الحضارة السورية الأمّ ولونياتها البابلية والسومرية والأكادية والأشورية والكنعانية والحميرية والحبشية والرواقية والآرامية والإنطاكية كما والحضارة المصرية الفرعونية وبين المسيحية الناشئة، سوى دليل وبرهان على قرابة جذرية ونسب حضاري عميق مقابل اليهوهية التي رفضت المسيحية رمّة ولا تزال. ولسوف يتكرر هذا السياق ذاتاً بعد ظهور الإسلام وانتشاره وسيطرته. وليس نشوء المنهج الفكري والمنطق الجدلي والمعجمية التوفيقية ما بين المدارس المسيحية العظمى في سورية وانطاكية ومصر وقرطاجة (ليبيا) وبين الفكر اليوناني سوى دليل آخر على تقارب الجذور الأولى المنبثقات جميعاً من الحضارة السورية الأمّ وعلى

تناقضهن جميعاً مع اليهوهية المنغلقة والغريبة أصلاً، بعرقيتها وتقوقعها، عن جميع الحضارات والمدنيات الإنسانية والمسكونية.

ولا يعجبنّ أحد إذا قلنا ان الحبشة قدأثارها تيّار حميري أصيل وتيار فنيقي تسلل إليها عبر مصر فتفاعلا كثيراً أثناء التبشير المسيحي المرقسي للحبشة وللأقباط عموماً. وكذلك ندرك الدور الذي لعبته قرطاجة منذ برقة (ليبيا) حتى البروفنس (فرنسا) مروراً بمالطة والباليار، أثناء الحملة التبشيرية بالإنجيل. ومن يناقش ضد دور الأفارقة العظام في العهد المسيحي؟؟.

ترى لماذا دخلت قرطاجة مع أول الناس في الدين المسيحي؟؟ الجواب هو في آرامية المسيحية وكنعانيتها، وثانياً لأن قرطاجة بدينها الأصلي ونكبتها وعدائها لرومة ولكل ما هو روماني، كانت منذ 700 سنة متشربة للقيم السورية ومستعدة ومختمرة روحياً وخلقياً لتقبّل الدين الإنساني الجديد الذي هو تطوير للحضارة السورية الأم بفعل ما سمّي بـ **قبل - المسيحية** وبفعل ثقافة الرجاء والترقب والترصد للخلاص في ديانة تموز وآدون وأوزيريس. وسوف نعود إلى مقارنة ومقاربة ما بين آدون وأوزيريس.

كان في قرطاجة حسّ إنتماء افريقي لا ريب فيه، بل كانت قرطاجة تدرك أنها هي مؤسّسة الهوية الأفريقية الأولى وهي وجدانها والذاكرة والرمز. وكانت المسيحية الأفريقية بالأخص مضادة بدون حدود للمسيحية الرومانية. بل كان المسيحيون القرطاجيون يرون أن روما أشد كفراً ونفاقاً ورياءً وأولى ألّا تعرف وألا تنتمي إلى الدين الجديد. ترتوليان ألّف «**الدفاع عن المسيحية**» بلغة جارحة ومنطق رافض للوثنية الرومانية وللروح الرومانية المتوالية في مسيحيتها. قصده أن يدافع عن المسيحية ولكنه دفاع هجومي. وأما كتاب أغسطين «**مدينة الله**» فهو اتهام مرعب ضدّ روما.

المسيحية الأفريقية ترفض روما، وما من دارس لهذه اللونية الخاصة من المسيحية إلا ويستوقفه الميل المعارض لروما واستكباره أن يكون الرومان أهلاً لاعتناق هذا الدين. وبعد فالآرامية هي الأداة التي انتقل بها هذا الدين وهي لغة المسيح في تبشيره ووعظه وإعطائه جسده ودمه وهي لغة آلامه على الصليب مع أبيه إيل ولغة قيامته. وبها تكلم الحواريون والرسل وبها أقيم القداس لذكرى استشهاد المسيح وفدائه وقيامته.

والدين الجديد أول ما انتشر ففي سورية ثم انطاكيا وتوابعها ثم في غربي المتوسط

وقـرطاجـة ومصر والحبشة وبـين الحميريـين المتكلمين بـالكنعانيـة في قرطـاجة والمستقبلين للمبشرين فيها رفضهم اليهود والرومان.

جميع الشعوب المغلوبة والمقهورة واليائسة تحت الطغيان الـروماني كـانت تقاوم سـراً وعلناً ضدّ الإمبراطورية الجائرة. روما، في نظر الشعوب الحضارية المغلوبة، هي الهمجية المنتصرة وهي الشرّ المغتصب لإشـلاء الحضارة والمـدنية. والجنـدي الرومـاني سرّاق وغـازٍ وتاجر رقيق، ويجسّد الاحتلال والدمار، والـوثنيةَ الغبيـة البشعة وعبـادة الإمبراطـور المؤلّه والمتبدّل. دين روما خلو من ايمان أو تقوى وهـو تعبّد لآلهـة موتى ثم لا يُبعثـون. روما أمّ الموبقات وهي التي وصفها يوحنا في سفر الرؤيا «بـالسكرانـة النشوى من دم الشهـداء». اللغة اللاتينيـة هي لغة الـطغيان والخونة الـذين يخدمـون الطاغـوت ويوالـونه من عبيـد العبيد، وهي لغة كهّان روما والأباطرة المؤلّهـين. أما الآراميـة فلغة المسيـح يتوجّـه بها إلى الشعوب المقهورة والعائشة على الرجاء.

ولكن حصـل أن البشرى تغلغلت في الشعوب الخـاضعة وفي الشعـوب الايـطاليـة المـرومنة ثم في الـرومـان ذاتـاً. وبعـد زمن أصبحت الـلاتينيـة لغـة الكنيسـة في الغـرب وأصبحت روما أمّ الموبقات عاصمة للمسيحية بعد اضطهادات وهمجية.

تحوّل روما إلى عاصمة للمسيحية وإلى مقرّ البـابا الـروماني لن يمـرّ بدون حسـاسية حادّة في افريقيـا وآسيا اللتـين رفضتا أن تتكلما الـلاتينية. يقـول القديس أوغسـطين بعد المسيح بست مئة سنة أن الأفريقي يصلي بالفنيقيـة فيها الكنيسـةالمصرية تصـلي بالقبـطية، وإذا ما توجه كاهن إليهما باللاتينية اصمّوا آذانهم ولم يفهموا شيئاً مما يقول.

وبقدر ما كانت الكنيسة تترومن بحكم كون رومـا عاصمـة للإمـبراطوريـة المستبدّة راح العالم المسيحي القديم وذو الحضارة ينكمش دون السيطرة الرومانية على المسيحية.

في افريقيا القرطاجية حصل الطلاق ما بين أزلام الرومنة المترفة وبين الشعب الفقير الكادح الأمين لفنيقيته. وظـل الطلاق يتمادى في رفض وتمرّد حتى تجسد أخيراً في العاميـة الدوناتيـة الفظيعـة. ولما أطـلّ الفتح العـربي تقبل العشب القـرطاجي السـوري الحميري العربي نداءه الأهلي والقومي والإنساني.

يقول رينان في كتابه «**التاريخ العام للغات السامية**»:

- إنّ اللغة الآرامية قد سهّلت تقبّل المسيحيين الدين الإسلامي بعد أن خدمت المسيحية طوال ستة قرون.
- وإنـه بفضل الآراميـة ازدهرت المسيحيـة الأفريقيـة ازدهارهـا الباهـر وأبدت حيـويتها القصوى.

فلما استدعى هونيريك = 484 م = المطارنة الأفـارقة إلى مجمـع قرطـاجة لبّى طلبـه 470 أربع مئة وسبعون مطراناً ما عدا المتغيبين والمـراكز الشـاغرة. وقـد أقبلوا من المناطق المنتشرة منذ طرابلس حتى موريتانيا وأكثرهم متكلمون بالكنعانية العربية.

آدون وأوزيريس

نصـوص مصريـة قـديمـة تسمي منـطقـة جبيـل في السـاحـل الفنيقي نيغـا حـوالي 3000 ق.م. وأمـا جبيل المـدينة فيسمّيهـا المصريون القـدامى كبّين. ولـربمـا كـانت لغـة الشعب في الساحل السوري آنذاك كـما في الداخـل هي لهجة مشرقيـة. ويميل أهـل العلم إلى تصديق قول كهنة جبيل ان مـدينتهم هي أقدم المؤسسـات الفنيقية في المشرق وأن هيكـل جبيل الأصلي معاصر لأقدم هيكل مصري معروف. ويؤكـد العلم اليوم أن مـدينة جبيـل قـد تأسست حـوالي 5000 ق.م. وفي العام 3200 دبّت الحيـاة التاريخيـة الجلية في سـورية جميعاً أي في العراق وكنعان وفنيقيا وكذلك في مصر. إنها حقبة جديـدة من حياة البشريـة والحضارة سواء في اقتلاع الحجار وتقصيبهـا ولو بـطريقة بـدائية أم في صنـع الأدوات المعدنيـة وبخاصة الفـأس أم تصنيع الخشب من غـابات الجبـال وفي اعتماد العـامود الخشبي المنصـوب على قاعدة حجرية متينة. وبدأت القرى تتجمع وتحسنت صناعة الخزف وشيّه على النار. وصُنعت الأواني بتقنية متطورة. وانتشرت المعـادن في جبيـل آتيـة من قـبرص. وربمـا من القـوقاز. وأقيمت المقـابر مستقلة عن البيـوت. وبدأ التنـظيم المدني وتعـددت البيـوت في البنـاء الواحـد، وتعددت الغـرف في البيت الواحـد، واحتفرت أقنيـة ومجـاريـر للميـاه. وارتفعت الهياكل للإلّه وأُحيطت القرية بسور. وبانَ في جبيل آثار من التفاعـل الحضاري مع العراق ومصر معاً، وآثار التبادل التجاري مع السودان بخشب الأبنوس، ومع باكتريا (شمالي أفغانستان) باللازورد، ومع قـبرص والقوقـاز بالنحـاس. وتألقت بؤر مـدنيات في العراق وجبيل ومصر والشمال السوري الفراتي الحلبي. واخترع المصريون كتابة خاصـة بهم كما اخترع العراق كتابته التي تعممت منذ منـابع النهـرين حتى مصبّهما. وانتشرت الثقـافة

في المشرق جميعاً ومصر، بفضل تبادل تجاري مكثّف منذ بدايات الألف الرابع، ربما بفضل تدجين الجمل والحصان والحمار وتغلّب الإنسان على الصحاري والمسافات الشاسعة.

غير أن حفريات واضحة تؤكد وجود علاقات باكرة جداً اقتصادية ودينية ما بين جبيل ومصر بالأخص، وربما تمحورت العلاقات الأولى حول حاجة مصر إلى أخشاب غابات لبنان المستوردة من جبيل.

منذ مطلع 3100 ق.م وبعدها أخذت جبيل تصدر إلى مصر آنية فخارية، ربما معبأة زيت زيتون، وصموغاً وقطراناً. وفي هذه الأجواء من التبادل التجاري الاقتصادي حصل تفاعل ديني واضح وأكيد ما بين أدبيات أدونيس وأوزيريس وكلاهما إله زراعي، وبين أدبيات الإله هاي ـ تاو. وكان المؤمنون المصريون يتقون آلهة جبيل. وحوالي 2900 ق.م أرسل الفرعون خارخموي تقدمة إلى إلهة جبيل هاتور إناء من المرمر الأبيض منقوش عليه اسمها. وكانت هياكل جبيل تؤوي الهة مصرية بجانب إلّه جبيل المحليْ السابق للكنعانيين.

في الألف الرابع ساد لاهوت في آسيا الغربية جميعاً لديانة طبيعية وآلهة إنسانيين. فثمة إلّهان زوجان يرمزان إلى الخصب والأثمار والولادة.

عشتار = بعلة جبيل = سيدة جبيل هي القمر وإلهة الأمومة والخصب في سورية جميعاً. وإلّه كبير أبٌ = رع البلاد الأجنبية = راعي البلاد الأجنبية = شبيه بإلّه الشمس، راعي مصر. وابن رع = روتي = كان يتجسد بجسم إنسان ورأس أسد. وإله رابع = هاي تاو = هو أدونيس إله الغابات الفنيقية، وروح الأحراج المتقمص في شجرة. هذا الإلّه إياه بجميع مواصفاته كان اسمه في العراق تموز.

المصريون منذ أقدم التاريخ كانوا يكنّهون الإلّه الفنيقي هاي تاو بأوزيريس. وأسطورة هاي تاو هي تماماً أسطورة أدونيس وكذلك أسطورة أوزيريس المصرية.

أدونيس هو آدون مضافاً إلى ياء المتكلم، ومعناه سيد...ي... وآدون مثل بعل لفظة عادية وليست أيّ منها اسم علم، بل معناها يا سيدنا، يا سيدي.

ولكن الاكتشافات الحديثة أكدت أن آدون هو هاي تاو إله الغابات والشجر،

معبود بلاد جبيل في الألف الثالث ق.م، الذي أصبح آدون في الألف الأول ق.م. أمهما شخص أسطوري واحد.

النصوص الأغريقية المختلفة تُجمع على أن آدون إله مولود من الشجرة، (أمه اتخذت شكل شجرة) وأنه إله شاب قتله خنزير بري أصابه آدون أثناء الصيد ولم يقتله فارتدّ عليه الخنزير وصرعه، فمات ونزل إلى الجحيم، فلحقته عشتار وانتزعته من عالم الموت وبعثته حياً في الربيع، في أول آذار.

بالمختصر = آدون هو إله زراعي، روح النبات، ذَكَرٌ، رمز التناسل والحب والخصب، يمتلىء قوة في الربيع، يموت في الصيف اللاهب في تموز، وتندبه عشتار، ويبعث في الربيع التالي. وكان هذا الإله معبوداً في مناطق الفنيقيين جميعاً، وتقام له احتفالات جنائزية لذكرى استشهاده ومواسم فرح وجمال في ذكرى قيامته، واسم هذه الاحتفالات «الأدونيات». وكان تكريمه بصورة أخص في أفقا، جرد جبيل، قرب ينابيع نهر آدون = نهر إبراهيم = لأن أفقا وربوعها هي المقناص الذي كان يرتاده آدون، وهناك صرعه الخنزير. وتعود هذه الأسطورة في فنيقيا إلى 3000 ق.م فقد وجد خاتم في جبيل يعود إلى بدايات الألف الثالث يذكر الإله هاي تاو من منطقة نيغا (بلاد جبيل) المقدسة جداً والمكرّسة لعبادة آدون روح النبات. وكان المصريون في عهد الأسرة الأولى = 3300-2900 ق.م = يدعون روح النبات هاي تاو. وفيما يقول الاغريق أن آدون ولد من شجرة كان المصريون يعتقدون أن هاي تاو قد تقمّص شجرة الصنوبر. ولذلك يوحد المصريون هاي تاو بآدون بأوزيريس.

وقد وجد اسم هاي تاو في الأهرام أيضاً في نصّ يكنّه = يشبّه = الفرعون المتوفي والمدفون في الهرم بالإله هاي تاو الموجود في بلاد نيغا (جبيل)، ويقول إنه الإله الأهم في المدينة والمنطقة وإنه إله الشجر. أما الاغريق فيقولون في الأسطورة التي نقلوها عن الفنيقيين إن آدون ولد من صنوبرة.

ملاحظة أخيرة: هي أن الخاتم الأسطواني الذي عليه ذكر هاي تاو يظهر الألهة إيزيس بتاجها الحامل قرني بقرة. وهذا الرسم هو رسم عشتار الفنيقية لدى المصريين. فالتفسير واضح = انهما آدون وعشتار، الحبيبان الإلهيان في نيغا = جبيل = والبطلان الأسطوريان لجدلية الحياة والشر والموت والقيامة في المدنية الزراعية الأولى.

* * *

أما في مصر فقصة مشابهة. أوزيريس هو أوزير + ياء المتكلم المفرد وربما كانت السين هي المتكلم الجمع أي سيدي، سيدنا. وكان أوزيريس في الألف الرابع إله الطبيعة وروح النبات وإله الأموات وإله القيامة والبعث. لما توفي والده أي صعد من الأرض إلى السماء، خلفه أوزيريس وأخته ايزيس = السيدة = ستّنا = على عرش الملك. وربما تزوجها على عادة قدامى المصريين. ونجحا في حكمهما. إلا أن أخاهما سيت حسدهما فاغتال أخاه أوزيريس، وألقاه في النيل. إلا أن المياه حملت النعش وتقاذفته الأمواج إلى شواطىء فنيقيا وألقته عند جذع أثلة صلبة الحطب. فنمت وهي تحتضنه. فلما كبرت الأثلة واشتد ساقها وعودها قطعها ملك جبيل ملكندر ليجعلها دعامة لقصره. فعرفت إيزيس بالأمر فتنكرت وجاءت إلى جبيل وعملت مرضعة لابن ملكندر الأمير الصغير. ولما تمكنت من ودّ أهل القصر كشفت هويتها وأعلنت غايتها فوهبها الملك جذع الأثلة فأرجعتها إلى مصر وبعثت زوجها وأخاها بعملية سحرية فانسحب أوزيريس بعد قيامته إلى حقول إيل = جنان إيل = مروج إيل = Champs Elysées = = حيث ملك على الأموات وعالم الموت. ويلفتنا تشابه أسطورة اوزيريس وايزيس مع آدون وعشتار، أي مع هاي تاو.

أما أوزيريس فقد كان في البدء إله الزراعة وكان يموت ويبعث سنوياً، ويقتله سيت جنّ الموت والقحط. وكانت إيزيس تندب أخاها ندباً مؤثراً = مثل عشتار = ومثل الخنساء = ومثل المجدلية في قصة قيامة المسيح =.

وبعد، فكما أن المسيحية انتشرت في سورية ومصر والجزيرة والحبشة في وقت واحد وبزخم متشابه، وكما أن الإسلام قد انتشر كذلك في الجزيرة ثم في سورية ومصر، فكذلك انتشر من قبلهما دين آدون في جوهره وأكثر تفاصيله وإنْ مع اختلاف في الأسماء ولكن مع تشابه في المعنى تبعاً لاختلاف اللغتين في نيغا جبيل سورية وفي مصر. وثمة من يرى إمكانية قيام وحدة سورية ـ مصر خلال الألف الرابع بقيادة سوريّة، مع افتراض أن يكون أوزيريس قائد التوحيد أو أحد قادته البارزين، وأن يكون آتياً من جبيل أو من مواليد جبيل، فلما قتل أو مات نقل ودفن في جبيل في تابوت من خشب الأثل أو الأرز. فتحيّكت الأسطورة مع الزمن وتزايدت ورست واستقرّت في النصوص المصرية مع زيادة تمصّر تبعاً لاستقواء مصر حتى ارتقى أوزيريس إلى إله مسكوني وأصبح رمزه شجرة صنوبرية هي زد = Z =. وشجرة الزد غريبة عن مصر ولكنها استوردت من لبنان.

قرطاجة والمرأة

من أهم مقاييس الحضارة والمدنية التشريعات النسائية وحقوق المرأة والرجل وما هو حظّ المرأة والعاجز والطفل واليتيم، والمتخلّف والمعاق، وما هو دور المرأة الحقيقي في الأعراف أيضاً وفي التقاليد والحياة اليومية. بالمختصر هل هي جارية عبدة مملوكة قنّ هامشية أداة متعة واستغلال وتوليد أمْ هي الأمّ والأخت والزوجة والكنّة والحماة وشريكة روح وجسد وحبيبة وصديقة وحلال وحرام ومخلوقة بشرية متساوية في الجوهر مع الرجل فيما تقدر عليه وفيما تعجز عنه وفيها ينبغي أن يُبذَلَ لها من ودّ واحترام ومعونة ووفاء؟! هل في وضعها في بيت أبيها رياء حولها وخداع؟ وفي بيتها الزوجي هل هي ملكة أم خادمة وأسيفة.

فماذا كانت المرأة في قرطاجة؟.

كانت المرأة في قرطاجة كما في جميع المدنيّة الفنيقية والحضارة السورية الأمّ. فهي إذن حرّة وغير مستعبدة قانوناً ولا شرعاً، وهي غير محتقرة عرفاً وتقليداً. ومعرفتنا بالمدنية القرطاجية تُعلمنا أنه كان للمرأة مركز مرموق في المجتمع والعيلة والمدينة، وإلّم نعرف هل تدخّلت في السياسة العليا وفي مجلس السّفاط والمراتب المدنية والإدارية السامية.

المرأة القرطاجية، كما في المدنية الكنعانية جميعاً هي ملكة غير متوجة في بيتها، زينة فيه وأمّ حاضنة مرضعة مربية، رفيقة عمر وشريكة مصير مستشارة ومكرّمة، زميلة بأساء وضرّاء والأيام الحسنى، وتتقاسم فرحاً وترحاً وهموماً واعتزازاً. وكانت كما لا ريب فخورة بذاتها وبقومها ضنينة بكرامتها بخيلة بخلّها المستحبّ كتومة لسرّ كاظمة لمرارة الأيام

ومحترمة لحرياتها واسمها ونسبها. ويبدو أن طبقة منهن قد قمن بأدوار دبلوماسية دقيقة وراقية.

أكثر ما نعرفه عن الفنيقية والقرطاجية فبفضل المراجع والأقنعة والتماثيل والمقابر وأدوات الجنائز وشعائر الموت. وما كانت أصلاً بغريبة أم بمفرّقة عما هي أمها وأختها في الساحل السوري.

وأصلاً أصلاً فالمرأة الحميرية الحضرمية الكنعانية مشهورة بأنها جميلة أقرب إلى الطويلة ناعمة مهضومة متكبرة ذكية، أخت الرجال أشبهية، شاعرة ومتأدبة، تتقن مهماتها وتتعلّمهنّ كامرأة زوجة أمّ وفيّة مخلصة متباعدة عن الخنى والزنى، شغيلة رياضية فارسة. جميع المدنيات المجاورة طلبت الحضرمية اليمنية الكنعانية السورية لثقافتها وجاذبيتها وجمالها وحلاها وهضمها كما لعقلها الواقعي ومنطقها الباهر وغنائها وحماستها وغيرتها في أوقات الشدائد وشجاعتها. الإمام عليّ بن أبي طالب كتب إلى معاوية يهدّده إبّان خلافهما المشهور أنه سيقاتله برجال قلوبهم كقلوب النساء جرأة وثباتاً ووفاء. ولسن بقلائل نساء في المشرق الكبير لعبن أدواراً في حكم أم رئاسة وقيادة وقيدومية: بلقيس سميرامبس إيليسا زنوبيا عروبة (أخت قدموس)، عشتار، نَسَب أمّ فخر الدين أمّ سَلَمة زوج النبي، خديجة عائشة سكينة خولاء بنت الأزور شجرة الدرّ، وجميع ربّات الفنون وجنّيات الشعراء وعرائسهم.

النوميديون كانوا يفخرون بمصاهرة قرطاجة. ما من أمير أو ملك محلّي أو شيخ ناحية إلا وتمنّى أن تكون أمّ أولاده قرطاجية. صفيّة = صوفونسب = تزاحم لأجلها صفاقس ومازينسّا واخترىت الأرض لأجلها. آخر ملكة غير متوجة على قرطاجة، رمز الكنعانية المجاهدة، زوجة عزروبعل انتحرت على الأسوار وقفزت في أتون اللهب كي لا تقع أسيرة سبيّة في أيدي همج روما.

المرأة القرطاجية لم تعرف حريم العثمانيين ولا منخسة النساء، ولا التبعية التي تجعلها في دونية واستعباد. بل هي حرّة تدير بيتها وعيلتها، وتقوم بواجباتها الاجتماعية وتخرج من بيتها وحيدة غير تابعة، بل مسؤولة كريمة تزور وتزار وتشتغل علناً وتنتج وتدير مؤسسات، وتسافر وتسعى وتقرّر. وليس من دليل على تزنّخ الرجل من المرأة ولا احتقار لها في قرطاجة ومشعّها. فلا هي أدنى قدراً ولا هي دون المكان الأجلّ ولا في رتبة محتقرة.

وما من عائلة راقية في حوض المتوسط جميعاً إلا كانت تفخر أنها تـدبّرت مـربّية أو معلّمـة فنيقية لأولادها أم زوجة وكنّة.

وما من دليل على فنيقيات بغيّات يعشن من أمتهان المتعة والبغاء. بـل زوجة نعم، صالحة مشهورة بتشدد أخلاقي وبمسلك متعفّف وبصرامة رادعة إزاء تصرّف نشاز. نسبها انتماؤها هويّتها مصاهرتها، خميرة البركة على عتبة بيتها الجديـد والعتيق، إدراكها الـواعي أنها من أرقى أمم المسكونة وأكثرها ثقافـة، مَنَحنَـها نعمة الثقة وحصانة الحكمة ووجداناً يقظاً ورادعاً.

أما الشجاعة والعصبية القومية، وحسّ المصير المشترك فمثـاله أن نسـاء قرطـاجة تنـادين إلى نذر فقصصن شعـورهن وجدلنـه حبالاً لـلأسطول في معـركة الكـرامـة ضـد الهمجية الرومانية الطاحشة على المدينة العظمى. وقدّمن جواهرهن وحلاهن لبيت المـال. وقاتلن حتى آخر رمق حتى الإرتماء في النار المقدسة ولا الاستئسار للهمج.

القرطاجيون العرب
مدنيتهم وفنونهم

إنه لصعب وشائك وخطأ أن نقرأ وننتقد العصور القديمة ومجتمعاتها ثم نفسّرها بمعجمية معاصرة وبمعانٍ ومفاهيم متأخرة. فإذا شرحنا البنية الاجتماعية في قرطاجة توجّب أن نتكلم عنها بالنسبة لزمانها وأن نحمّل الكلمات معانيها الملائمة لعصرها. وإلا ارتكبنا شططاً وبخاصة إذا كان بين الزمنين فارق تقني جوهري ورتبة تكنولوجية متطورة بسبب مآتي العلوم.

* * *

أين كانت قرطاجة من التصنيع؟.

الدرجة التي وصلت إليها الصناعة في قرطاجة لم تعد مرحلة حِرَفية ولا كان الصناعيون حرفيين فقط.

الحرفة والحرفيون كانوا موجودين لا ريب كما في جميع المدنيات المشرقية والقديمة، ولكن كان ثمة شيء آخر أكبر من الحرفية وأقل من الرسمالية إذا كان يمنع علينا أن نستعمل الصفة لإنتاج ليس يعتمد آلة ميكانيكية.

ولكن. . .

إذا لم يكن في قرطاجة أدوات ميكانيكية فردية وجماعية ولا صناعة وتصنيع وفبارك للبروليتاريا بالمعاني المعاصرة، إلا أن المدنية القرطاجية عرفت اقتصاداً يملك فيه صاحب العمل أدوات الإنتاج «غير المنقولة» كالأرض والبناء والأدوات الثقيلة والامتيازات وحجّة

الاختراع والشهادة والعتاد الثابت، وعتاداً متحركاً وعتاداً عائماً والأنعام والماشية وأدوات الزراعة وحيوانات الجر والحمل والشدّ والقوافل والنقل. وثمة سفن النقل والأحواض وعمالها وطواقم السفن.

وإذا لم تنشيء قرطاجة أفراناً كبرى لصهر المعادن مثل الرور وسانت اتيان وديترويت في زماننا هذا إلا أنه كان فيها صناعة ثقيلة وأفران ومصاهر. وقبل اختراع المهراس الكبير كان ثمة مطاحن وقوالب بأرقى وأتقل ما عرفت أم سمحت مدنية ذلك الزمان. وكانت المناجم مجهزة بعتاد الاستخراج والنقل والتحويل حتى المصهر والمعالجة التقنية. وأما وسائل النقل فكانت محامل وعربات وسقالات يشدّها أو يدفعها أو يجرّها الفيل والجمل والبغل والكراع والخيل والحمار والثور والجاموس.

فصاحب العمل إذن = منفرداً أم عيلة أم شراكة = كان يملك الرسمال والأداة والمؤسسة لاستئجار العمل والمهارة والمعرفة والخبرة وكان يحقق ربحاً فائضاً فيستغلّه في تطوير أو تكبير أو تجويد المشروع وإلا ففي مشاريع أُخَر. فالبنية الاقتصادية المجتمعية في قرطاجة كانت تشبه الرسمالية المعاصرة في أشياء كثيرة سواء في زراعة أم تصنيع أم تجارة أم غيرها. فلا يمكننا أن ننكر وجود رسمالية زراعية صناعية مع ملكيات استغلالية كبرى ومع تملّك كبير ومتوسط وصغير للأفراد. وقرطاجة كما نعرفها ونفسّرها كانت دولة إمبراطورية برية بحرية مزارعة وصنّاعة ومتاجرة. وكانت منظمة منضبطة، وجريئة مقحامة ومسالمة. وكان نظامها رسمالياً تعاونياً أبوياً. وكانت متديّنة. في الخارج كان أكثر تجلٍّ لقرطاجة على أنها سيدة أحواض البحر لبناء السفن وأنها سيدة تجارة المتوسط الغربي وأروبة الغربية وافريقيا المتواصلة من ليبيا وجبل طارق حتى وادي النيجر مع امتدادات جريئة ومقحامة حول افريقيا جميعاً وحتى دورة تامة تنتهي بحضرموت والسويس والخليج.

وفي الداخل تبدو قرطاجة جمهورية تقنيين صناعيين نسّاجين مزارعين مصرفيين رجال أعمال متعهدين كبار وصغار وصيارفة وجميع من تعجّ بهم عاصمة لدولة ومركز قطب الإمبراطورية. ولكنها إمبراطورية عمران وتعمير وليست تمارس الاستعمار على النهج الروماني القهري والقسري والاستعبادي.

القرن التاسع عشر حسب أنه اخترع التجارة وأصولها وفروعها والشركات الكبرى. ولكن العمليات التجارية والمؤسسات والمشاريع في قرطاجة والاستثمارات البرية

والبحرية والقارية، والأعمال التعدينية والمناجم والصناعة كانت على قدر متشابه من التعقيد والتشابك والتنسيق والإتساع لما هي عليه أعمال القرن التاسع عشر. الرؤيا الأعمالية في قرطاجة كانت بنت الجيوسياسة والتراث الصوري الفنيقي الحميري الحضرمي ومتفاعلاً مع العرض والطلب ومع تقبّل الشعوب للمعلّميّة القرطاجية وللتدبير الشامل والإدارة العليا لشؤون المنطقة والإنتاج والتبادل والأعمال الكبرى.

ولربما كان المستجد الأهمّ والفذّ في القرن التاسع عشر هو تكاثُر الممولين واتساعُ الصفة المجتمعية للمشاريع الكبرى وللشراكة في الأسهم وتقسيمُ الرسمال. إن ما يتحصّل من تجربة مدنيّتنا المعاصرة ومن حسبان تطورنا وتجويدنا لما كانت عليه قوانين قرطاجة وأعرافها وتقاليدها، ليس مشجعاً ولا مفضلاً إلى درجة اليقين. فكثيرون من علماء اليوم لا يفضّلون بتاتاً أساليبنا المستجدة وبخاصة انعدام رقابة أصحاب الأسهم بصورة مباشرة على نشاط مجلس الإدارة. فالسهم في معجميتنا المعاصرة كانت قرطاجة تسميه «حصة الفائدة» وكان كل مساهم قادراً كل أن يراقب مصالحه وأن يطّلع على إدارة المشروع العام. وإذا لم يكن في قوانين قرطاجة وأعرافها كما اليوم تجسيد مادي للسهم فإن التنازل عن حصة الفائدة كان ممكناً وعلنياً.

وبدلاً من الشركات المغفلة، كان عندهم الشركات المساهمة المشاركة، (شركات العائلات). وكانوا يعرفون الشركات البحرية، وأنواعاً معينة من التأمين والمشاركة الزراعية بالمناصفة أو المرابعة أو بالتسليف. وكان عندهم الضمان الموسمي للثمار والخضرة. إنها أساليب لا تزال حية في أماكنها بالذات تحت أسماء مثل: المغارسة والمرابعة والضمان. فكان الفلاح والمزارع وصاحب الأرض وصاحب السفينة يهتمون بنتائج جهدهم وعملهم، ويتقاسمون بحسب حصتهم من الفائدة والربح. كانوا يكسبون ويكتسبون.

وكانت قرطاجة تعرف كل ما يعرفه المشرق الكبير من شؤون الرهن على وثيقة الملكية، ورهن الانتفاع والرهن على الغلّة، وقروض البذار.

وكانت العملة متوفرة، فكان الدين سهلاً والفائدة قليلة.

التجار القرطاجيون كانوا يعرفون فضل التعاون. ونعرف اليوم أن خوارج المعزاب وجربة وفيقويق يتجمعون في تنظيمات تجارية ذات شكل تعاوني. وعمليات هذه التعاونيات لا تُكثر من الحسابات الرسمية، لأنها مؤسسة أصلاً على الثقة. قصدنا

تعاونيات الباعة المتجولين، شركات السوريين في افريقيا الغربية، تعاونيات الوهابيين في جدة، وتضامن الحميريين. وجميعهم تجار من مختلف الرتب، ومندوبون للبورصة والمضاربة. ونعرف التجمعات النقابية المائية في الواحات، ومؤسسات عتيقة جداً يدهشنا اشتغالها التام المنتظم والمناقبي والعادل.

ونعتقد أن جميع أو أكثر ما نعرفه اليوم من شؤون المال كان معروفاً منذ ثلاثة آلاف سنة في قرطاجة وثم عند من قبلها. ويبغي أن نقول إن تفرّق مصارفهم ومحطاتهم، وصعوبات المواصلات وبطئها، وتعقيد معاملات القطع والصرافة، كانت تستوجب اعتماد وسائل دين وقبض ودفع شبيهات بما عندنا اليوم.

لا ريب أنه لأجل معرفة القانون التجاري والمالي للرجال الحمر، ينبغي أن نعرف القانون التجاري والمالي لدى الصينيين. فإن تشابهات لا تحصى تبدو واقعة ما بين مدنية الشرق الأقصى المحصورة في السور الكبير والمدنية الأفريقية المحصورة في الأسوار الطويلة.

فإذا ما وصفنا النظام القرطاجي بالرسمالي فإنها لرسمالية فذّة وناجحة لأنها كانت خلواً، على أشد يقيننا، من أمراض الطفولة التي تعتبرها الماركسية ملازمة وعضوية وقدراً على رسماليتنا المعاصرة.

الرسمالية القرطاجية كانت سليمة، بدليل أنها لم تعانِ أي أزمة خانقة ولا انهياراً موسمياً ولا صراعاً داخلياً ولا أزمة إنتاج فائض ولا هبوطاً في الأجور وتسابقاً بين الأسعار والأجور. وليس بعلمنا أن قرطاجة عرفت التضخم الاقتصادي ولا أيّ وهنٍ يتصف به اشتغال النظام الرسمالي المركنتيلي الاستعماري المعاصر. لماذا؟.

لأن النظام الرسمالي القرطاجي لم يعرف المضاربة. لأن قرطاجة سادت وحيدة في عالمها. وكان مدى استثمارها غير محدود بتنافس مضاد، وزبائنها لا حصر لهم ولا نهاية. فكأن المسكونة كلها كانت لقرطاجة مدىً مفتوحاً ورحباً أي كأنها كانت ملكاً نظرياً لقرطاجة فلا يزال أمام الاستثمارات الحية والناشطة إلّا أن تتابع توسيع رقعتها بدون توقف. فقرطاجة إذن تشتغل بدون توقف ولا عائق، ولا تخشى تشبّع الأسواق ولا نقصان الزبائن ولا المزاحمة. وأسعار الإنتاج والكلفة والنقل كانت منسّقة في قرطاجة بحيث تنافس الاحتكارات الأجنبية بالتهريب. فالاقتصاد القرطاجي إذن، في الصناعة أم

في غيرها لم يضطر للجور على العمال والشغيلة ولا أن يخفض أسعار الكلفة للمضاربة في السوق العالمي، ولا أن يجوّع العمال أو يُحَنْتِفُ عليهم.

الرسمالية القرطاجية، في مطلقية سيادتها على سوق غير محدود، حققت النظام الاقتصادي الأكمل الذي يمكن حصوله سواء في الحصول على المواد الأولية أم أدوات النقل والتمويل أم أجهزة التوزيع أم في اعتماده على يد عاملة مكتفية حتى كأنها شبه شريكة ومدرّبة وواعية. إنها دمقراطية الاقتصاد المتضامن.

العامل الفنيقي كان اختصاصياً متقناً دَرِباً، منتمياً إلى «**صحابة الواجب**» أي إلى نقابة مهنته وحرفته، ومؤتمناً على أسرار لا يبوح بها ويضنّ بها ضنّاً أن يتعاطاها الرعاع والجهال والغرباء وأعداء قرطاجة وفنيقيا. ويظن أن هذا التنظيم السرّي المهني هو تراث فنيقي سوري حضرمي ذو علاقة بالبخور وصناعة السفن وأسرار الملاحة وأسرار البرفير والزجاج والبناء والهندسة وغيرها.

المعماريون الكنعانيون والنجّارون والقزازون والصباغون والنساجون وعمال المعادن كانوا عمالاً مهرة ومهندسين ذوي معرفة وعرفان وبحّارة عندهم علم الفلك والأنواء والتيارات المائية وأسرار الإنتاج والمواقيت والمسافات والأسواق والمقالع والوكلاء والمصارف والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة وطرق القوافل والكتابة والحساب والتحويل. والصناعيون الفنيون والموهوبون والعباقرة وأهل المعرفة والعرفان كانوا طبقة كالعلماء ودقيقي الإنتاج ومرتفعي الأجور نظراً لقدرتهم على الإبداع والاختراع. فكل «صاحب» منتمٍ هو متفقّه شريك ومؤهل للترقي إلى إدارة مشغل جديد أو لتأسيس ورشة عمل في أرض جديدة أو ليصبح صاحب عمل منضبط بأسرار مكتومة وبعهد لا يحلّه تنافس تجاري ولا خصومة ولا عداء.

الرسمالية القرطاجية كانت أشبه بدين مجتمعي قومي فني تقني ذي طقوس وأسرار وعهد وانضباط. وكان يتداخل فيها عنصر روحي صوفي قوامه أن السلم القرطاجي والرابطة القومية هما شأن مجتمعي تعاوني موحّد الولاء والانتماء. وكان يخالطه تقوى ايمانية مجتمعية مناقبية ومُثُلٌ من مكارم الأخلاق والفروسية والأمانة. فبين صاحب العمل والعامل عروة حميمة تشمل العمل والإنتاج وتتعدّاه إلى ذهنية عقدية وإلى ما يشبه التعاقد الصوفي مع النظام والوطن والأمة والحضارة. وهنا نعيدكم إلى الجمهوريات البطركية في المعزاب وجربة وجدّة على البحر الأحمر وفي حضرموت وصور وصيدون وفي مالطة.

هذه الرسمالية القرطاجية البطركية التعاونية الناميـة في حرية وأخلاق وإيمان، والمحصّنة دون أزمات الأنظمة الرسمالية من قبـل ومن بعد، كـانت تواجـه في روما اقتصـاداً يقتصر على مداينين وعلى الربى البسيط والمركّب وعلى ما يولّده هـذا النظام من استعبـاد المفلسين ومن جور المرابين الذين تحميهم قوانين الدولة الأرستقراطية.

رومـا كـانت خلواً من أي مشروع صنـاعي أو زراعي كبـير ذي مقيـاس قـارّي أم مسكوني، وكان المـال الناتـج عن الربـا والغزو يتلف في الـترف أو يستثمر في إنشـاء فرق جديدة لغزوٍ جديد.

* * *

روما لم تنتج شيئاً يذكره التاريـخ، حتى تاريخهـا ذاتاً، واقتصر عملهـا على استنفـاد وتبذير ثروات منتَهَبَة من حروب اعتداء وسيطرة. وروما كـانت تدفـع نقداً ثمن كـماليات تعجز عن نهبها، فأنهكت ميزانها التجاري وظلت حتى في أوج عزّها عاصمة غير منتجـة، وأخطبوطاً يمتصّ خيرات الإمبراطورية. فنحن إذن إزاء مدنية اقترضت حضـارتها وقيمهـا وثقافتها من قرطاجة وكنعان ومن اليونان والهلينية بدون أن تستـوعبها أو تهضمهـا وبدون أن تعي القيم الحضـارية الـروحية والخلقيـة التي تسيّر وتهيمن وتصـاحب عملية التـطعيم والامتصـاص بـين الحضـارات والأمم. وتشريعها لم يكن بقصـد عـدالــة بـل لاستكبـــار واستعمار.

لذلك كانت عملية تدمير قرطاجة على يد سيبيون الحاقد جـريمة غبيـة خربت ألفي عام من مسيرة التاريخ البشري ومن خبرة حضارة أصيلة وراقية.

وهكذا اقتصر «مجد روما» و«حضارة روما» على خراب وتدمـير وعلى أكيـاس عبّأهـا عسكر اللجيون منهوباتهم ومسروقاتهم من بيوت قرطاجة التي أحرقوها بعد تفريغها، ومن نهب الشعوب جميعاً.

يـقال أن هانيبعـل، عشية زامـا، في مفاوضـاته مـع سيبيون قـد عرض لـه الأمر الحضـاري وشرح عن الخسارة الفـادحة التي ستمنى بهـا البشرية إذا اختفت قـرطاجـة أو أذلت لصالح همجية رومانية عاصية على التحضّر الحقيقي. وبرغم أن سيبيون كـان مؤهلاً لفهم مشروع هـانيبعل إلاّ أنّ رؤيـا العالم الـوحيد القـطب كانت تسيـطر على ذهنـه وعلى أذهان النخبة الرومانية المعقّدة من التجربة القرطاجيـة ومداهـا وأبعادهـا وقيمها. اللقـاح

الحضاري لم يكن له مكـان في الذهن الروماني. وان مقـارنة تـاريخية لهـذا الموقف الفـجّ والبدائي مع مـوقف الفتح العـربي الإسلامي إزاء بيـزنطة وفـارس لتوضـح المفارقـة التي نتقصد شرحها. ولعلّها كافية لقوم يعقلون.

الباب الرابع

صراع حضارتين

بدأت المبارزة بين قرطاجة وروما. الدولتان الأقويان التوسّعيتـان في غربي المتوسط تتواجهان. قرطاجة أصبحت بحجم إمبراطورية وروما تنمو بسرعـة متفجرة. إنـه لصراع بين شرق وغرب، يقولون تحـريضاً، فيشعـر الأوروبي بدمـه يغلي، ويتحيـز لرومـا، بطلة الغـرب، ضد قـرطـاجـة الـذئب الكـاسر، الفنيقي العـربي الـطمّاع. . . ويـدور النفـاق المصطنع.

هكذا يبسّطون التاريخ، وهكـذا يشوّهـونه. وكم في الغـرب سألـوا وتساءلـوا هل أروبـة المعاصرة المسيحيـة هي الغربيـون ذاتاً الـذين حملت روما لـواءهم؟ وهـذا الغـرب المعـاصر، وحضارتـه هل هـو رومة ريغـولوس؟؟ إذا أردنـا أن نعرف مـا هي رومـا أيـام الفنيقيين فينبغي أن نختزل وأن نطرح من الحضارة الغربية المعاصرة عناصر متعددة.

ماذا ينبغي أن نشحّل ونختزل؟؟.

الغرب أيام ريغولوس وكـاتون هـو أروبة إذا شحّلت منهـا: اليونـان، أي هومـير، وسقـراط، وأفلاطـون، وطاليس وبـريكليس، وفيثاغـور وبراكسيتـل، وجميع مغـامراتهم الروحية والفكرية واكتشافاتهم التي جعلت العالم أرقى وجهّزته على خط الحضارة السورية الأم لتقبّل الحضارة السورية المسيحية ثم الإسلامية.

روما ريغولـوس وكاتـون لم تكن تعرف، ولا تـريد، شيئـاً من تلك الهلينية. رومـا كانت تبغض العالم اليوناني والثقافة اليونانية: فلما استولى القائد الروماني بومبيوس، العام

146/ق.م. على كورنتوس البديعة، أحرقها وباع سكانها عبيداً أرقاء في السوق، واستولى بقبضته الهمجية على لوحات أبلّي Apelle وعلى تماثيل فيدياس، ودمّرها جميعاً. ولما رأى القائد الروماني أن ملك برغام يدفع مبلغاً عالياً للوحة قال: «**ينبغي أن يكون لهذه اللوحة قوة عجائبية**» وبعث بها إلى روما. وكان هذا القائد إياه يقول لمتعهدي نقل هذه الأشياء إلى روما: «**إياكم وإتلافها، وإلا حكمت عليكم بإعادة تصويرها**».

إذن، فلنطرح ونشحل كل مآتي الحضارة الهلينية وعطاء اليونان وما كان فيهما من مواريث سابقة متحدّرة من الحضارة السورية المعلّمة!

ولنطرح أيضاً من أروبة:

= شرائع المدينة وقوانين صولون وليكورغ.

= وشيئاً بسيطاً آخر: فلنطرح المسيحية وجميع مدنيات المشرق التي ساهمت في صنع أروبة.

هل نقدر؟ هل يعقل؟ وماذا يبقى؟ ماذا يبقى بعد أن نطرح الأناجيل والعقيدة وألفي عام من ممارسة الإيمان والطقوس والقيم المسيحية، ومن طرق التفكير والشعور والتألم والرجاء والحب، وأثر اسبانيا الإسلامية، أي كل ما كانت روما ريغولوس تجهله كلياً وبالمطلق.

إذن، نطرح الهلينية والمسيحية، ونشحّل سقراط، والمسيح، والأندلس الإسلامية وغرناطة والحمراء وجميع ما علَّمَناه المشرقُ طوال 3000 عام قبل المسيح، ثم تأثير بيزنطة والنهضة، وجوستنيان وشرائعه بعد شرائع حمورابي ومن قبلهما، وما استفاده الصليبيون في سورية، وأخويّات الفرسان، والحج، وما أخذناه عبر اسبانية والبرتغال من الإسلام من علوم وفنون، وما استقيناه عبر البندقية ومدن ايطاليا. وهلّا أضفنا التأثر والتخلق والاستيحاء، التي تفوق الاحتكاك المباشر أحياناً؟؟.

يقول غوبينو Gobineau:

«جميع ما نفكر به وجميع مناهج ومسالك تفكيرنا، أتت إلينا من آسيا».

إذن، إذا شحلنا من الغرب الحالي إيمانه وأخلاقياته وفلسفته وفنونه وأمجاده وعلومه، وكل تفكير، نفهم أي روما واي كاتون وأي لجيون يواجهون قرطاجة.

إليكم وصف كاتون بقلم بلوتارك:

«كاتون رجل أشقر أصهب، عيناه زرقاوان، هيئته همجيّة، ونظرته تتحدى الصديق والعدو معاً. اسم عيلته بورشيوس (مربي الخنازير). وكان يقظاً في طفولته فأسموه كاتون. في السابعة عشر من عمره خدم في الجيش ضد هانيبعل. ثم راح يشتغل في مزرعة ملاصقة لمزرعة مانيوس كوريوس، قاهر السمنيين. في الصباح كان يمارس مهنة محامٍ في قرى منطقة توسلكولوم. ثم يعود فيتعرى كلياً ويفلح مع عبيده ويأكل معهم ويشرب الماء، مثلهم، والخل والخمر. ولم يكن سيداً لطيفاً.

«ألّف كتاباً في الزراعة، فقال فيه: «ينبغي على رب العيلة أن يبيع الزيت أيام سعره، وما زاد من خمر وقمح. وليبعْ ثيرانه القديمة والعجول والنعاج والصوف والجلود والعربات القديمة والنضوات المستعملة، والعبدَ الكهلَ والعبدَ المريض وكل ما يمكن أن يباع! على رب العيلة أن يكون بياعاً لا شارياً».

وعن اليونانيين كان يقول:

«سأتكلم عن هؤلاء اليونانيين بالاسم والمكان، كما شاهدتهم، يا ابني مرقص. سأقول ما شاهدته في أثينا:

«قد يكون حسناً أن تتعرف إلى فنونهم، ولكن بدون تعمق فيها، ولسوف أبرهن هذا الرأي. أنهم العرق الأكثر فساداً في الأرض، والأسوأ تعاملاً. وكأنني أتلقى الكلام من وحي فوقاني: إذا أصدرت لنا هذه الأمة فنونها ستفسد كل شيء. والأسوأ لو أرسلت إلينا أطباءها. لقد أقسموا وتعاهدوا ما بينهم أن يبيدوا، بالطب، جميع البرابرة حتى آخرهم، ولا يتقاضون أجورهم على مهنتهم إلا لكي يقتلوا على هواهم بعد أن اغتصبوا من الناس ثقة وتأميناً. ونحن أيضاً يدعوننا برابرة ويهينوننا أكثر من جميع الشعوب».

ويصف بلوتارك كيف كان كاتون ظلّاماً لعبيده ويحرّش ما بينهم الفتنة والعداوة، متخوفاً من ذكائهم ونتائجه. وإذا ارتكب عبد جريمة تستوجب القتل كان يحاكمه أمام الآخرين ثم يعدمه أمامهم».

ويقول عنه: «من حبه للمال حباً جماً، أهمل كاتون الزراعة التي رآها بالحري تسلية لا مصدر غنى، فعمد إلى تثمير أمواله في ما هو أثبت، فتعاطى الدين والربا، وأسوأ أنواعها الربا البحري، وكان يتاجر بالرقيق، فيشتري الصغار ويعلّمهم ويدرّبهم ثم

يبيعهم بالربح. وكان يدرب ابنه على هذه التجارة السمجة ناصحاً إياه بأنه لا يليق إلاّ بأرملة أن تنقص أموالها».

الروماني آنذاك هو المتهافت على الغنى، القاسي، الظالم، المتجبر. وحش طامح بالمجد العسكري وبالمال. ذلكم هم عدو قرطاجة: تاجر بدون روادع، جندي فظّ، سيد ظلاّم لعبيده، محتقر لكل ثقافة أو علم أو فن. وبرغم ذلك يغضب أن صُنّف بين البرابرة.

هذا هو كاتون. وكغيره من جيله كان يقتدي ويتمثل أولئك القدامى الذين زينت الأسطورة صورتهم ورفعتهم إلى أعلى عليين.

صفتهم الغالبة هي التكبّر. دينهم هو مجدهم، وأن لروما قدراً ينبغي أن تحققه. والرومان هم جنس الأسياد، وروما دوماً على حق. فكل تمرد على روما هو جريمة أينما كان.

تكبر جماعي. تكبر فردي. لعنة على الذات والسوى.

تينات كاتون - هدّموا قرطاجة!!

Delenada Cartaga

نحن في العام 127 ق.م، حوالى أواخر الصيف.

يقال (؟) إن كاتون، الشيخ الروماني، جاء يومها إلى قرطاجة فشاهد البحبوحة والثراء الموزّع والفرح في تصرف الناس والثقة والأمن. فأزعجه هذا الإيمان القوي المنتشر، وأن المال ليس دُولةً بين طبقة واحدة، كما في روما، فكبت غضبه من هذا العبق الاجتماعي المنتشر ودار يتفرج على أكداس الفاكهة والخضرة والسمك واللحوم، وازدحام الناس في الشوارع والأسواق، وفي العنابر والمرافىء، وتيقّن أنها ممتلئة سفناً وبضاعة تعجّ بالأعمال والبيع والشراء. فازداد حنقاً!!.

اشترى كاتون عدة تينات ناضجة حلوة. شهيّة ملوّنة عسلية. وانطلق للتوّ إلى روما!! وراح يعرض تحت أنف الناس وبصرهم وأمام زملائه شيوخ روما هذه التينات

المكتنزة الشهية والسليمة برغم السفر والنقل. وحكم أنه لا يجوز أن يجاور روما مدينة غنية بهذا المقدار ومنظمة ومزدهرة وفيها مثل هذا التين، برغم انكسارها أمس.

إذن، ينبغي، ولا بد، أن تهدم قرطاجة.

قصة التينات، دون اللعنات، هي من تأليف المؤرخ ميشلى «التاريخ الروماني». ولم نؤلّفها نحن، وقلّما نصدقها.

لسنا نصدقها لأنه كان أمام كاتون رجل الدولة الكبير والحقود، أشياء أخرى في قرطاجة أهم وأشد رمزاً إلى ازدهار قرطاجة. رجل مثل كاتون قد توجّه لا ريب إلى سوق العملة والصيرفة والمعادن الثمينة وسوق النقد في قرطاجة، وإن يكن أكل تيناً شهياً. الشارع صغير ضيّق مزدحم وأكثره من الأجانب. وإن بقدرتنا، ومن واجبنا، أن نعرف ونتصور ماذا حدث. فالشيخ الروماني حلّ عقدة من عبايته وأخرج قطعة نقدية رومانية حديثة الإصدار وطلب صرافتها. فراح الصيرفيّ الفنيقي يروزها ويفحصها ويعضّها ويقلّبها ويحكّها وينظر إلى كاتون ليتفحصه أيضاً، ثم هزّ رأسه وتمتم مشفقاً وقال، أو ينبغي أن يكون قد قال:

«عملتكم خفيفة هذه الأيام».

هنا يعقر الجلال. هنا ينغر السرج. هنا يجرح النير. ماذا ؟؟ روما هي المنتصرة أمس، وهذا الصيرفي العادي المغلوب يستلشق بعملة المنتصرين لأن عملة قرطاجة المغلوبة أقوى، ودولية، ومقياس ومعيار!!.

في روما المنتصرة أمس تتضخم العملة بدون رادع، والمعيشة تغلو، والديون تتكاثر، والفائدة تتدنى، والدولة مديونة، والمصارف تهتز. وقد تفلس الدولة.. إن كاتون رجل الدولة عضوو مجلس الشيوخ ليعرف مأساة روما، وماذا داخل الرخام المصقول. فإذا به يرى في قرطاجة ما يرى، ولا تكفيه كمشة عملة رومانية ليتغدّى لدى عدوّ مغلوب لكنه مزدهر شبعان ويشتغل بدون بطالة، ولا يلحّق طلبات العملاء الخارجيين. وإن كثيراً من هؤلاء الزبائن رومان. فما هذا النصر الكاذب اذن، ولماذا كان؟ وحتّام يظل المغلوب يحتكر التجارة الدولية ويصرفها هو في الأسواق المالية والعالمية؟ إن ذلك لأهم من التينات العسليات.

لا. لم تحتل روما العالم لكي تلغي الصيارفة والصرافة ولكنها، إزاء كسادها لدى

ذاتها ولدى الناس والعالمين، راحت تخطط لكي تنتقم من نصرها المنقوص.

هدِّموا قرطاجة!!

ولكم يشبه وضع روما وقرطاجة ما هو حاصل سراً اليوم = في التسعينات = ما بين أميركا المنتصرة وبين ألمانيا واليابان المكسورتين، وحتى مع أروبة المنتصرة المفلسة. ومن يدري كيف ستنحلّ الأمور؟ ونتفهم أيضاً أسرار حرب أميركا على العراق والتهديم المسعور لأمّ الحضارات.

روما وقرطاجة: تناقض مفتوح وحرب محتمة

اللجيـــون

الروماني جندي. وجندي ممتهن.

يدرّبونه. يسلّحونه. يحمونه. يؤمّنونه.

شجاع كغيره. لكن الحرب ليست شجاعة بل انتصار. الحرب خدعة وانتصار.

السلاح الدفاعي أولى من الهجومي. يقـول تاسيت إنّ الـروماني يعـرف كيف يقي نفسه.

أنّ يُقْتل لا يقاتل!!.

همّه المتواصل إذا بات أن يكون المخيّم حصناً كقلعة، ومحروساً. وذلكم أعظم فنّـه الحربي. ترسه ثقيل ولكنه متين. سيفـه قصير ولكنـه قاسٍ صلب. الجنـدي الرومـاني مسلح للدفاع والمقاومـة. أمّا اللجيـون فقد أنشئت تتقـدم. اللجيون ـ الفـرقة ـ هي الكتلة التي يـرصها ويبنيهـا هؤلاء الرجـال المسلحون بـالسيوف القصـار والـذين يتـلازّون كـالبنيـان المرصوص. اللجيون هي رصّة من تروس وخوذ، وهي معتصم وحصـار يتحرك كـالآلة. فلا حاجة للقيمة الفردية، ولا للمبادرة الفردية ولا حتى للشجاعـة. المهمة الأولى هي أن تحافظ على مـركزك في الصف، فتمر الفرقـة أينها كـان بدون أن يُنـال منها. لقـد احتلت نصف شبه الجزيرة، وهي مكنة جهنمية تستعبد الأقوام التي تجتاحهم. الفلاح الروماني لم

يعـد يفلح، ولكنه يفلّح عبيـده. مهنته ربّيحـة. والأرقاء الـذين لا ينفعون لأنهم فنّـانون موسيقيون مصوّرون نحّاتون وفلاسفة فهؤلاء سلعة للبيع.

الحضارة لروما وللروماني هي أسلاب.

في روما لا صناعة ولا تجارة. روما مؤسسة فتـوح وغزو ونـزو ونهب. والآلة دقيقـة طيِّعة. روح روما هي إرادة الحرب.

روح قرطاجة هي السلم. والسلم بأي ثمن. السلم اللاّبدّ منه. السلم الذي يـوفّر الجوّ للعمل للصناعة، للثراء، للتجارة للتبادل، للعيش الهنيّ.

تناقض مفتوح وحرب محتّمة.

صراع فكري وتشويه مقصود

يقول الزعيم انطون سعادة في مواقع متعددة من كتابه «الصراع الفكري في الأدب السوري» ما يلي وما معناه:

«لقد تعاون الأغريق والرومان على غمط سورية حقّها في الإبداع الفني وقيادة الفكر الإنساني.

وكم مجّد المؤرخون والدارسون عظمة الأساطير اليونانية وعظمة اليونان فيها هذه الأساطير يعود معظمها أو أهمها إلى سورية! . فأساطير سورية كثيرة منقولة بحذافيرها تقريباً إلى الأساطير الأغريقية، والعالم يعيّرنا بأننا نحن نقلنا عن الإغريق.

العالم مديون لنا بفلسفات جليلة ويقول اننا جميعاً = نحن وهم = مديونون لليونان فقط.

أما شيفر فيقول = «لقد نشأ في سورية مؤلفون وفلاسفة عظام لثلاثة آلاف وثلاث مئة سنة = 3300 = خلت.

* * *

مَن هم هؤلاء الفلاسفة؟؟.

مِن هؤلاء الفلاسفة العظام زينون السوري المولود في لارنكا قبرص. وهو واضع ومبدع أسس الفلسفة الرواقية، وهو «أنبل رجل في عصره». وقد رفض الهوية الأثينية

التي عرضت عليه لشرفه ونبله ومجده. وظل معتزاً بهويته الكنعانية الفنيقية وبانتسابه إلى شعبه.

* * *

ويقول اميل برهيى في كلام له عن الفلسفة الهلينية والرومانية:

«بقيت أثينا مركزاً للفلسفة ولكن ليس بين الفلاسفة الجدد أثيني واحد ولا حتى اغريقي واحد من البر اليوناني الأصلي. بل جميع الرواقيين العظام والمشهورين في القرن الثالث نبغوا من الأمم الآخذة بالهلينية الثقافية إضافة إلى مواريثهم الأصلية. إنهم فلاسفة التخوم. زينون مؤسس الرواقية كنعاني ولد في لارنكا قبرص. وفي هذه المدينة ولد أيضاً تلميذه برسيوس. أما الركن التالي للرواقية فهو كريزيبوس المولود في طرسوس/ كيليكيا/ سورية. وفي طرسوس هذه ولد ثلاثة من تلاميذ كريزيبوس وهم زينون (غير المؤسس الأعظم) وإنتباتر وأرخيدامس. وأما الجيل الرواقي التالي فقد نبغ فيه ديوجينس البابلي وابولودورس السلوقي الكلداني.

ومن أشهر الذين بقيت لهم آثار كتابية من تلاميذ زينون الرواقي أفيكتات السوري المولود في منبج حوالى العام 50 ب.م، والمتوفي حوالى 130 ب.م.

ومن أشهر الفلاسفة السوريين الرواقيين باسيليوس الأصغر المولود في بيسان فلسطين، وهو استاذ ومعلم الإمبراطور مارك اوريل الروماني الذي انتمى إلى المدرسة الرواقية.

وأخيراً يقول الزعيم سعادة في الدليل إلى العقيدة السورية القومية الاجتماعية ما يلي: «الحقيقة ان من أهم عوامل فقدان الوجدان السوري القومي الاجتماعي، أو من عوامل ضعفه، اهمال النفسية الحقيقية للأمة السورية، الظاهرة في إنتاج رجالها الفكري والعملي، وبما خلّده سوريون عظام كزينون الرواقي». انتهى كلام الزعيم سعادة.

طوال ألوف السنين لم نعرف شيئاً حقيقياً مباشراً من الأدب الفنيقي. أول اكتشاف لنصوص فنيقية كان في رأس شمرا (الرأس الأحمر) بالقرب من اللاذقية في سوريا. هذا الاكتشاف العظيم يقوّي رجاءنا باكتشاف مماثل في قرطاجة يجعلنا نتحقق اشرة ونتيقّن من الأدب الحميري الكنعاني في المغرب. وإذاك ننتقد انتقاداً علمياً أقوال مموم والأعداء ونبرز الحقيقة القرطاجية للتاريخ وللحضارة البشرية الظمأى.

إن بإمكان المسؤولين أن يرسموا مخطط قرطاجة ما بين برصة والمرسى وسيدي بورسعيد، وأن يحفروا حفراً علمياً، فلا ريب أنهم سينبشون روائع تغير التاريخ بحقائقها. وأول ما سيتوضح لنا هو موضوع العبادات والطقوس، والأضاحي البشرية التي ألصقها الأعداء بالمدنية القرطاجية التي هي لونية لا ريب فيها من المدنيّة الحميرية الكنعانية أي من الحضارة السورية العربية الأمّ. ولماذا ستكون المدنية القرطاجية مختلفة جذرياً وحدها عن أمّها السورية التي نسلت مدنيات توائم متعددة، متكاملات متتاليات واحدة الجوهر ومتطورات في الزمن.

الموضوع الأزعج الذي يواجهنا في بحثنا في المدنية الفنيقية ولونيتها القرطاجية هو الأضاحي البشرية. في ضحى كل تاريخ من تواريخ الشعوب والأقوام والأمم نلتقي بالأضاحي البشرية. أهْول ما في هذا الأمر تضحية الأهل لأولادهم، والولد البكر بالأخص.

إنها التضحية الأصعب. وإنها للتهمة الأفظع التي ألصقت بالحضارة القرطاجية. فالإآله الأكبر مولوخ، البعل القرطاجي الملك، يفرض أن يخصّص له الابن البكر من كل بيت، على ما للبكر في كل بيت وحضارة وقوم من محبة خاصة.

ويقول مؤرخو قرطاجة من أعدائها أن الشريعة القرطاجية الدينية كانت تفرض على الوالدين ذاتاً أن يقدّما «الضحية» إلى الإآله الدموي الهمجي!! ديودور الصقلي هو الكاتب المأجور الذي وصف طقوس التضحية. قال ان الإآله مولوخ القرطاجي كان صنماً برونزياً همجياً ذا ذراعين متحركين يتلقفان الطفل الضحية من يدي والديه وينقلانه إلى الحضن المشتعل المجمّر بوقدة جهنمية. فيلمّ الكهنة الرماد المتبقي من احتراق الطفل البكر ويعيدونه إلى الأهل في جرة. ويضيف ديودور المنافق أنه قد رأى في قرطاجة جراراً فنيقية تحوي رماد أطفال (في معبد تانيت). هذا الوصف كله من ديودور الصقلي.

فلو أن هذه الممارسات المدّعاة قد أبعدت إلى أزمنة قديمة جداً لكنا قبلناها بدون جدل. ولكن نشوء قرطاجة وتأسيسها وانطلاقها لم تكن مطلع حضارة من العدم ولا من جاهلية سابقة، ولكنه فصل من حضارة جلية موجودة راقية فاعلة ألفيّة في صور وسورية، وألفيّة قبلاً في حضرموت. والفصل القرطاجي كان قمة وتطوراً في أزمنة جلية جداً ولم يكن تقهقراً وانحلالاً في الحضارة السورية الأمّ ولا في اللونية الصورية الكنعانية.

قرطاجة التي يؤرخون عنها معاصرة لعهد هوميروس وللعصر الكريتي الذهبي

ولـزمان حكـماء اليونان وللمصريين المسكونيـين الإنسانيـين المتساهلين، وفيـما كان الـذين الفنيقي الراقي وطقوسه المنعشة والمعبّرة تغزو الجيران وتفتن الناس حتى لتقـوم فتنة. ومـع ذلك يصرّ المؤرخون الأعداء لقرطاجة على القول والإيحاء أن مدنيتها بكر ونسيج وحدها. ولكن الحقيقة الناصعة والتي لا تتحمل جـدلاً هي أن مدنيـة قرطـاجة هي امتـداد بديهي للمدنية الكنعانية وللحضارة السورية الأمّ بقدر ما امتدت المسيحيـة السوريـة الآرامية إلى قـرطاجـة فيما بعـد وبقدر مـا امتدّ الإسـلام السوري العـربي إلى شمال إفـريقيـا. فقصـد المؤرخين المرتزقة لدى الرومان هو أن يجعلوا العلة القرطاجيـة العضويـة جرثـومة كنعـانية حميرية سورية عربية تشمل الحضارة السورية الأمّ العظمى رمّة وجملة وتفصيلاً..

ولكن هذه التقاليـد الهمجية لم تكن يـومذاك ولا يـوماً من قبـل جزءاً من الحضـارة السورية العظمى ولا في أي من المدنيات الفروع المنبثقـات منها. وثم قـد ظلت قرطـاجة طوال ألف سنة من وجودها الحي تعود إلى صور ذاتاً كمرجعية دينية وحضارية حتى عندما تفوقت قرطـاجة عـلى صور قـوة وامتداداً وغنى. وحتى بعـد التهديم الـروماني لقـرطاجـة الإمبراطورية والمدينـة ظلت مدنيّتهـا فاعلة ألف عـام أخرى حتى الفتـح العربي والانتقـام لـ زاما البائسة الذكر. وطوال هـذه القرون وحتى اليـوم لم يقل مؤرخ صـادق متجرد ولا انـوجَدَ أثـر واحد من أي نـوع سواء في الحضـارة السوريـة الأم أم فـروعهـا التـوائم يؤكـد أم يوحي أم يشكك أنه كان ثمة تقليد تضحية الأبناء فعـلاً للآلهـة. وحتى أسطورة إبـراهيم واسحق لم يكن لها سابقة تاريخية أكيدة ولكن مغزاها الـروحي والمعنوي يتقصّـد التشديـد عـلى طاعـة ابراهيم لـربّه وعـلى إيمانـه القوي وعـلى الرحمـة التي تبدّت في ابتـدال اسحق الضحية بالخروف المرتَبَط بجانب المذبح. وهذا ما نعود نجد له صـدى في أنظومـة الفداء والصلب والقيـامة في الفكـر المسيكي كما في أسـاطير الإلـه الفنيق الفـادي المنبعث وآدون الإله الشهيد المنبعث وتموز المسيح المنبعث..

ومع ذلك يصرّ مأجورو روما أقلام العبودية والنفـاق من المثقفين المـزيفين والأسرى اليونانيين أنهم سمعوا أو شاهدوا أو أخـبرهم شهود عيـان عن حفلات تضحيـة قرطـاجية بالأبكار الباكين على أيدي والديهم إزاء مولوخ المشتعل والمستعر..

ويصرّ أقلام العبودية المزيفون على أن تاريخ قرطاجـة والكنعانيـين والحميريـين منذ قبـل مجيء أليسار إلى افـريقيا وحتى استشهـاد زوجة عـزروبعل أثنـاء الحصـار الـرومـاني

الأخير، كان يستضيء ويتدفأ ويندفع ويتحرك بنور ونار ووقود صلبها ومادتها أطفال أبكار ذكور يحرقهم أهلهم في حضن البعل مولوخ الهمجي.

ولكي ندرك المرامي القومية المعادية للحضارة السورية رمة، قبل وبعد، نـذكر أن هـذه الحملة لم تتوقف مـع انقلاب قـرطاجـة وانكسارهـا العسكري والسيـاسي. بـل هي المعركة الحضارية تتوالى لأنه إذا كانت قرطاجة قد انقرضت تحت معـاول الرومـان كدولـة فـإن حضارتهـا ظلت فاعلة حتى انتقم الحمـيريون مجـدداً في الفتح العـربي وقبله في غـزو الشعوب الجرمانية لروما الكافرة وتهديمها.

ومع ذلك، يتتابع الصراع الحضاري ضد سورية العربية الأمّ بدون انقطاع. وهذا هو ترتوليان (155 - 220 ب.م) المَتَلّتن يقول في IX Apologetique.

«في افـريقيا ظلوا يضحـون بالأطفـال علناً لـلإلّه سـاتورن. لـذلـك أمـر القنصـل طيباريوس بربط كهنة ساتورن إلى أشجـارالمعبد وصلبهم. وشهـودي على ذلـك جنود من بلدي نفـذوا أوامر القنصـل. ومع ذلـك ظلت التضحية الحيـة متواليـة بالسر. وإذا كـان ساتورن لم ينقذ أولاده ذاتاً فهل يرتقب منه أن ينقذ أطفالاً أجانب؟.

«لقـد كـان الآبـاء والأمهـات يغنجـون أطفـالهم لمنعهم من البكـاء، فيـما الكـاهن يذبحهم». هكذا نطق ترتوليان. وهذا أول ذكر للذبح.

وكيف بعد هذا الكلام تشكّون؟؟ ترتوليـان المسيحي واضح ومختصر ومفيـد. ولقد يُـظن أن ترتـوليان قـد حضر وشاهـد بنفسه عمليـة الذبح والتضحية العلنيـة والتضحيـة السرية التي يصفها بحماسة ووحشية. ولكن ترتوليان لا يقول إنـه حضر وشاهـد علناً أم سراً هذه الطقوس المرعبة. فدقّة وصفه إذن هي شأن عبقـرية انشـائية، ومميـزات لكاتب وخطيب. لذلك نرانا مدفوعين إلى البحث عن أسباب تغيير طقوس التضحية من الشيّ إلى الذبح.

ترتوليـان، في كتابـه، يبغي الدفـاع عن بني دينه المسيحـيين دون التهم المعيبة التي تلصق بهم. وما هي هذه التهمة؟ التهمة هي أن مسيحيّي قرطاجـة، ومسيحيين آخـرين في أماكن أخرى، متهمون بقتل أولادهم إكراماً لإلهم الجديد، المسيح عيسى بن مريم.

ولنذكر بالمناسبة أن الرومان قد اتهموا المسيحيين الغاليين (فرنسا فيـما بعد)، العـام 177 مسيحية أنهم يضحون بأولادهم لإلهم الدموي ثم يأكلونهم في القداس.

يقول ترتوليان المسيحي:

«يتهموننا أننا في أسرارنا العبادية نذبح طفلاً ونأكله، وبعد هذه الوليمة نرتكب الفسق والزنى مع أخواتنا وأمهاتنا بمساعدة كلاب مدرّبين يقلبون الشموع وينشرون لنا الظلمة. أجيبوني بحقكم، هل تريدون الخلود بهذا الثمن؟؟ بالطبع وبالتأكيد، لا. وإذا صدقتم هذه الأقوال فهل توافقون؟ وهل إذا وافقتم تقدرون على تنفيذها؟؟»

«فإذا صدقتم هذه الأقوال عن إنسان فمعنى تصديقكم أنكم أنتم أيضاً أهل لارتكابها».

«دعوني أتكلم عن روما: في هذه المدينة المتديّنة التي يقطنها سلالة أتقياء من نسل إينى Enée، ألا يُعبد جوبيتر ويسقى دماً بشرياً أثناء الألعاب التي تقام باسمه؟؟ أم تقولون إنه دم المسيحيين المحكوم عليهم بالموت بأنياب الوحوش، فليسوا إذن بشراً سويّاً!؟».

«فيا من ترتوون من دم المسيحيين كم من قضاتكم وحكامكم قد قتلوا أطفالهم في حين ولادتهم! إنكم لتضيفون إلى جريمة القتل وحشية الطريقة التي بها تقتلون المسيحيين: إنكم تقتلونهم بالجوع والبرد وتطرحونهم للكلاب فتأكلهم. فالموت ذبحاً هو موتة أسهل وأرحم... إنكم ترمون أولادكم، وتعرضونهم في الشارع لرحمة الأجانب وشفقتهم»(*).

تلكم هي الاتهامات السخيفة التي كان يرمى بها المسيحيون الأوائل. وترتوليان، في كتابه، يتقصد الدفاع عنهم ورد التهمة بأنهم يعبدون رأس حمار. يقول:

«بعضكم يقول إننا نعبد رأس حمار. تاسيت Tacite هو صاحب هذا القول.

ومنذ وقت قليل راحوا يمثّلون الهنا في هذه المدينة (قرطاجة) تحت صورة جديدة: لقد عرضوا لوحة وكتبوا عليها «إلّه المسيحيين هو رأس حمار».

Tacite. Histoires. LivreV - Ch. IV.

فلو لم يؤرخ للمسيحية سوى تاسيت وحده لكانت معلوماتنا عن الدين المسيحي من هذه السوية..

(*) راجع كتاب La vie Quotidienne à Rome. J. Cacopino.

فذكر الأضاحي البشرية في قرطاجة هو جزء من مخطط روماني لاتيني بأقلام مأجورة بقصد هجاء قرطاجة سواء أكانت على دين البعل ومولوخ أم على دين المسيح عيسى بن مريم. وأنه لصراع حضاري يتخطى ديناً ومذهباً. إنه صراع قومي.

* * *

يهوه الإله الإسرائيلي الخاص هو النقيض التام والعدو الأصيل للإله بعل والإله إيل. والعلاقات ما بين الكنعانيين السوريين والغزاة الإسرائيليين منعددة ومتناقضة وتملأ قسماً من التاريخ السوري القديم. وقد كان التشريع المسجّل في التوراة نسخة مشوّهة ومتخلفة عند تشريع حمورابي الأسبق منه بحوالي 800 سنة وعن التشريع الفرعوني المتقدم كذلك. ومع ذلك نجد في سفر العدد في التوراة موضوعاً متعلقاً بالولد البكر لدى اليهود.

تقول الشريعة الموسوية ان الأبكار في جميع البيوت يخصّون يهوه. وقد اتخذ موسى هذا التدبير بعد أن كان يهوه قد أمر بقتل جميع الذكور الأبكار من المصريين. ثم فرض يهوه ثمنا يشترى به البكر من قبل أهله فيتنازل عنه.

وفي مكان اخر يقول فصل من التوراة ان فكّة هذا النذر قد تكون خدمة في الهيكل قرباناً أي مجاناً فيتنازل يهوه عن حقّه بالولد البكر. فاختصاص البكر بالإله هو إذن نوع من النذور أو المعمودية فإذا أدّاها أهل الطفل سقط عنهم حق يهوه.

المبدأ المطلق: كل بكر هو للإله، بشراً أم حيواناً أم ثمراً أو غلالا. ويمكن افتداء مطلق بكر ما عدا قبيلة لاوي فإنهم لا يشترون ولا يفك النذر عنهم.

في تثنية الاشتراع (من التوراة اليهودية) يقولون عن الكنعانيين السوريين العرب:

«هذه الشعوب فعلت لإلهها كل ما يكرهه يهوه. وحتى لقد حرّقوا بالنار بناتهم وأبناءهم على شرف الهم. وأنه لمحرم عليكم أن تمرّروا على النار ابناً أوبنتاً، وكذلك يحرم عليكم أن يقوم فيكم متنبّىء أو عرّاف يتدخل في شؤون الغيب».

التحريق بالنار، التمرير بالنار، هذه هي العبارة المعتمدة. وإننا لنرى أنفسنا منحازين إلى ريناخ الذي اتهمه فكتور بيرار أنه فنيقي الهوى.

القرطاجيون والفنيقيون والكريتيون، كانوا يَشِمون وجوههم ويكتبون على جبهاتهم وصدورهم وعلى ذراعهم صوراً وحروفاً ورموزاً. ولا يزال الأحباش والبدو وكثير من الحضر يشمون أجسادهم بوشوم مختلفة حتى اليوم. وكان الأعراب ولا يزالون، في مناسبات كثيرة، أمس واليوم، يشمون أنفسهم بالحنّة، وبُوشوم حزن أو فرح أو نذر أو وفاء لنذر.

وعبارة «تمرير بالنار» لا تزال شائعة لدى عرب شمالي افريقيا. ولا تعني العبارة حرقاً ولا تشطيباً، ولكن تدخيناً رمزياً بالنار. فهل هذا التقليد هو بقية من تقاليد قرطاجة؟؟ وإنها لتقاليد جميلة ومؤثرة وبعيدة كل البعد عن الرجاسات التي ألصقت بقرطاجة، وبخاصة أننا سوف نرى ونتحقق كم أن سكان اليوم هم أشبه بسكان قرطاجة.

طقس العم أف (OF) (نار الفرح) المأخوذ من نصوص عربية من تكرونة (نشرها و. مارسي وعبد الرحمن جيجا) تفصل لنا الحفلة:

«الليلة هي التاسوعة. غداً العاشورة. بعد غد الحادوشة. ثلاث ليال يحضر فيها العم أوف. الأولاد هائجون، قلقون يفتشون من كومة إلى أخرى. يبحثون عن فضلات ألفا Alfa يابسة لكي يحرقوا العم أوف. ولا يطول بهم الوقت حتى يجمعوا كومة عارمة. وجاء الليل. وأولعوا النار. وراح الأولاد يقفزون. كل منهم يتحمّى من أول الشارع ويسرع أقصاه ويقفز من فوق القبولة.

وقبل أن يأوي الناس إلى بيوتهم، يمارس جميع الشعب التدخينات السبع كيما تكون سنتهم القادمة مباركة وكي يحفظوا أعضاءهم من آفة الكسل والرخاوة. الرجال والأولاد والبنات يقفزون سبع مرات ويمرّون سبع مرات بأيديهم وأرجلهم فوق النار».

هذا الطقس ليس طقساً إسلامياً أبداً. فالإسلام السني يبدو كأنه يكره النار كرهاً مقدساً. يقول المعلقون على هذا المقطع من الأدب البربري:

«السنّة الإسلامية التقليدية ترى في النار قوة سحرية محبوسة في قلب الغابة التي يفجر الإنسان منها النار بقدرة اللّه، وهي العنصر الذي منه ولد الجن المتكبر والعنيد، أداة النقمة السمارية في الحياة الآتية، وموضوع عبادة مكروهة لدى بعض الشعوب الضالة

وبعض الشيع الخارجة، المتقصدة في السرّ لأن تهدم الشريعة الحقيقية. فالإسلام ما انفك جاهداً حتى هدّم الزرادشتية. وحرّم حرق الإنسان والحيوان. وحرّم نقل النار في المـآتم، ولا يقبل التحجّم إلّا بحذر. وبرغم هذه التحريمات ظلت الجماهير الشعبية تحتفظ بأعياد النار الموروثة من شعائر أسبق من الإسلام ومن المسيحية.

البدو يولعون النار في ليالي السهرات الموسيقية، وليالي الزفاف. وكذلك لدى الرحّل الفلسطينيين، تضاء رقصات ليالي الزفاف بقبابيل من الشوك والعلّيق.

التدخينات، الحلقات والدوران حول القبولة، القفز عبر نار القبابيل، هي عناصر من طقوس نيران الفرح لدى البربر وغيرهم. وتقول التقاليد الشعبية إن في هذه الطقوس خيراً كبيراً».

وفي لبنان يقفز الشبان والفتيات فوق قبابيل عيد الصليب (14 أيلول) لعلّهم تُستجاب صلاتهم فيتزوجون خلال العام.

أما المشارف في تونس، المزارات، فهي عديدة لا تحصى بالرغم من تهدمها. إنها أماكن حج، قمم تلال وجبال، بقربها كتلة أشجار، وغرفة فوق، يفترض أنها قبر ولي. وتحت القبة قبر وأسرجة فخار، وذبالات في الزيت، ولهبة تهتز ليل نهار، وشموع. النساء ينذرن كيما يلدن صبيا. والصبايا يطلبن عرساناً شباناً ووسيمين. وفي الأكثر يلتقين بالعريس المرتجى في هذه المشارف المقدسة.

إنها ممارسات بدائية، ولكنها جميلة.

وثمة معبد تانيت، وألوف الجرار التي فيه، وألوف العظام البشرية، والكتابات التي على الجرار.

وينبغي أن نشير إلى أن منقبي راس شمرا في سوريا مقتنعون بأن المدنية الفنيقية التي اكتشفوها كانت تجهل كلياً، في القرن الرابع عشر ق.م، التضحيات البشرية، وتقتيل الأبكار حين ولادتهم.

* * *

نعود إذن إلى غول برصة، مفترس أطفال قرطاجة. بناءً على أقوال ديودور وابيان اللذين تكلما وكتبا بدون أن يشاهدا شيئاً، ألّف جـ. فلوبير Flaubert مسرحية سالامبو

وأظهر فيها اشتغال المكنة الجهنمية التي التهمت في وقت كالومضة ثلاث مئة وخمسة وستين طفلاً رخصاً وحلواً قدمهم آباؤهم ضحية في الحضن المستعر. في ذلك الوقت العام «1863» ضجت علوم الآثار الرسمية بما قاله المؤلف الروائي. فقد كان خياله خصباً، وكان يكتب، ويغلط ويعدد حججه ولكنه لم يقنع أحداً.

أما اليوم فإنهم يحسبون أن مولوخ مجرم سفاح شرّيب دم..

ومعبد تانيت... هل هو فعلاً مستودع الضحايا المشوية في سعير مولوخ؟ هل هو مصطبة لجرار رماد الضحايا الأطفال؟؟ أم هو مقبرة لأطفال ماتوا بالحمّى والمرض؟.

على جرار الرماد، نقرأ عادة: «إلى مولوخ وعشتار، أنذر ولدي»، «لقد نذرت ابني إلى مولوخ»، «بألم لا يزول نركع لأيل ونسلّم».

ولا نحسب أن عبارة «ولد منذور» تعني «ولدًا أحرق حريقاً»، لا في فنيقيا، ولا في غيرها من الأرض.

ومن ذا يقدر أن يقول ويستنتج ويشهد أن رماداً يكتشف بعد ألفي سنة يبرهن على جريمة إحراق الناس أحياء، أطفالاً أم كباراً وأن المجتمع كلّه مجرم وهمجيّ؟؟.

أطباء شرعيون طلبوا لإبداء الرأي فاعتذروا بحذر.

ولكن اكتشفت بالقرب من «معبد تانيت» جرار تحتوي على عظام مكلّسة مُرّرت قليلاً على النار. فهل هذا يعني أن الأطفال قد طبخوا أحياء في الجرار؟؟.

حول معابد ساتورن لم نكتشف قط أثر دم. فنحن نعتبر قصة الحرق بالنار هي معمودية بالنار، كما أصبحت فيما بعد معمودية بالماء، ثم معمودية بالروح القدس. وجميع تلك الأرجاس التي ألصقتها روما وأقلامها بالعدوة الكبرى قرطاجة قد ذابت أمام العلم والمنطق وتطور الآثار. وأرجاس المشارف المزيفة، عوضاً عن أن تعتبر مجزرة يومية لأطفال قرطاجة فإنما هي شموع تضاء للولي المدفون، ونذور من صبية ترجو عودة خطيبها من بحار المجاهيل أو من قافلة تخترق الصحراء، أو أمّ ترتقب طفلاً في شهره، أو مريض يرجو العافية.

المرور بالنار، التمرير بالنار فإنما هو جرأة القفز فوق قبولة شارخة لعلّ القافز يتطهر ويتوفّق.

قرطاجة والرومان
قوة روما البحرية كانت وبالا على الامبراطورية القرطاجية

من الهجرات الكبرى التي حصلت ما بين 1200 - 1000ق.م. وصل شعبان من أصول اسيوية إلى المتوسط الأوسط: أحدهما فنيقيّو صور الذين أنشأوا أولاً مستعمرة العتيقة حوالى 1100 ق.م ثم قرطاجة (القرية الحديثة) في النصف الثاني من القرن التاسع. والثاني هو الأترسكيون الذين استقروا في ايطاليا شمالي نهر التيبر قبيل العام 1000 ق.م. جنوبي التيبر منطقة لاتيوم، عدة قرى يسكنها قبائل اللاتين، وهم هنود أروبيون متجمّعون حول ألبالونغا تحت حكم الأتروسكيين. تقول الأسطورة ان اللاتين العائشين في جوار تلة البالاتين قد بنوا روما بقيادة رومولوس وأن روما تحوّلت إلى مدينة دولة.

حوالي 500 ق.م، فيما كان الأترسكيون منشغلين في قتال الجلالقة في الشمال، طرد اللاتين ملوكهم وحكامهم الأتروسكيين من روما واحتلوا منطقة أترووريا. ولكن الجلالقة اجتاحوا أترووريا واجتازوا التيبر الأدنى واحتلوا روما التي كانت بغير أسوار العام 390 ق.م وأحرقوها. ولم يصمد فيها سوى القلّة على تلة الكابيتول. فقبض الجلالقة جزية ذهب من حماة الكابيتول وانسحبوا نحو الشمال.

في ذلك الوقت كانت الوحدة العسكرية الرومانية الأساسية هي اللجيون، التي تتألّف من تجمّع مقاتلي العشاير الأساسية العتيقة في روما الذين يحق لهم وحدهم أن يحملوا السلاح. فكانوا يؤلفون الوحدة الطليعية من المقاتلين المستحقين لبركة مارس إله الحرب. ولأنّ الخدمة العسكرية كانت الوسيلة الوحيدة للوجاهة المدنية، فقد كان هؤلاء

المقاتلون الوراثيون الشجعان هم المصهر والقالب والمثال لاخلاق ومناقب الشعب الروماني.

في الأصل كانت اللجيون فرقة مسلّحة على النسق الدوري القديم. وفي أيامها الأعتق كانت مؤلّفة من 3000 - 4000 مقاتل يصطفون في ثمانية صفوف. الصفوف الستة الأولى كانوا الهوبليت الثقال التسليح، والصفّان الأخيران الفاليت ذوي السلاح الخفيف. وكانت تكتيكات قتالها، على غرار الكتيبة اليونانية، الهجوم الصاعق. ولم يكن لها احتياط. ولما كانت اللجيون تنعم بمساندة زمرة واحدة نادرة من الخيّالة، فقد كانت المطاردة بعد النصر مفقودة تماماً.

وتقول التقاليد إنّه بعد حريق روما قام ماركوس كميلّوس بتغيير كامل لتنظيم اللجيون البدائي. وكميلّوس هذا هو أشهر قائد روماني في الحروب الحلّقية. فقد أبدل نظام التطويع وجعله على أساس السنّ لكي يستفيد إلى الحد الأقصى من الإمكانات والخبرة. وجعل المشاة الثقيلة التي هي أساس اللجيون ثلاثة أنواع أولها يشمل الأفتى فتوّة ثم الأسنّ ثم المشوربون العتاق، وأبقى المشاة الخفيفة على أساس التطوّع العام.

وبغية زيادة حركيته ومناورته إزاء التنظيم الحلّقي المرن والسريع قسم كميلّوس اللجيون الأصلية إلى ثلاث فرق مرتّبة في العمق: الفرقةالفتية في الطليعة، الأسنّ خلفهم، والمشوربون ذوو الخبرة في المؤخرة. وكل فرقة تنظمت في عشر سرايا تضمّ الأولى والثانية 120 رجلاً والباقيات 60. والفوج صار يضم سرية واحدة من كل نوع و120 مشاة خفافاً وكوكبة 30 خيّالاً أي مجموع 450 رجلاً. عشرة أفواج تؤلف لجيون.

أما في ترتيب المعركة فكانت السرايا تصطف كما في رقعة الشطرنج بحيث أن سرايا الفرقة الثانية كانت تغطي الفواصل في جبهة الفرقة الأولى، وسرايا الثالثة تغطي فواصل الثانية. وأما الخيّالة فكانت عشر كوكبات تؤلّف جناحاً. وكان تنامي النظام الجديد متدرّجاً. التسليح وصفه بوليب في الفقرات 19 - 42 من الباب السادس. المقاتل في المشاة الخفيفة يحمل سيفاً وترساً قطره ثلاثة أقدام. الرمح كان للرمي وكان رأسه حاداً وعطوباً لدرجة أنه لا يعود يصلح لشيء عند العدو بعد رميه. المقاتل الأفتى كان يحمل درعاً عريضاً نصف دائري، عرضه قدمان وستة إنشات وطوله أربعة أقدام. وكان مؤلّفاً من لوحتي خشب ملصقتين، ومغطّى بجلد ومقوّى بالحديد. سلاحه سيف قصير ورمحان قويان ويعتمر خوذة نحاسية ويلبس صدرية نحاسية أو عند التوفر درعاً. الثاني والثالث

بعد الفتوة كانا مسلّحين كالفتوة إلاّ أنّهما يحملان رمحاً أطول.

أما الخيالة فيبدو أنها أهملت كليّاً حتى أن الخيال، حتى افتتاح الحروب الفنيقية، كان خلواً من درع. الدرع من جلد والسيف والرمح من أنواع مختلفة. وكانت الخيالة تفضّل أن تقاتل راجلة.

وكان القتال الجماعي غير مشجع بعكس المبارزة الفردية. هجوم كتيبة كبيرة كان يتحوّل إلى مجموعة هجمات سريعة متلاحقة. واعتمد أيضاً نظام المعسكر المحصّن حتى ولو لليلة واحدة. الانضباط الصارم القديم حوفظ عليه وزيد النظام المرصوص والتدريب والتعليم.

هذه التغييرات كانت جذرية من حيث التكتيات، فقد مزج القتال المتلاحق بالقتال المتباعد، وأُنشيء احتياط، وأُلصق القتال الهجومي والدفاعي معاً.

كتب مومسن عن اللجيون المناورة قال:

«مزْجُ الرومان للرمح الثقيل مع السيف أعطى نتيجة مشابهة لما حصل في الحروب المعاصرة عندما دخلت إليها البارودة ذات الحربة. رشقات الرماح مهّدت السبيل للالتحام بالسيف تماماً كما أن رشقة الرصاص تسبق الاقتحام بالحراب. وأخيراً فإن نظام المعسكر المحصن سمح للرومان بأن يدمجوا حسنات الدفاع والهجوم، وأن يلحموا القتال أو يجتنبوه بحسب تقديراتهم والظروف، وأن يقاتلوا من خلف تحصينات المعسكر كما لو أنهم خلف أسوار القلعة.

بعد الاجتياح الجلّقي تحوّلت روما إلى مدينة مسوّرة، وتحوّل الرومان إلى شعب غازٍ وقد صار لهم قاعدة انطلاق آمنة.

في العام 523 ق.م أدّى بهم توسعهم إلى صدام مع السمنيين جنوباً فقامت بينهما عدة حروب انتهت العام 592 ق.م في معركة سنتينوم الفاصلة (قرب فبريانو) التي انهزم فيها اتحاد السمنيين والأترسكيين والجلالقة أمام الرومان. هذا النصر جعل روما هي الأقوى منذ نهر الأرنوس إلى خليج سالرنو. ويقول بريستد «هذا النصر حسم قدر إيطاليا لمئتي عام» أمّا في قلب ايطاليا فأعداء روما المتبقّون هم الجلالقة في الشمال، واللقوانيون في الجنوب، والمدن الدول اليونانية على الشاطىء.

تارنتم (تارنتو) كانت أهم هذه المدن. وقد ارتعب أهلها من انتصار روما

وتوسعها، فطلبوا سنداً من بيروس ملك ابيروس ومواطن الاسكندر الكبير. فتأرّض بيروس في إيطاليا العام 280 ق.م وغلب الرومان في معركتين: في هرقليا على خليج تارنتو، وقرب اسكولوم شرقي فنوزا المعاصرة.

إلاّ أنّ خسائره كانت مرتفعة جداً حتى أنه عندما طلبته سيراكوزا لمعونة ضد القرطاجيين نقل جيشه إلى صقلية. ومنها، بعد عدة حملات باهرة وبسبب الجدال بين المدن اليونانية، عاد إلى ايطاليا 276 ق.م فقهره الرومان بشدة في بانافنتو فانسحب إلى أبيروس قائلاً «أي ميدان قتال أترك خلفي لقرطاجة وروما». وكانت رؤياه صحيحة لأنه ما أن انسحب حتى سلّمت مدينة يونانية للرومان. ومع احتلال رجيوم أصبحت الدولتان الأقويان متواجهتين عبر خليج مسّينا.

بين 310 - 289 ق.م خضع أكثر صقلية لأغاتوكل ملك سيراقوزة، وهو جندي بارع وأول أروبي نقل الحرب إلى افريقيا القرطاجية. فلما مات استغلت قرطاجة غيابه، والفوضى التي حصلت بعده اضطّرت سيراقوزة إلى الاسنعانة بـ بيروس صهر أغاتوكل. فلما غادر بيروس صقلية علق هيرو الثاني ملك سيراقوزة في حرب ضد أحد قوّاد مرتزقة أغاتوكل الذي احتل مسّينا، ويدعى المرتزقة مرمريتنيون على اسم قائدهم الأول مرمر. فلما حشرهم ملك سيراقوزة في مسّينا استعانوا بقرطاجة وروما معاً. فلبّت الدولتان طلب الاستغاثة وعلقتا بأول حرب بينهما العام 462 ق.م. وستكون الحرب الأولى من الحروب الفينقية المشهورة.

كان القرطاجيون أحنك وأقوى من الرومان في البحر وأسرع حركة وأدقّ مناورة. فقرّر الرومان العام 261 أن ينشئوا قوة بحرية. وظلوا يطوّرونها بأن تدبّروا أجهزة توصل مقاتليهم البحريين إلى الأسطول القرطاجي، فتتحول المعركة البحرية إلى شبه معركة بريّة تعتمد القتال الفردي المتقارب. وأحرزوا أول نصر بحري في رأس ميلا جعلهم قوة بحرية في المتوسط الأوسط. وكان أوّل نتيجة لهذا النصر الروماني أن قرطاجة أخلت كورسيكا وأن الرومان اجتاحوا سردينيا.

وبعد نكبتين للأسطول الروماني ومحاولة رومانية للنزول في افريقيا، انسحب الرومان من افريقيا إزاء حلف سبارتي قرطاجي ونصر للخيّالة القرطاجية. في العام 247 ق.م نزل هملقار بركة في صقلية. هملقار هو والد هانيبعل.

وبعد معارك بحرية ونصر روماني عقد صلح العام 241 ق م أخلت قرطاجة بموجبه صقلية التي أصبحت أول مقاطعة من الإمبراطورية الرومانية.

بعد هذا الصلح حصلت اضطرابات في قرطاجة وتمرّدات متعدّدة لدى المرتزقة. وكان من أثر تمرّدهم في سردينينا أن الرومان تدخّلوا واحتلوا الجزيرة وجلا عنها القرطاجيون.

فأرسلت قرطاجة هملقار إلى اسبانيا تعويضاً عن خسائرها في المتوسط الأوسط وجزره. العام 229 ق.م توفي هملقار، وخلفه صهره عزروبعل فبنى العام 228 ق.م قرطاجة الجديدة (قرطاجنّة). إزاء هذا التوسع القرطاجي في إيبيريا تحالفت روما مع مدينة ساغنتو اليونانية. ولأن روما كانت منشغلة في حرب ضد الجلالقة عقدت معاهدة مع عزروبعل حول خطّ أحمر في اسبانيا يفصل بين منطقتي النفوذ، هو نهر الايبر.

في العام 221 ق.م اغتيل عزروبعل فخلفه رحيمه **هانيبعل بن هملقار بركة.**

* * *

التطور العسكري والجغرافي والبشري في الإمبراطورية الرومانية ضخّم عدد اللجيونات وأفرغ الريف من العمال الزراعيين. واحتلال سردينيا وصقلية زاد من الأزمة فاحتاجت روما إلى مزيد ومزيد من العبيد للعمل في الأرض. والعبيد لا يأتون سوى من افريقيا وأسواقها، وهذا المشروع الاقتصادي الحيوي لا يؤمّنه ويحققه سوى الحرب. فأصبحت الحرب ضرورة للمدنية الرومانية. وبعد توسع روما جنوباً وغرباً أصبحت الحرب نحو الشرق مفروضة عليها بخاصة أنه في العام 306 ق.م، وبسبب الفوضى بعد موت الاسكندر المقدوني، برزت خمس دول كبرى تلقب حكامها بالملك. هنّ مصر وبطليموس 223 - 283 ق.م، سيرا وأنتيجون 323 - 301 ق.م، سورية وسلوقوس 312 - 280 ق.م، تراقيا وليزيماخوس 232 - 281 ق.م، مكدونيا وكاسّاندر 319 - 297 ق.م.

قرطاجة وروما وسيبيون

العام ٢١٩ ق. م تحرش الرومان بالقرطاجيين في اسبانيا لأنهم كانوا يطمعون بمناجم الفضة فيها. فتحرشوا بقوم التربولاتيين حلفاء قرطاجة فساند هانيبعل حلفاءه في مدينتهم ساغونتا وأنذر الرومان بتركهم وشأنهم، وحاصر المدينة تسعة شهور ثم افتتحها عنوة في اذار من العام التالي. احتجت روما لدى قرطاجة وطلبت تسليمها هانيبعل فرفضت قرطاجة وأعلنت روما الحرب.

كان هانيبعل يدرك أسباب تحرش روما به وأسباب دفاعه عن حلفاء قرطاجة وماذا سيتبع الاحتكاك الأول. وكان واعياً مدركاً أنه إزاء تحقيق الوجدان القرطاجي العام في الانتقام التاريخي من الرومان وليس كما استحب الرومان ومؤرخوهم أن يدّعوا أنه كان يحقق مصالح حزب بيت بركة في اسبانيا، ولا أن يثأر لثارات وراثية في بيته. الهدف الحقيقي كان محو خسائر الحرب الفنيقية الأولى ورفع شأن قرطاجة. وكان يتمتع بحس سياسي وجيوستراتيجي فذّ ويدرك أن روما استقوت بالقتال وتوسعت بالحرب وأنه لا سلم للدول الكبرى ولا مهرب لها من الحروب لتأمين مصالحها. وكان يعرف أن الجلالقة يبغضون روما كما المكدونيون، وأن الوضع الستراتيجي كان ملائماً لقرطاجة وأن وضعه التكتي في اسبانيا كان أقوى من الوضع الروماني. وكانت قوته العظمى أنه استفاد من تجربة الاسكندر وأمثولات حروبه ومن الاستعمال الراقي للخيالة، وهو ما كان الرومان يجهلونه ويهملونه.

أما الرومان ومجلس الشيوخ فكانوا ينظرون إلى الوضع كما يلي: لقد غلبت روما

الجلالقة في شمالي ايطاليا وضبطتهم بقوات لاتينية واستولت على مرافىء الشمال، بخاصة تارنتا. وكان الأدرياتيك مؤمّناً. ومواصلاتهم مع اسبانيا سليمة وامنة لأنهم أقوياء في البحر. وبإمكانهم عبر صقلية أن ينزلوا إلى الأرض الأفريقية ويهاجموا قرطاجة. فحسابات روما سليمة أيضاً. ولكنهم إذا كانوا يقدّرون قوة الجيش القرطاجي فإن هانيبعل مجهول لديهم، ولم يدركوا أو يتبصّروا أن هانيبعل من البدء حتى النهاية كان وسيكون محور الحرب والسلم والأحداث جميعاً. وسيكون هذا القائد الفذ لمدة 16 عاماً خصماً لوحده لروما وسوف يعلّمها كيف تسيطر على العالم.

فمن هو هذا الرجل؟؟؟

معلوماتنا التاريخية عن هانيبعل اتية مما ندرسه في معاركه، وأما الباقي فقد كتبه خصومه وخصوم قرطاجة وكنعان وفنيقيا وحمْير والعرب والمشرق وصور.

ولد العام 249 ق.م في قرطاجة وغادرها في التاسعة من عمره إلى اسبانيا مع والده ليتعلّم أصول وفنون القيادة، ويتثقف بأرقى ثقافة عصره. فكان يقرأ ويتكلم اليونانية بيسر وسهولة وكان متعمقاً في المدنية الهلينية، إضافة إلى ثقافته القومية في شؤون قرطاجة وصور والعروبة المشرقية وأصوله الحميرية. وكان خيالاً فارساً مقاتلاً صلب الجسد والعزيمة، نيّر العقل متحملاً للصعاب وثاقب العقل والنظرة والقرار والتقدير. وكانت حياته متقشفة وقلما استغرق في الخمرة أو النساء.

يقول Livy عنه: «جمع إلى شجاعته في مواجهة الأخطار الحكمة والروية وسلامة الرؤيا والتقدير. ويضيف المؤلف أنه كان قاسي الأخلاق ولا يأبه للحقيقة، كما كل فنيقي، ولا للحرمات والقداسة ولا يخاف الالهة ولا يفي بقسم أو وعد، وبغير رادع من دين».

أما پوليب فيقول إنه كان قاسياً للغاية، ومحباً للمال». ولكننا سوف نرى انه لم يكن طماعاً أكثر من خصومه ولا همجياً أكثر من عصره.

عندما انطلق 218 ق.م من قرطاجة الجديدة نحو نهر الأيبر كان هدفه واضحاً. لم تكن غايته أن يقهر روما بل أن يفكفك الاتحاد الايطالي وأن يفرض على روما صلحاً كالذي فرضه أغاتوكل قبلاً على قرطاجة. بعد معركة ترازيمن ونصره فيها سيقول: «لم آتِ لقتال الطليان بل لأقاتل روما باسمهم». ولم يتصرف كفاتح في ايطاليا بل كمحرر لها

من روما. وبهذه الفكرة الجوهرية الصلبية في ستراتيجيته تقدم نحو بربينيان على رأس 90.000 مشاة، و12.000 خيال، و37 فيلاً. وقد اختار الطريق البرية على البحرية ليس لسيطرة الرومان على البحر بل لكي يحرّض الجلالقة ضد روما وليؤسس قاعدة عمليات وتموين وتطويع قريباً من غاليا الألبية وتأميناً لخط تموينه من اسبانيا.

بعد البيرنس تحرك شمالاً نحو أفينيون بدون مقاومة لأن مجلس الشيوخ الروماني لم يحدس أي شيء من نوايا هانيبعل. فلما جمع المجلس جيشاً في صقلية بقيادة سمبرونيوس بقصد حملة ضد قرطاجة ذاتاً، ألّف جيشاً آخر بقيادة سيبيون لكي يزحف على مرسيليا ومنها على نهر الأيبر. فلما وصل سيبيون إلى مرسيليا عرف أن هانيبعل أصبح على خمسين ميلاً إلى شماله. وبدلاً من التراجع بسرعة إلى ايطاليا على طريق الساحل، أرسل الجيش بقيادة أخيه غايوس إلى اسبانيا لمهاجمة قاعدة عمليات هانيبعل وعاد هو مع شلّة قليلة إلى بيزا.

ما أن عرفت أخبار هانيبعل في روما حتى أمر المجلس سمبرونيوس بنقل جيشه إلى الشمال. أما هانيبعل، على طريقة الاسكندر على نهر هيدَسب، فاجتاز الرون وقاد جيشه إلى الألب البحرية. والأغلب أنه اجتاز بهم ما بين قمة سان برنارد الصغرى وقمة جنيفر. الصعوبة الكبرى لم تكن الجبال بل عداوة الألّوبروج، فإنهم كانوا يعرقبون مؤخراته، وقد كانت خسارته كبيرة إذ انه اجتاز الرون مع 50.000 مشاة و9000 فارس فلم يصل مع أكثر من 20.000 مشاة و6000 فارس، أي مع ربع القوة التي يقول ليفي انه غادر بها قرطاجة الجديدة.

أسباب الخسارة توحي بالحري أن الانضباط في جيشه لم يكن عالياً جداً ولكننا نعود نتساءل برغم هذه الملاحظة الممكنة كيف عاد فأحرز انتصاراته العظيمة والباهرة والاستثنائية خلال الأعوام الآتية، نابوليون يقول في تعليقاته «إن الأفيال وحدها قد تكون أعاقت هانيبعل ولبّكته» .Commentaires TV. P. 163.

ملاحظة: خلّف هانيبعل 22.000 في كاتالونيا. أما 21.000 فقد يكونون قُتلوا أو هربوا.

* * *

في كانون الأول 218 ق.م، على ضفاف تربيا استجرّ هانيبعل خصمه سمبرونيوس

إلى المعركة. خدعه وصمد له مواجهة واكتنفه بنصف فرسانه ثم انقض على مؤخرته عندما بدأ بالتراجع.

ملاحظة: پوليب يقدر أن القرطاجيين كانوا 28.000 مشاة و10.000 خيال، والرومان 36.000 و4000.

وفي نيسان 217 ق.م، على الشاطىء الشمالي من بحيرة ترازيمن، تسلل قصداً ما بين جيشي سرفيليوس وفلامينيوس، وفاجأ ثانيهما بغرة فائقة وخدعة باهرة وأفنى جيشه فناءً تاماً. **15.000 قتيل و 15.000** أسير.

ثم تحرك هانيبعل جنوباً نحو شاطىء الأدرياتيك واستولى على مستودعات رومانية في كانّي على نهر أوفانتو. ويبدو أن الهدف الأول لتوجهه هناك كان مشتى ملائماً لفرسانه. وفي هذا الوقت كان أربع لجيونات مزدوجة في جيرونيوم، جنوبي ترمولي، بقيادة القنصلين باولُس وفارّو. فلما عرفا بقدوم هانيبعل زحفا نحو نهر أوفانتو وعسكرا على ضفته اليمنى على ثلاثة أميال فوق هانيبعل. باولُس، بسبب قوة الفرسان القرطاجيين كان معارضاً للقتال، ولكن فارو خالفه. ولما كانت القيادة بينهما شفعاً ووتراً أمر فارو في يومه بزحف سريع وللحال. فحصل اشتباك صغير غير حاسم ولكن الالتحام كان قد حصل، فلم يقدر باولس أن ينفك في اليوم التالي (2 اب 216 ق.م. ويبدو أن هانيبعل كان على بينة من خلافهما فاتخذ تشكيل الهلال لجيشه جميعاً. فحشد في الوسط الاسبان والجلالقة من مشاته ووضع الأفارقة على الجنبين. وعلى جناح كل قوة من المشاة وضع قوة محرزة من الفرسان. أما الرومان فواجهوه بنظام الخطوط المتوازية. فعمد هانيبعل أولاً إلى كسر الفرسان الرومان وضعضعتهم وانتظر كالساحر الماكر تقدم المشاة الرومان عليه. فجوّف أمامهم قلب الهلال القرطاجي وقهقر مشاته حتى عمق انحناء الهلال فيها كان المشاة الرومان يتقدمون عليهم. وفجأة في البرهة الحاقّة قدّم هانيبعل الجانبين من الأفارقة وأطبق عليهمْ نحو داخل الهلال والتحم بمجنبات الرومان في الجيب المستضيق. ثم عادت الخيالة القرطاجية بعد مطاردة الخيالة الرومانية فأطبقوا على المؤخرة الرومانية فكأن الأرض انشقت بالرومان جميعاً وابتلعتهم. يقدّر پوليب أن الرومان كانوا 80.000 مشاة و9600 خيال. تاريخ كمبريدج القديم يقدّر أنهم كانوا 48.000. پوليب يقدر أنه لم يفلت من الخيالة الرومانية سوى 370 وأن أسرى المشاة 10.000 (لم يكونوا في المعركة) وأن القتلى 70.000. أما خسارة القرطاجيين فكانت 7500 كلاً بكلّ.

دراسة معارك تربيا وترازيمن وكانّي لا تتحمل أي ريب أن النصر فيها جميعاً منوط بعبقرية هانيبعل الحربية وأن المعاون الأول لعبقريته هو نظرة الرومان إلى الحرب. فقد كانت ميكانيكية كلياً وتعتمد فقط على الشجاعة والانضباط والتدريب. وكانت الطاعة تامة حتى أن التحركات والتبديلات لم يكن يعيقها أي حاجز أرضي، وبدون أي علاقة بالموجبات التكتية. ولكن الرومان كانوا قد ربحوا معاركهم ضد همج قليلي التدريب والانضباط، ولم يتعلموا شيئاً من حروب الاسكندر وخلفائه، ولذلك تفاجأوا إزاء هانيبعل بجهلهم وبعماوتهم التكتية وتجمدهم الفكري إزاء رؤيا هانيبعل الشاملة وتبصره وخياله وحيله، وسرعة تغيير تدابيره ودقة أوامره ودقة تنفيذها من قبل قادة ورتباء وجنود عجنهم القتال والدربة وسرعة الخاطر وحرية المبادرة وكأنهم يشاركون هانيبعل في التخطيط والتنفيذ وتقدير المتغيرات السريعة وسط القتال.

الخطأ كان في النظام العسكري الروماني وليس في شجاعة القواد والمقاتلين. فكل روماني كان مؤهلاً للقيادة العليا بمجرد أنه تدرّب وتمرّن التدريب العادي والعام الذي يتلقنه ويمارسه مطلق مواطن حر من الشعب الروماني. مومسن يقول في تأريخه لروما: «يستحيل أن تقرر الانتخابات الشعبية من سيكون قائداً للجيش من بين المواطنين المدربين، في مثل هذه الحرب». وهذا الخطأ متأتٍّ من تنافس الأحزاب السياسية والعائلات النبيلة ذات الدم الأزرق والعظم الأبلق. وهكذا تحصّل أنه نشأ في روما جيش متين ومتجمد يعيِّن قواده بالانتخاب الشعبي ليس على أساس علمهم ومقدرتهم وحنكتهم وخبرتهم بل بسبب انتمائهم وولائهم لهذا الحزب أو ذاك.

أما هانيبعل فقائد يتوالف مع جميع الظروف القتالية والحربية إلا واحداً: الحصار. فكان أهلاً لأن ينتقل من الهجومية الاقتحامية خلال سنواته الثلاث الأولى في ايطاليا إلى الوضع الدفاعي العنيد خلال الثلاث عشرة سنة التاليات التي أمضاها في ايطاليا. وكان محنّكاً حتى ليبدّل مواقفه كما يشاء بحسب تبدّل ظروف الحرب والسياسة والتموين والمعنويات والطقس والقوة البحرية والمحالفات السياسية في ايطاليا وقرطاجة معاً. ولذلك قيل: «إن كل خير وشر أصاب روما وقرطاجة كان متأتياً من رجل واحد، وعقل واحد، هانيبعل. فقد كان له من الهيبة والنفوذ والسطوة والتأثير، وكان له من الثقافة والعقل النافذ والنظرة الثاقبة وسرعة الخاطر والجاذبية ما ليس يبلغه سوى النادرين من رجال التاريخ».

يقول بوليب عن هانيبعل: «طوال 16 عاماً متواصلة تابع هانيبعل الحرب في ايطاليا ضد روما بدون أن يسرّح أو أن يريّح جيشه برهة من مشقات الميدان، بل ظلّ ممسكاً بهم في أدق انضباط كأحسن قائد أو ربان على مقوده، بدون أي خلل في ذاته أم تجاه السوى أم بين اثنين من جيشه برغم أن جيشه لم يكن من جنسية وحيدة أم من قبيلة واحدة أم من عرق واحد. بل كانت عبقرية هذا القائد الفذّ تجمع وتصهر الفروقات والخلافات الأصلية وتجعل هذه الأقوام البدد والشتات المتنوع جسماً متناغماً ذا عصبية عليا تطيع إشارة رجل وتوالي غاياته وأهدافه».

مومسن يعود فيقول: «هانيبعل كان منعماً عليه وموهوباً بالحنكة المهنية والخيال الخلاّق والمهارة العليا التي تميز الخلق الفنيقي. كان موهوباً لاختيار الطرق غير المرتقبة، ولنصب الكمائن وابتداع الحيل التي لا يتخيلها غيره. وقد درس أخلاق أعدائه بدقة لا سابقة لها. وكان له جهاز تجسس ومخابرات لا يضاهيه غيره، وله شبكات مخابرات في قلب روما وما خرم عليه سرّ لدى أعدائه. وكان هو بذاته يتموّه وبشعر مستعار ويتجول هنا وهناك حيث تدعو الحاجة. وما من حدث في حياته إلا ويشهد على عبقريته وفذاذته كقائد أم سياسي. كان رجلاً عظيماً ويشار إليه إينما راح وحلّ وعيون الناس والآلهة عليه».

* * *

ماذا كان في قدرة النظام العسكري الروماني أن يفعل إزاء رجل كهذا؟؟ لا شيء. ومع ذلك فقد ربح الخلق الروماني في النهاية.

بعد كانّي ماذا حصل؟؟ أفوضى جارفة في الجمهورية كما طالما أمّل هانيبعل؟؟ لا. بالعكس، ما من مدينة لاتينية ثارت. بل تضامنوا جميعاً حول روما المشلولة والمنكوبة. ولو أن هانيبعل كان كالاسكندر لكانت روما سقطت. فإزاء هذا التماسك في الاتحاد الايطالي الروماني لكان الاسكندر قرّر أنه لا بدّ من احتلال روما مهما كلّف. ولا يغني عن احتلالها شيء. ماهربعل، قائد الخيالة القرطاجية حرّضه وحمّسه للزحف على المدينة العاصمة ولكنه لم يقبل. فقال ماهربعل قولته الشهيرة: «الحق الحق أقول إن الآلهة لا تنعم على الرجل الواحد بجميع أنعامها. أنت موهوب لربح المعارك ولكنك تجهل كيف تستغلّ النصر». ويعلّق ليفي: «هذا التأخر عن اقتحام المدينة انقذها وأنقذ الإمبراطورية».

لماذا لم يزحف هانيبعل على روما؟؟.

يجيب هلوارد أن هانيبعل كان يرى رؤية ستراتيجية مختلفة، أنّ جميع قوة وقدرات قرطاجة ينبغي أن تستعمل لتوسيع رقعة الحرب إلى مناطق جديدة بغية تطويق ايطاليا». وأنه فيما كان هو هانيبعل يفرفط مدينة بعد أخرى في ايطاليا كان على الحكم في قرطاجة أن يمهد السبيل لعقد الصلح «بطرد الرومان من اسبانيا وباسترجاع سردينيا، وبالأخص بالأستقواء الكامل في صقلية». ولأجل هذه الغاية تلقى هانيبعل في العام 215 ق.م عرضاً بمعاهدة تعاون مع فيليب الخامس المقدوني، وقبل شروط المعاهدة.

عندما عرف فيليب المقدوني الخامس بانتصار هانيبعل في ترازيمن، تحضّر لمهاجمة ايطاليا وأعدّ العدة. وبعد انتصار كاني دخل فعلاً في معاهدة مع هانيبعل. ولذلك شهر مجلس الشيوخ الروماني العام 214 الحرب على مقدونيا وكانت الحرب المقدونية الاولى. في العام 211 ق.م عقدت معاهدة بين روما والعصبة الايتولية، وفي العام 205 ق.م انتهت الحرب بصلح فونيق الذي بموجبه وافق فيليب على عدم مضايقة الدول الحليفة لروما.

ولكن هل هذه الستراتيجيات هي أسرع طريق لبلوغ غايات قرطاجة؟؟ فلو أن روما اجتيحت وسقطت لسقط بعدها اسبانيا وسردينيا وصقلية: فليس الأمر إذن أن الستراتيجيا الجديدة كانت أفضل بل لأن هانيبعل كان يفتقر إلى عتاد حصار. وكان يعرف أنه عاجز عن اجتياح روما قتالاً، ولذلك هجر الفكرة الهجومية واعتمد الدفاع المتحرك والمتنقل والمناورة الدائمة، مثل خصمه فابيوس كونكتاتور، بغية تحريض حلفاء روما على تركها والاستقلال عنها.

لماذا لم تثر أي مدينة ولم تنفصل؟ ليس فقط بسبب الولاء لروما ولكن لأن كل واحدة كانت قوية الأسوار وكانت متواصلة مع الأخريات بشبكة طرقات وعلاقات. فكنّ إذن محصنات ضد جيش هانيبعل البري ومؤمّنات التموين. فالمدن المحصنة إذن كانت هي عامود الستراتيجيا الرومانية ونعجب إذاً لمَ كان هانيبعل قد غفل عن هذه العروة. فلو أنه أدرك هذا السر في الوقت اللازم لكان في العام 215 ق.م أقام في كابوا مقتطعاً لذاته أكبر قسم من ايطاليا الجنوبية ولكان نظّم حصاراً على المواصلات والتموين ولَضعضَعَ أسس تكتيات خصمه. فمنذ هذه السنة وخلال أربع بعدها تحوّلت الحرب إلى مناورات انتقال وتمركز وإلى مناورات ومداورات متحركة وتهديد وانسحاب حتى العام

211 ق.م. فلما حاصر فولفيوس كابوا واحتلها لم يكن في قدرة هانيبعل أن يفعل أو أن يردّ سوى أنه تحرك واجتاز نهر آنيو وتقدم نحو أسوار روما وامتشق سيفه على مقربة من باب التلّ. كانت هذه الوقفة بطولية لا ريب، بل رمزاً تاريخياً، ولكن متأخرة خمس سنوات عن موعدها الفعّال.

* * *

وفيما كان هذا البراز الدفاعي محتدماً في ايطاليا بحسب ستراتيجيات هانيبعل، كانت الحرب شارخة في جبهات أخرى. في اسبانيا كان شقيقا هانيبعل، عزروبعل وماغو، وعزروبعل ابن جسكو، يقاتلون الأخوين سيبيون، بوبليوس وغناوس. وفي العام 215 ق.م اندلعت ثورة في سردينيا. وفي العام التالي ذهب القنصل مارسلّوس إلى صقلية حيث كانت سيراقوزة حليفة لقرطاجة، فطوّق المدينة وحاصرها وأصبح هذا الحصار الحدث الأهمّ في الحرب. وحصل فيها حدث عسكري تاريخي لأن أرخميدس بذل آنذاك أهمّ ما في عبقريته وعلمه وخبرته للدفاع عن المدينة المحاصرة. وقد قال بوليب: «في ظروف معينة تكون عبقرية رجل فرد أفعل من الجماعة والأعداد الكبيرة». وقد صمدت سيراقوزة حتى العام 211 ق.م حين أدت الخيانة إلى سقوطها في يد الرومان، فسقطت من بعدها كل مقاومة في صقلية.

إزاء انتصار مارسلّوس في صقلية أصابت الخيبة ابني سيبيون في اسبانيا. فقد انفكت عنهما القوات السلتيبرية وقتلا بعد انكسارهما. وقعدت روما عاجزة عن التحرك. وكان للانتخاب الشعبي أن يقرر من هو القائد الجديد. فلم يتقدم أي مرشح مشهور من القناصل والحكام، بل ترشح شاب في الرابعة والعشرين قلما تقلد مركزاً مرموقاً أم قيادة عليا، فرفعته الثقة الشعبية وفرضته على مجلس الشيوخ فوافق عليه. وكان اسمه، كأبيه، بوبليوس كورنليوس سيبيون، وهو الذي سيشتهر باسم سيبيون الأفريقاني وقاهر هانيبعل.

ولد هذا الرجل في العام 235 ق.م. وأول ما حكي عنه ففي حملة تربيا حين، انقذ حياة أبيه، وثم في معركة كانّي. فقد نجا من المذبحة. ولما علم أن متلّوس وعدداً من النبلاء الفتيان ينوون أن يهربوا من ايطاليا شهر عليهم السيف وحلّفهم ألّا يتخلّوا عن روما أبداً. وبرغم تميزه هذا فإن جماع خلقه غامض. مومسون يصفه كما يلي: «ليس من الذين، بحيويتهم وقوة إرادتهم، سيغيّرون مجرى التاريخ. بل ان هيبة ما تكلل

بطولته. إنه ليحيط به هـالة من إلهام صادق ومن استقـامة في التصرف. لقـد أعطي قـوة لاستمالة الرجال وإحياء عزائمهم، وحكمة ونفاذ بصيرة، مع شيء من الشعبيـة البدائيـة. لم يكن بسيطاً فيقاسم الجماهير معتقداتها وحماستها المنجرفة، ولا كان مستقيماً حتى ليعتزل الناس إذا سادهم انحـراف وأوهام. بـل كان يؤمن سـراً أنه حبيب الآلهـة وأن فيه بعض نبـوة ووحي. نشأ في رتبة أعلى من العوام ولكنه لم يكن مترفعاً عن الناس. وكـان إذا وعد وفى وذا تصرف نبيـل وعلى يقـين أنه في رتبـة الملوك، وكثيراً مـا تضايق من مـوانع الـدستـور الروماني وقيوده ضد الملكية. ثقته بذاته وبقدرته رفّعته عن الحسد والحقد وجعلته يعـترف للنـاس بحسناتهم ويغفـر لهم سيئاتهم. ضـابط ممتاز ودبلومـاسي دقيق، غـير متهجم عـلى السوى، روماني حتى العظم، وإنما بثقافة هلينيـة، متكلم، متأنق وخـطيب مؤثر. مـالت إليه قلوب جنوده والنسـاء سواء منهم الـرومان والاسبان أم خصومه في مجلس الشيـوخ أم خصمه اللدود هانيبعل الأعظم.

سجلُّه الحافل بالانتصارات منذ توليه القيادة في اسبانيا حتى آخر معركـة في الحرب مدين لثقافته الهلينية ولانفتاح عقله في صداقة وخصومة وعداء. وفيها عمهت أفهام القواد الرومان عن التبصر في أسباب انكسارات روما استفاد سيبيـون من فشل سـابقيه أكـثر مما تعلم من انتصاراته الذاتية. معلمه وأستاذه كـان خصمه هـانيبعل. تعلم منـه فن الحرب وفن قيادة الرجال وحكمهم. أبرز صفـاته أنه ذو بصيرة نـافذة وثـاقبة في نفسيـة الجماهـير والجماعات. ثارت ضده مجموعات عظمى من رجالـه في اسبانيـا، فعلّق على هـذه الحالـة الشاذة قال: «الجماهير تضلّل بسهولة وتساق إلى الخطأ. ومع ذلك فالجماهـير كالبحـر ذات طبيعة سليمة وهادئة. أما إذا هبّت عليها رياح عاتيـة هاجت وجنّت. فـالجماهـير إذن هي على صورة قوادها ومستشاريهم.».

* * *

أبحر سيبيون نحو اسبانيا وبعد عدة معارك جـريئة ومنـاورات عظمى استـولى على كامل اسبانيا، بعد أن تراجع عزروبعل بن هملقار بجيشه نحو فرنسا وبعد أن تغلّب على عزروبعل بن جسكو وعلى ماغو. وباستيلائه على كامل اسبـانيا في العـام 206 ق.م تقوّت وضعية روما الستراتيجية وأصبحت المعركة مباشرة مع قرطاجة وافريقيا ذاتاً.

عزروبعل بن هملقار اجتاز جبال الألب من حيث اجتاز أخوه هانيبعل منذ احـدى عشرة سنة وتوغل في ايطاليا. ولكنه كُسر في ماتورس وقُتل. فبقي هانيبعـل وحده. وإزاء انفـراده في

ايطاليا عاد يقيّم رؤياه الستراتيجية الشاملة القائمة على تطويق ايطاليا وضعضعتها من الداخل بدلاً من اجتياح مدينة روما بعد تطويق وحصار. وأدرك أنه بدلاً من تطويق جميع ايطاليا ستراتيجياً أصبح هو وحده مستفرداً في ايطاليا بدون معونة ممكنة من قرطاجة. فالترقب الذي تحمّله منذ انتصاره في كاني بدا الآن واهياً لأن المبادرة انتقلت إلى الرومان فيما هو وحيد مع جيشه وإن كان رعبه لا يزال مستولياً على قلب روما فلا تجرؤ جيوشها العديدة أن تهاجم جيشه الصغير. في العام 205 ق.م. ضاعت صقلية واسبانيا، وعقد صلح بين فيليب الخامس المقدوني وروما.

في روما كانوا يفكرون بتضييق الطوق على هانيبعل وجيشه حتى الاختناق. أما سيبيون فكان ذا تفكير مختلف: خطته العامة أن ينقل الحرب إلى افريقيا وقرطاجة بالذات. فبعد أن انتهت حملته الاسبانية بالنجاح نُصح بأن يرتاح قليلاً فكان جوابه أنه بالعكس يتحرّق سرعة واستعجالاً لنقل الحرب إلى قرطاجة. وربما كان يفكر بتقليد حملة أغاتوكل الذي كان يحترمه جداً ويعجب به. ولذلك عمد بعد آخر معركة في اسبانيا، وبخطر عظيم، إلى زيارة موريتانيا لاستمالة سيفاقس ملك مازايسلّي ولكي ينال من مازينيسا ملك نوميديا فيلقاً من الخيالة. عاصمة مازينيسّا كانت سيرتة أي قسطنطين المعاصرة، وعاصمة سيفاقس كانت سيغا (غربي أوران).

عاد سيبيون إلى ايطاليا ومجّده الشعب وغار منه القواد الأعمر منه والأكهل. وعيّن قنصلاً وجعلت صقلية ولاية له بقصد إبعاده بالحري أكثر من تكريمه. واقتصرت قيادته على فرقتين من بقايا كانّي ولم يمنح أي مساعدة أو معونة. ومع ذلك عمد للحال إلى تطويع مجنّدين وإلى تدريبهم تحضّراً للثأر الكبير.

العام 205 ق.م نزل على أرض افريقيا بقرب العتيقة حيث لحق به مازينيسّا الذي كان طرده سيفاقس من أرضه. وكان عزروبعل بن جسكو يطوّع أيضاً جيشاً قرطاجياً مجهزاً بالخيالة والأفيال. ولكن سيبيون خدع القواد القرطاجيين ودمّر معسكريهما وقضى على قواتهما مرة واثنتين. فاستدعت قرطاجة هانيبعل وماغو من ايطاليا. وكان هذا الانسحاب أول غاية ستراتيجية عظمى يحققها سيبيون من حروبه. وأما غايته الثانية العظمى فكانت عقد صلح مع قرطاجة.

أثناء مفاوضات الصلح انسلّ ماغو من ايطاليا إلى افريقيا ولكنه مات من جرح كان أصيب به أثناء الانسحاب. أما هانيبعل فكان في كوترون عندما تلقى الأمر بالانسحاب

والعودة إلى قرطاجة. فقتل خيوله وفي 23 حزيران 203 ق. م سحب جيشه بحراً، أي حوالى 15000-20,000 رجلاً ونزل في لبتس الصغرى (لمتة). ثم حرّك قواته إلى حضرموت (سوسة) ليؤلف سلاح الفرسان، ويقوّي الحزب الوطني في قرطاجة فيرفض مفاوضات الصلح مع روما. وهكذا كان. فامتعض سيبيون من هذا التصرّف وتحرك في مطلع 202 ق.م نحو وادي البغرادا محرقاً القرى وجائراً على الناس مخرباً المزارع لكي يقطع التموين عن قرطاجة. فطلب شعب قرطاجة من هانيبعل أن يتحرك بسرعة فترك حضرموت وانتقل إلى زاما (زوارين المعاصرة) على خمسة مراحل جنوبي قرطاجة. هناك خبّروه أن مازينيسّا التحق بسيبيون مع 6000 مشاة و4000 خيال فأدرك هانيبعل أن حظه بالنصر قليل بسبب طغيان خيالة العدو فطلب مقابلة خصمه. فالتقيا، هانيبعل وسيبيون، في اليوم التالي. اقتربا مع حراسة قليلة جداً ثم اختليا لوحدهما مع ترجمان لكليهما. اقترح هانيبعل، بعد مقدمة عن أفق الحرب والسلم، أن يعقد اتفاق بين الدولتين لإبقاء اسبانيا وصقلية وسردينيا مع روما، ومع التزام من قرطاجة بعدم العودة إلى الحرب لاسترجاعها. أما سيبيون، المتأكد من تفوقه العسكري، فأجاب أنه لم يعد يثق بوعود قرطاجة لأنها نقضت المعاهدة الأخيرة. فافترق الخصمان إلى معسكريهما وراحا يستعدّان للمعركة في اليوم التالي.

كان جيش هانيبعل هو الأضعف، ويدل أمرُ المعركة وصفُّ الوحدات أنه كان يدرك هذا الأمر. كان لديه ثلاث فرق مشاة، جيشه الذاتي، وجيش ماغو وجيش طوّعه على عجل مجلس السفّاط القرطاجي. الأول والثاني يُعتمد عليهما والثالث لا.

أما سيبيون فصفّ الفرق كالمعتاد مع تغييرات تواجه صفّ عدوّه.

المعركة جرت بفصول أربعة.

1 ـ هجوم أفيال هانيبعل واندحار خيّالته.

2 ـ الالتحام بين المشاة من الجهتين.

3 ـ الالتحام بين الاحتياطيين.

4 ـ هجوم خيالة مازينيسّا على مقاحيم هانيبعل، الحرس المقدس.

المعركة تعدّ من أشرس معارك التاريخ القديم ومن أكثرها حسماً. وقد ظلت معلّقة

النتائج برغم تفاوت قوة الجيشين إلى أن تغلّب ميزان روما بسبب عودة خيالة مازبيسّا إلى المؤخرة القرطاجية. فحسم الأمر بعد مجزرة عارمة. فانسحب هانيبعل مع قلة من حرسه إلى حضرموت.

سيبيون لم ينتقل للتوّ إلى حصار قرطاجة لأنه تخوّف من ابتدائه بالعملية ثم من استبداله بمن يجني ثمار النصر الأعظم. هكذا يقال. ولكن الحقيقة أن سيبيون إزاء قرطاجة، مثل هانيبعل إزاء روما، لم يكن مجهزاً لحصار طويل. ثم أن روما بعد حرب 16 عاماً كانت منهكة وأعجز من أن تتحمل حصاراً حول أكثر المدن تحصيناً في الأرض. وكانت روما ترى أن صلحاً مع قرطاجة أربح من حصارها البعيد. لذلك قدّم سيبيون شروطاً للصلح:

1 ـ تسليم جميع الأسطول الحربي والأفيال.

2 ـ تعهد بألا تقوم قرطاجة بحرب بغير موافقة روما.

3 ـ إعادة مازينيسّا إلى عرشه ومملكته.

4 ـ دفع 10.000 شاقل من الفضة (2.970.000 سترلينية) منجّمة على خمس سنوات.

وافق مجلس الشيوخ على شروط سيبيون الذي انتصرت ستراتيجيته في الحرب وفي صناعة السلم. إلا أن مومسن يقول: القائدان المسؤولان في هذا الأمر قبلا الصلح بهذه الشروط لكي يخففا من غضبة انتقام المنتصر، وتخوفاً من عناد المغلوب وصلابته. فالأول سيبيون أظهر تعالياً وهانيبعل أظهر تعقلاً إزاء الإنكسار الماحق وإزاء صلف ممكن من الخصم الحقود».

ويقول ليفي وحتى پوليب أن كلا القائدين التاريخيين، عندما رجع من المفاوضات التي سبقت معركة زاما، كان يدرك أن رهان الغد ليس انتصاراً في معركة عظمى فحسب بل هو تقرير لأجيال من سيحكم العالم ويفرض شريعته، لا في ايطاليا وإفريقيا بل في المتوسط أجمع وما حوله.

هانيبعل قال ان المعركة ستقرر مصير قرطاجة وليبيا وكل افريقيا. وسيبيون قال إنه إذا انكسر فلن يكون لرجاله المغلوبين ملجأ في الأرض جميعاً.

النتائج المباشرة لمعركة زاما هي أن روما تحررت من الهمّ القرطاجي لكي تتطّلع شرقاً نحو مقدونيا، وأن اسبانيا أصبحت ولايتين رومانيتين وإن ظلتا في ثورة متواصلة، وانضمام مملكة سيراقوزة إلى صقلية كولاية رومانية، هيمنة رومانية بديلة للقرطاجية على جميع القبائل والشعوب الأفريقية، وأخيراً تحوّل قرطاجة من إمبراطورية تجارية عالمية إلى مدينة مركنتيلية صغرى وضعيفة. أي أن المتوسط الغربي كلّه أصبح محمية رومانية، وصار بإمكان روما أن تدّعي أنها وريثة الحضارة المسكونية وحامية المدنية في غرب المتوسط وفي شرقه وحيثما استطاعت الفرق الرومانية أن تصل في الجهات الأربع.

* * *

في العام 193، كان هانيبعل المنفي مقيماً في بلاط أنطيوخس المقدوني. فلما علم بنوايا الرومان عرض على الملك أن يسلمه أسطولاً من مئة سفينة وجيشاً من «10.000» مقاتل، وألف خيال فيبحر إلى قرطاجة ويحشّدها ويستنهضها إلى حلف مع مقدونيا لحرب ثأر ضد روما. ويجتاح أنطيوخس اليونان أولاً ثم يجتاح الحلف المقدوني القرطاجي ايطاليا رمة وروما. ولكن الرومان فرضوا أن يسلمهم الملك هانيبعل فلما أوشك أن يفعل تجرّع هانيبعل السمّ وانتحر.

التاريخ والارقام والمبالغة

قرطاجة لم تترك لنا تاريخاً. تاريخها نعرفه من المؤرخين الأجانب. ولو كان هؤلاء الأجانب عاديين لكنا عرفنا شيئاً فشيئاً ماذا كانت قرطاجة. ولكنهم أعداء أبديون حتى مخّ العظم.

القديس أوغسطين يقول عن مؤرخي روما:

«مؤرخون لم يكلفوا أنفسهم بتأريخ حرب الرومان بل بمدحها. . .».

همهم إذن أن يمجّدوا روما والرومان. روما أوصت عند اليونانيين على تاريخ لها، كما يوصيّ غني حرب على خزانة أنساب وجدود عند بياع عِتَقٍ منافق ومزوّر، أو على شجرة أنساب عند نسّاب منافق وعليم.

وسيكون لسيبيون مؤرخه كما كان يرافقه ممسّد عضلاته وشاعره.

لذلك نقرأ اليوم كتابة من بوليب وأمثاله عن آل سيبيون ودوحتهم وأنسابهم. وإن جميع ما كتبوا لَدَجل ونفاق.

ولو كتبت قرطاجة تاريخها لكتبته على الطريقة القديمة ولارتكبت التخريفات الأرقامية إياها التي كان يقع فيها مؤرخو ذلك الزمان. وسيكون ذلك التاريخ الرسمي شبيهاً بما كتبه بنتاور بناءً على أمر الفرعون. إذن، كانوا سيمجدون قرطاجة.

ولقد كان مع هانيبعل مؤرخوه. ولا ريب أنه أملى عليهم ما ينفع حملاته ومعاركه.

شيرياس وسوسيلوس والآخرون لم يكونوا مكلفين بتسجيل الحقيقة وحدها، سنّةَ الإنسان الذي يكتب عن ذاته.

وليس إلاّ بالقراءة النقدية والحرة أننا قادرون أن نقارب الحقيقة في أعداد الأفيال والسفن والجنود والعتاد.

علم الآثار لا يصدق قرطاجة أكثر من روما. المؤرخون القرطاجيون ألا يدّعون أن سكان قرطاجة مليون؟؟.

ومع ذلك سنتعرف على قرطاجة بالتي هي أحسن، إذ ليس كل شيء تطرفاً ولا وهماً في التاريخ الشرقي والتاريخ القديم. النكات والأقاصيص تكون هي الأكثر دلالة أحياناً والأكثر عفوية وصدقاً. والأخبار المتفرقة قد تُستخلص منها الحقيقة أكثر من الأبحاث الصرف. بلى، لو وصلت إلينا التواريخ القرطاجية لوجدنا فيها مبالغات. ولكننا ما كنا لنجد أبداً روح التحقير والشتيمة والأهانة والتكذيب والنفاق والنية السيئة التي نراها في كل سطر عن قرطاجة كتبه ديودور وبوليب والرومان.

لنطرح نظرة على موضوع الأرقام! ان نقداً ذاتياً نادراً نراه في كتابات القدامى ليسمح لنا بمباغتة الفكر القديم متواجهاً مع نفسه والحقيقة.

ديموستين، أمام الخطر، أي إزاء فيليب المكدوني، يحاول أن يوعّي الأثينيين من غفوتهم، ويطلب منهم تضحيات. ويعرض عليهم مخططاً لنهضة عسكرية وبحرية. الحكي لم يعد ينفع، نريد أفعالاً، وبسرعة. ماذا يطلب ديموستين من الأثينيين كيما يتصدوا لمقدونية؟. إسمعوه!!

«بادىء بدء، يا مواطني أثينا، أعلن وأؤكد أنه لا بد من تسليح خمسين سفينة. وبعد ذلك ينبغي أن تقتنعوا أن عليكم أنتم، عند الضرورة، أن تركبوا هذه السفن.

«وثم أطلب أن تستأجروا سفناً وقوارب مستديرة كيما ننقل نصف الخيالة(1).

«وقبل الأسطول، يا مواطني أثينا، ينبغي أن نجهز جيشاً دائماً وجاهزاً لكي يلحق الضرر بفيليب. ولا تبحثوا معي عن عشرة آلاف وعشرين ألف مرتزقة ولا عن قوى ليست موجودة إلاّ بالحكي وعلى الورق.

«عـدد المشـاة سيكـون ألفـين 2000. وينبغي أن يكـون فيهم خمس مئـة أثيني. ثم يلزمنـا مئتا خيّـال فيهم خمسون أثينيـاً عـلى الأقـل، وسفن لنفـل هؤلاء الـرجـال. (عشر سفن)».

إذن خمسون أثينياً خيالة، وخمس مئة مشاة، وعشر سفن، ولن يمرّ فيليب.

أليست هذه الأرقام دليلاً على أن أثينا لم تكن تعدّ = 750.000 = نسمة؟.

بلى! لقد كشح ديموستين كثيراً من الأوهـام. مؤرخ الماضي السحيق هـل هو مثقّف غير متحيز وذو وجدان؟؟ بل نعامله مثل حكواتي يحلم ويتكلم، وبخاصـة عندمـا يغوص في الأرقام.

سنتعب إذا حـاولنا تقييم الحكـواتي. ولكنـه يكـرر ويجترّ بـدون معرفـة، ولم يكن حـاضراً جميـع الأحداث التي يـذكرهـا، وليس مثقفاً بـاللغـة التي قيـل فيهـا الخـطاب أو التقرير. وكانت الأرقام في المقام الأدنى من وجدان المهنة. هذه المهنـة، والهوى والميـول، كانت سمة قصّاصي ومؤرّخي الأمس، ولا تزال سائدة عند الأكثرين في يومنا هذا.

مثـل حيّ: الأمير سكست دو بـوربـون، أرّخ «آخـر حملة للملك» أي الحملة التي احتلت الجزائر العام 1830. ينبغي أن نشيد بدون حدود بدقة وسلامة معلومـاته. وبحثـه يفيدنا في كلامنا عن قـرطاجـة لأنه يسمـح للقارىء أن يقـوم بمقارنـات نافعـة في الأعداد والعتاد والنَّقَل واللوجستيات.

نعـرف من المؤلف أن الحملة كانت تعـدّ سبعـة وثـلاثـين ألفـاً وخمس مئـة وسبعـة وسبعـين رجـلاً (=37577) و3388= جواداً. ونعـرف عـدد الضبـاط ورتبهم وأقـدميتهم وحالة خـدمتهم. ونعرف تـأليف الأسطول العسكـري المكلف بحراسـة القافلة التجـارية المستأجرة للنقل، وكم كان على كل سفينة نقل، وعدد البطاريـات والمدافـع ووحدة النـار لكل مدفع. وفي الكتاب تفاصيل عن أدق الأشياء.

في وصفه لمعركة ستاويلي = Staouëly = حزيـران 1830= يعتمد الـدقة إيـاها، إذ كانت جميع وثائق الأركان تحت تصرفه. وهذه هي النتيجة بالنص:

«يوم 19 حزيـران كان حـاراً: واحد وعشرون ألف فـرنسي كانـوا في خط القتال. الخسائر 57 قتيلاً و473 جريحاً. الفرقـة الأولى خسرت 44 قتيلاً و44 جـريحاً، وأكـثرهـم من لواء

كْلُوّى Clouet. وقدرت الخسائر العربية بـ أربعة آلاف قتيل وجريح، ولكن كثيراً من الجثث سحبها الخيالة الأعداء إذ كانوا يربطون الجثث (ثلاثاً أو أربعاً) ويجرونهم خلفهم بالحبال. الجرحى العرب الأسرى عالجناهم كجرحانا. وكانوا قلة. والذين لم ينقذهم رفاقهم كانوا ينتحرون مفضلين الموت على الأسر لدى الفرنسيين».

إذن، فيما يمكننا أن نذكر قتلانا وجرحانا بالاسم، نقول ان العدد التقريبي لخسائر العدو هو أربعة آلاف. ولربما كان مضروباً بعشرة أضعاف. والتفسير المعطى فلما يقنع أحداً. أما نكتة سحب الجثث أربعة أربعة بحبل فتجعلنا نتساءل كم كيلومتر من الحبال استوجب سحب هذه الرُّزم البشرية. ثم إن مكماهون قد اشترك بالمعركة، ولا يبدو أنه قد رأى نكتة سمجة في سحب الجثث المربوطين بحبل.

ونشير إلى أن المؤلف قال ان البواريد التركية الطويلة التي كانت مع العدو كانت أبعد مدى وأدق من البواريد الفرنسية. وان الشالات البيضاء التي كان يرتديها الفرنسيون سهلت عملية التصويب عليهم. وإن بعض المناورات السيئة التنفيذ قد سببت كثيرا من الخسائر في الصفوف الفرنسية. . .

والمؤلف دقيق وذو وجدان ومطّلع كما لم يطلع أحد على أدق الوثائق. وكل كلامه موثوق حتى يصل بنا إلى الأرقام. والغريب أن تكون الأعداد مدورة، بالأصفار المتلاحقة، بدون فراطة.

ما أصعب الحياد في كتابة التاريخ!! وما أسهل الأرقام البطولية!! وما أسهل التزوير غير المسؤول!!

هانيبعل

البادية:

مهما قلنا عن سيئات البداوة الأفريقية من حيث غزوها وتخريبها في الحضر إلا أن فيها متعة وجمالاً وشعراً وغناءً وحباً لا يشبع مدمنها من النهل منها والتعاطي معها. وقلّما احتكّ حضري متمدن بالبداوة حيث هي = ما سوى مواسم الغزو = إلا عشقها أبداً ومسّه منها هاجس مودة وجنون.

وكم من ضباط خيالة وهجانة في عصرنا الحاضر ومن أنبل العائلات الأرستقراطية من أروبة جميعاً وفي افريقيا جميعاً، ما أن خدموا مدّة في الصحراء حتى تولدت فيهم «دعوة الصحراء» فمنهم من اعتنق النسك الصحراوي ومنهم من ترهّب ومنهم من تبدّى كلياً. وكلهم وجميعاً كأنهم على دين سرّيّ باطني من العشق والصفاء والوفاء.

ذلكم هو محفل هانيبعل. هانيبعل البكر الأقدم المعروف لهؤلاء الصحراويين. ولكنه بقي على ولائه الأسمى لقرطاجة ولمدنيتها ولحضارة حمير وكنعان وصور والمتوسط حتى الموت.

هذا المتمدن الأكبر، ابن الملوك، صاحب الأطيان والقصور، ابن هملقار بركة، نما وتدرج وشبّ على الخيل في البادية، في رحاب افريقيا.

«أنت يا مادح بيوت الوحل والحجر يا مدافعاً عن أهل الحضر وتهجو حب البدوي للصحراء!! ماذا تعرف من أسرار الرمال؟! لو أنك أبصرت الصحراء عند السحر، فيما

الضحى ينتشر على هضاب الماس، لكنت تنشّقت عبق الحياة المضمّخ، الذي لا يهبّ أبداً على المدينة الزانية. ولسقط عنك الضنى إذاك وحلّ الفرح في فؤادك مكان الهم». من الأدب الوجداني البدوي.

البدوي شاعر بقدر ما هو خيّال.

حياة الصحراء حرية وحماسة ورجولة، واستذابة شعرية، وجمال مطلق، وعناق مع اللانهاية، ومع الثابت الأزلي غير المتحوّل. الصحراء تجريد متعالٍ، ونسيان للأشكال ونور تامّ، وليل عذب، وحضرة مع الأفلاك. الصحراء كمال بدون آفاق.

وذي قلب طيب أم خلق معقّد تمسّ الصحراء شغاف روحه بجمالها وطهرها فتأسره انجذاباً وعشقاً. ولا يحسبن أحد أن المتمدنين وحدهم يصبحون شعراء إزاء الصحراء وأنه ينبغي أن يكون عضواً في قدموسية أو من مجلس المأمون لكي يتذوق شعر الصحراء وعمقه وصدقه وصوفيته. فالبدوي ينشد الشعر وهو يمشي سيراً أم خبباً على ناقته: الشعر البدوي هو شعر شعبي. والمستشرقون يدنفون شغفاً، عندما يقرأون أو يسمعون، من أهله، شعر البداوة في الصحارى البعيدة، وقد قاله شعراء لا يقرأون وأكثرهم مجهولو الاسم والزمان.

هانيبعل اختار حياة البداوة، وجعل من ذاته قائد فاتحين وطوّع خيّالة على حسابه، وقادهم إلى القتال. ولكان يودّ لو خيّل أمامهم في افريقيا ذاتاً، ولكن افريقيا مسالمة هادئة. الأمراء النوميديون كانوا أصدقاء قرطاجة وحلفاء. أما التنافس ففي إيبيريا والحملة تلي الحملة. فكانت الحملة الأيبيرية مقدمة لحملة ايطاليا.

وكما أن بحاراً من جزر المالوين يسلح للسبق فرقاطة على حسابه، فكذلك فتح هانيبعل حرباً على أعداء قرطاجة. قصده لو يقاتل روما. ولكنما التغلب على روما غير وارد. تماماً كالقرصان المالوي الذي لا يطمح لوحده أن يتغلب على أساطيل الدول.

الحرب التي افتتحها هانيبعل في ايطاليا هي حرب زعيم قومي، قاد طوال ستة عشر عاماً خيّالة يعشقونه كعشقه لحضارة قرطاجة. وقد كانت غزوة طويلة، وقلما انتهت..

هانيبعل والستراتيجيا المتوسطية والمسكونية

تاريخ هانيبعل، كما نعرفه من المؤرخين اليونان والرومان، هو نسيج من التناقضات والتطرف والمعمّيات:

1 ـ «لماذا يفقد هانيبعل ستة وثلاثين ألف رجل (تيت ليف: التاريخ الروماني) بين البيرنس والألب، ما دام لم يشتبك بأي قتال؟»

نستشهد هنا بكلام سيد القتال الجبلي نابوليون، إذ يعلق على كتاب Considerations sur l'Art de la Guerre تأليف الجنرال رونيات Rogniat. هذا الكتاب شبّه حملة نابوليون على ايطاليا واجتيازه الألب العام 1800 م بحملة هانيبعل العام 218 ق.م. يقول نابوليون حرفياً:

«هانيبعل انتقل بدون حادث. لم يضايقه الرومان قط، ولم تكن أمامه أيّ صعوبة في اجتياز الألب».

ويقول مثل هذا القول الماريشال الأكبر برتراند.

2 ـ بماذا ينبغي أن نحتفظ من الوصف الرومنسي لمرور هانيبعل من ممر لوتارى (Lautaret)؟ ففي فصل الصيف وعلى هذا الارتفاع ما هي المصاعب التي جابهت القائد الفنيقي؟ المحاولة جريئة لا ريب لأنه كان عليه أن ينشر وأن يمغط عدة آلاف من الخيالة، بالطول، بالصف الهندي، على طرقات جبلية ضيقة. ولكن هذه الطرقات كانت موجودة وسالكة، وقد اتبعها الجلالقة عدة مرات، والجبليون الألبيون، منذ أزمنة قديمة. اذن لماذا يريدون من هانيبعل أن يشق طرقات بالحديد والخل؟؟.

3 ـ أما المدد الذي تلقاه هانيبعل من القبائل الجلقية، والمقاومة الهائلة التي جابهت بها ايطاليا الغازي الفنيقي، فيقول ميشلى من بعد پوليب، إن الرومان جابهوه بسبع مئة ألف راجل وستين ألف خيال...؟؟.

4 ـ وأما عن خسائر الرومان في معارك تريبيا وترازيمين وكانّي فينبغي أن نكون شكاكين جداً. وما ينبغي أن نقوله عن هذا الكتيّب الرخيص فهو ان ايطاليا بكاملها وروما معها لم تستطع أن تمنع هانيبعل من التقدم. روما لم تستطع أن تواجه خيالة هانيبعل إلا بفرسان يركبون خيل الفلاحة، ولذلك تقطعوا أرباً.

5 ـ ويقولون ان هانيبعل بعث إلى قرطاجة سلاًّ من الخواتم الذهبية المسلوبة من الخيالة الرومان. وفي مكان آخر يقولون بل ثلاثة قراطيل. هذا القرطل هو بسعة اثني عشر ليتراً ونصف الليتر، فيتسع اذن لأربعة آلاف خاتم خيالة. وثلاثة أمداد تتسع إذن لأثني عشر ألف خاتم. فهذا الاحصاء يعني إذن أن روما فقدت جميع فرسانها، وأنها أصبحت عاجزة عن مجابهة الخيالة الخفيفة القرطاجية.

6 ـ الحقيقة والواقع أنه طوال الأربعة عشرة عاماً التي ستدومها هذه الحملة الفذة، لن نعود نرى خيالة قط عند الرومان. ولن نعود نسمع بالجلالقة. وسيتواجه مشاة الرومان وخيالة هانيبعل. فمن جهة أولى اللجيون الرومانية سلحفاة مدرعة عنيدة، يقاتلها إعصار من خيول صغيرة وسريعة، بدون سروج، رشيقة مثل العصفور، زيبقية لا تكمش.

مبارزة بين السلحفاة والنمر.

فنفهم إذن لماذا طالت المعركة هكذا، وبدون نتيجة؟. لأنه كان يستحيل أن تحصل معركة فعلية.

فلو كان مع هانيبعل مشاة، وعند رومة خيالة لما كان هانيبعل انتظر بلهفة المدد الذي كان أخوه يستجلبه من ايبيريا، ولما راح سيبيون إلى افريقيا ليجلب خيالة نوميديين فيقاتل بهم خيالة هانيبعل.

ولنفترض أن سيبيون، بعد أربعة عشر عاماً من **ترازيمين وكانّي**، قد جنّد الخيالة الذين يدعي التاريخ (الرسمي) أنه أخذهم إلى افريقيا، فلماذا إذن، في مواجهة هانيبعل الضعيف وخيالة يمتطون خيولاً افريقية هرمة جداً، وقد جاوزت السن بعد هذا الغياب الطويل، لماذا لم يحاول أن يلحم القتال؟؟.

هنا ينبغي علينا، كما في كل التاريخ القديم، أن نقرأ بين السطور، وأن نشكك بجميع الأرقام وأن نستنطق العقل والخبرة والمقارنة.

نحن نفهم أن الخيالة القرطاجيين بقوا ستة عشر عاماً في ايطاليا، بدون أن يحتلوا أي مدينة، ولم يدمرهم أحد، ولم يشلّهم أحد. بل انها غزوة جبارة.

الخيالة القرطاجيون يسيطرون على الريف. والروماني يتحصن في مدينته خلف أسواره. ولا يخرج إلا جماعة مسلحة وفي تشكيل اللجيون المربع.

اللجيون لا تقدر شيئاً ضد الخيالة. وهؤلاء لا يستطيعون شيئاً ضد المدن، فكيف بروما؟ كابو وتارنت وحدهما تفتحان أبوابها بالرضى أم بالحيلة.

فأي عمل عسكري آخر كان يمكن لهانيبعل أن يأمر به رجاله؟ السيطرة على بلاد واسعة بالرعب، وفي استنفار دائم، وحضور متواصل أينما كان، وبتقطيع المواصلات، وأن يظل دوماً شبحاً لا يُكمش. هذه هي تكتيات البدو.

سيبيون أدرك (روما طوّلت حتى فهمت) أن سلاحاً مشابهاً بسمح وحده بممارسة تكتية مماثلة.

7 ـ الحذق العملاني المناور لدى هانيبعل كان يكمن أساساً في معرفته لرجاله ووسائلهم. فأتقن قيادتهم واستعمالهم ولم يطلب منهم شيئاً إلا كانوا أهلاً لتنفيذه.

8 ـ كان هانيبعل قد نظم جهاز مخابرات بفيده بكل شيء عن العدو. وكان يعتمد على الرجال والحمام الزاجل. ونلفت النظر إلى تضخيم دور الأفيال في حملة هانيبعل لأنه في ترازيمين كان لديه فيل واحد فقط. وفي معركة كانّي لم يكن معه أي فيل. ونلفت النظر إلى إغفال موضوع الحمام كلياً في التاريخ المزور.

9 ـ هذه الغارة الطويلة والغزوة غير المنتهية هي سابق ونموذج وقدوة للحملات الظافرة التي سيقوم بها خيالة العرب في الإسلام، وإن كانت بعض الحملات بدون نتيجة. لقد تغير الاسم بين الأشقاء ولكنها هم الرجال إياهم يمتطون الخيول ذاتها ويسارعون إلى طرقات اسبانيا وغاليا (فرنسا).

10 ـ الاسكندركان ذا أثر أَدْوَمَ من هانيبعل لأنه كان يعتمد خيالة ثقيلة يتبعها مشاة للاحتلال وشعب للمصاهرة والزواج.

هانيبعل سيطر على الريف وليس على البلد. كان في كل مكان ولكنه لم يترسخ في أي مكان.

كم كان عدد خيالته؟.

هل بعض آلاف يكفون ويوفُّون لإزعاج الحياة الزراعية في ايطاليا طوال هذا الوقت؟؟.

لم يعلم أحد عددهم. فالرعب الذي أوحوه جعل الناس يضاعفون عددهم عشر مرات ومئة مرة.

11 ـ شخصية هانيبعل كبيرة جداً، وجميلة جداً لدرجة أن كل حقارة پوليب لم تنجح في تشويه هانيبعل وتبغيضه للناس.

ومع ذلك... ظلت أروبة المرومنة تصدّق الأضاليل ضد هانيبعل وقرطاجة والفنيقيين والكنعانيين والحميريين والعرب. إنه بغض قومي منظم ومغذّى بالأضاليل والأباطيل.

فإذا أراد هانيبعل أن يلفظ خطاباً علنياً، أخذ حملاً وسحق رأسه على حجر لكي يضحي به. إنه طقس مرعب، ولكنه مجهول عند القرطاجيين والفنيقيين والحميريين، كما عند اليونانيين والليبيين والغارامنتيين.

أما پوليب فيؤكد أن «هؤلاء الأفارقة كانوا يأكلون اللحم البشري عند الحاجة». ويؤكد پوليب أيضاً أنهم «كانوا يغسلون جيادهم بالخمر المعتقة». ونحن نقول إنهم ربما فركوا مفاصل خيولهم بالخمر في أيام البرد. وتلك أعلى رتبة يصل إليها خيال فارسٌ أشبهي.

ويصف لنا پوليب كيف أن هانيبعل ترك ايطاليا محاولاً أن يجرّ معه جنوداً ايطاليين مغدقاً عليهم الوعود، ومن ناحية ثانية أمر بذبح أربعة آلاف فرس، وعدد من الحيوانات الأخرى، ولسنا نرى إلا تناقضاً وعدمية في الخبرين.

ويقول پوليب أيضاً إن هانيبعل كان قوياً في قرطاجة واسبانيا وصقلية، عبر هيبوقراط وعزروبعل وماغون. هانيبعل هيج إلّيريا، واليونان، وعقد معاهدة مع فيليب وقوّم الدنيا ضد روما.

ولكن قرطاجة، بحسب پوليب أيضاً، كانت تخشى هانيبعل. ويقول مونتسكيو أيضاً، بوحي من پوليب اليوناني: «حنّون كان يودّ لو يسلّم هانيبعل إلى الرومان». ولكنه ما أن وطىء أرض قرطاجة حتى عُيِّنَ قائداً عاماً للجيش ورئيس وزراء، ولم يُعرف أن حزب حنّون قد عارضوه وقاوموه مقاومة من يتمنّون أن يسلّم إلى الرومان.

پوليب يذكر نص المعاهدة بين هانيبعل وفيليب وأن النص التاريخي يشير إلى «أن

شيوخاً من قـرطاجـة يرافقـون هانيبعـل تداخلوا في المبـاحثات، وهم يمثلون جميـع شيوخ قرطاجة، وحكام الولايات التابعة لقرطاجة».

أما ميشلي في «التاريخ الروماني» فـيرينا هـانيبعل بعـد زاما، سيـداً على قـرطاجـة، مصلحاً الأخلاق السياسية في مدينته، مهدماً طبقة السقّاط (القضـاة)، ومستصدراً تعيينـه سافطاً هو ذاته. ولسنا نرى سوى الحقد سبباً لارتكاب مثل هذه الأخطاء والحماقات.

وثمة أخطاء أكبر.

يقـولون ان هـانيبعل «شغّـل جنوده في أوقـات فراغهم بـزراعـة الـزيتـون»، عـلى الشـواطىء الجرداء في قـرطاجـة بعد أن أعجب بـالزيتـون في ايطاليـا. ولكن الشواطىء الأفريقية كانت مزروعة ومغطاة بزياتـين عمرهـا ست مئة سنـة، وقرطـاجة كـانت تعرف الزيتون في سورية واليمن منذ الدهر، وكانت غابة زيتونقبل أن تزرع ايطاليا نصبة واحدة.

وبعد، فقد كانت قرطاجة هي التي تمـوّن روما بـالزيت كله. وبـرهاننـا مما جاء في اعترافات القـدس أوغسطينـوس، كما يـذكرهـا بـدقـة ا. ف. غوتيـى Gautier في كتـابه جنسيريك Genseric.

الخيالة النوميدية

بل كان الفشل الأعظم.

يمكن للبدوي أن يكون نهاباً كاملاً خرّاب بـادية لصّـاً وخبيثاً وكسـولاً. فالأعـراب أشد كفراً ونفاقاً وليسوا بأهل لأن يتعلموا مـآتي الحضارة مـا داموا على بداوتهم. البـداوة احتقار للعمل والعمران. والبدوي يجهل معنى الملكية والتعب والصبر. غريـزته أنـه لصّ على الدروب، سلاّب في المزارع، حرّاق مطاحن وغابات، مدمّر جسور وقنوات، متعيش على النهب. ولا يمكنه، على قيم بداوته، أن يكون جندياً جيداً منظماً وإن غار وقاتل.

لقـد انخدع القـرطاجيـون بفضائـل بدوهم. انـه لشيء أن تبغض شغل الفـلاحـة وتحسـد بهرجـة المدن، وشيء آخـر أن تواجـه حصونـاً محمية وتتسلق سـلالم الانقضـاض وتهاجم في الميدان المكشوف. وأنه لشيء أن تفـرح بالـزيّ المزخـرف وأن تقف في الصف متأهباً وتشـد ركابـك. وشيء آخر أن تصمـد أمام هجمـة اللجيـون أو الخيـالـة. خـطأ القرطاجيين أنهم أرادوا أن يصنعوا من البـدو جنوداً قـرطاجيـين. ليس في البداوة أفـريكا كورب «Afrika Corps» ولا حرس قرطاجي ولا حرس نابوليون.

البـدوي الأفـريقي لم يصمـد في صقليـة في وجـه الجبليـين السمنيـين والفـلاحـين الأتروسكيين والدوريين واليـونانيين، في قتـال مشاة مصـابرين. ولكن مـوهبته العسكـرية تبدت في الخيالة. البدوي خيّال كرّ وفرّ وانقضاض سريع وانفكاك أسرع.

لما جلبت قرطاجة بدوها إلى ساحات القتـال عبر البحـر نسيت الخيل. فـالبدوي،

سـواء ملك جواداً أم سرقـه، فهو خيّـال فـطرة وبـالـولادة. ولكنـه ليس فـائق الصفـات الفروسية: لا يدرّب جواده على مناورات نافعة وعـلى تصبّر وتنسيق، بـل يكتفي بتدريبـه عـلى بعض حركـات السيرك. البـدوي الأفريقي لا يهتم بـالسرج واللجام والـركّابـة التي تريح الجواد وتريح الفارس. وليس هـو كبدو العـرب مربي خيـل، ولا يسعى إلى تهذيب جـواد ثم كوكبـة ولواء. بـل يربط البـدوي الأفريقي فـرسـه شهوراً برسغيه كيما يسير به هملجة، ولا يهتم بعليقه ومشربه. ولا يهتم لذاته ولا لجواده بمكان مريح أثناء التوقف. لا يؤاخي الجواد بل يستعبده. ومع ذلك يبقى خيّالاً بالولادة والفطرة. ويخيّل بدون ركّابـات ولا سرج ولا رسن. ويتوحد جسمه بجواده. ويشعر بالعزّ وإن بدائياً.

الخيـال النوميـدي هو خيـال خفيف. لا مدرّع ولا دراغـون ولا خيـالـة ثقيلة تجرّ الحديد كأنها بدون قوائم كما وصف المتنبي خيل سيف الدولة والبيزنطيين.

ولا يهجم من ضمن لـواء منظم. لا تكتيـات ولا انضباط. يـظهـرون عنـد الأفق كـأنهم غيمة من غبـار. تحسبهم كثيرين. يهجمـون من جميع الجهـات، يطوّقـون العدو، يكتنفونه، يضايقونه، وبما أنهم لا يستطيعون شيئاً ضد تشكيـل قتال متـماسك لأنهم غـير مسلحين ولا مؤهلين لمثل هـذه المهمة، فـإنهم يعزلـون العدو، ويخـطفون السـوّاس وحملة العشب، وكلفـات الحطب والمـاء والمخافـر الصغيرة البعيـدة، ويعتدون عـلى المتأخـرين، ويجهزون على الجرحى ويسرقون اللوجستيات.

عند أول ردة جدية يتفرقون ويهربون ويختفون. وتموت غيمة الغبار في الأفق. ليس عندهم عنفوان المقاتل، بل يهربون من الميدان كـما لو أنهم يهجمون. الفرار ليس عيبـاً بل حيلة وخدعة.

ولقد يغادر أحدهم مهمته وميدانه وأصحابه ويـذهب إلى أهله أيامـاً يأكـل ويسكر ويرعى حصانه وينام عند أهله وكأنه نسي الحرب. وتـظن أنك انتهيت من قصتـه ويروح البعض يتحدثون عن إبادته ويكافأ المنتصرون.

وإلّا يعود في غد متـأخر ويكمن خلف الشجـر ويهاجم المخـافر المنفـردة، وقوافـل التموين.

لجيون رومانية في صراع ضد البدو هي بمثابة عوامة تحمل ناجين من الغرق، ويحيط بها ويدور حولها وينوي مهاجمتها قطعان خفية من القروش المفترسة.

استعمال الخيّال البدوي يستوجب تنظيماً بدوياً. بمقدورك أن تطوع الجندي الماشي إفرادياً وأن تدمجه في وحدته مع غرباء عنه، ومثله. أما استعمال الخيالة البدو فيستلزم وجود عصبة بدوية، وكوادر من البدو. في الخيالة تتطوع القبيلة بقيادة أميرها وشيوخها.

هذا النمط اضطر قرطاجة إلى الاعتراف بالزعماء الصغار وإلى منحهم سلطة يمارسونها بحسب أعرافهم على بني قبيلتهم. وهذه السلطة طالما أنكرتها الدولة القرطاجية على زعماء القبائل وعلى كل من قال أنا الفتى.

إذن، بغية خلق سلاح خيالة سيد الميدان، ساعدت قرطاجة على تأسيس دولة نوميدية، على أبواب المدينة. مملكة خجولة بدون عاصمة ولا حدود ولا أرض، ولكن هذا النموذج سيزدهر في افريقيا وسيكون عما قليل قدوة لكثيرين. فالجماعة البدوية المتلاصقة تعتاد أن تطيع لأمير من عصبيتها. قوم الغارامانت المهزولين الجائعين المسوسة أسنانهم بسبب التمر والعناب البري، سوف يخيّلون، تحت علم موحد، مع خيالة الأوراس وسهول الحمامة. هكذا أعطي قائد الخيالة واعتُرف له بسلطة عسكرية دائمة يمارسها حتى على الأرض التي يعيش عليها الفنيقيون منذ سبع مئة عام، والتي ثمّروها وأخصبوها بالماء والسكة والشجرة والقناة والساقية. وحول الزرع الأفريقي الشاسع لم يعد البدو جوالين رحّلاً تائهين طيّاحاً وعصابات، بل معسكرات وخيالة نوميديون مستقلّون أسياد وحلفاء لقرطاجة، في انتظار أن يحالفوا روما غداً ضد قرطاجة ولكي يسودوا على كليهما.

المشاة المرتزقة سببوا لقرطاجة ألف همّ وألف مشكل. وليس آلم من خلاف ينشب ما بين دولة وقدامى محاربيها: لقد أراقوا دماءهم لأجلها، خارج حدودها، طوال سنوات، فلما عادوا إلى وطنهم بعد الحرب أخذوا يطالبونها بحق العيش. لقد شبعوا من عيشة الجفاء في صقلية. وغايتهم الآن أن يتقاضوا رواتبهم وتقاعدهم وأن يقضوا بقية العمر في المدينة.

عائلاتهم، منذ سنوات، كانوا يعيشون داخل السور الكبير. فاعتادوا على حياة الضواحي، ونشأ أولادهم في ظل المدينة العالية تجاه البحر. وصاروا يعرفون ألعاب الشواطىء والمسارح المتدرجة، والتسكع على أدراج المعابد، والمقاهي، وبيوت الليل والمواخير. لقد اعتادوا على السفن المحملة، والمرافىء المكتظة والأرصفة المختلطة، ولم يعد في نية أحد منهم أن يرجع إلى حياة الصحراء والرمال والشمس والطرقات التي تغور في

طوايا الأفق والأسرار. لذلك اضطرت قرطاجة أن تقسو بوحشية خارقة ضد المرتزقة بعد أن عجزت عن لملمتهم وضبّهم وتأهيلهم لأعمال الزراعة. فقد استوجب الأمر تطويع جيش نسّاجين وعمال مرافىء وطحانين كيما يبيدوا الجنود القدامى المملوئين كلوما في خدمة قرطاجة. وتوجّب أن تدافع قرطاجة عن ذاتها ضد أولئك الذين دافعوا عنها عبر البحر كيما تمنعهم من الإقامة فيها في آخر أيامهم كبدو مدنيين، وكحثالة حضر نهابين. متسكعو الشوارع والمرافىء والأسواق يرفضون أن ينقلبوا كما كانوا أصلاً ثعالب صحراء وواوية زروع.

من يجهل هذه الأزمة المؤلمة فإن مسرحية سالامبو قد عمّمتها مضخمّة ومدبّرة...

* * *

ليس من السهل الهينّ أن تسرّح مرتزقة خيالة. ماثو Matho، زعيم المشاة الليبي تحوّل لقلاقاً على الطرق. ماسّينيسّا، الأمير الخيّال الفارس، سيكون ملكا وأي ملك!!.

مرتزقة

مأساة قرطاجة هي أنها احتاجت للبدوي. مأساة طالما أجّلتها بفضل صبرها ومصابرها وقوتها ونفوذها ودبلوماسيتها وأحابيلها بين القبائل والأحزاب والعصبيات والزعماء والمصادرات والعقوبات.

احتاجت قرطاجة لعدوّ الحضارة اللدود، المخرّب، الجرادة، القرصان، الثعلب، الغازي المغير المحرق المدمر..

قرطاجة احتاجت إلى ابن المدر كمعاون، كخادم، ثم كالمدافع الأوحد عنها.

أهي مفارقة غريبة، أم حقيقة مجنونة، أم حساب ولا أدقّ في طوايا الدهر؟.

قرطاجة المسالمة، الشغيلة، المجتهدة الكادحة المنضبطة، ناطورة الكروم والشجر والثمر والزهر، مدينة التجارة والبخور، اضطرت لأن تغيّر سياستها وحكمتها وسرّها بين ليلة وضحاها. لقد استدعت إليها أولئك الذين كانت تبعدهم وتضبطهم، وتطفّشهم وتقسّمهم. فجمعتهم وسلّحتهم وولّت عليهم قواداً منها، ودربتهم على القتال. إزاء أخطار روما والشمال وغزوات آتية من اليونان ومن صقيع القطب وبطاح آسيا لجأت قرطاجة إلى بني أرضها وجيرانها من البدو.

المرة الأولى التي احتاجت فيها قرطاجة إلى سيف أوكلت بالسيف ألدّ أعدائها.

دربت البدوي على ملاعبة الأسنّة، وعلى استعمال عربة القتال، الفيل. بل أدخلت قرطاجةُ إلى داخل أسوارها، وإلى مقادس المدينة، وإلى قلعة القلعات، وإلى أساطيلها، أدخلت متلاف ريفها وخرّاب الزرع والضرع والعمران.

بعد ألفي سنة نتساءل أما كان على قرطاجة أن تجند عمّالها ومهنييها ونسّاجيها وحدّاديها ونجّاريها وصاغتها وعمّاريها وفخّاريها ودبّاغيها وصيارفتها وزارعي الضواحي الأقرب، بدلاً من استدعاء بدو الصحراء؟!.

قرطاجة لم تكن غبيّة ولا قصيرة النظر. فهؤلاء الذين عددناهم بمهنهم من أبنائها لا يعرفون العمل في الهواء الطلق ولا يتقنون صناعة الحرب ولا ملاعبة السلاح. فالطقس حار جداً في افريقيا والفلاح لا يعمل إلّا في الصباح الباكر وعند المساء الرطب، عند الفجر وعند النجر، وما بينهما يلجأ إلى الظل الرحوم.

ثم إن عمال المدن، على اختلافهم، هم أهل سلم معنوياً وجسدياً. فإذا ما أرسَلْتهم في غير مهنهم فلن تنال منهم نتيجة.

ان ما في تجارب الأمم والدول التي حوّلت عمال المدن إلى فعالة وشغيلة من سوء النتائج لأدلة دائمة على أن لكلٍ عملاً واختصاصاً، وأن أبعد الناس عن القتال صناعيي المدن والشوارع الضيقة.

لم تجنّد قرطاجة عشرات الألوف من المرتزقة. فمن أين تأتي بهم؟؟ من أرض قرطاجة الأفريقية لم يكن يمكن تطويع أكثر من ألف شاب بين السادسة عشر والعشرين، أصحاء سليمين أقوياء، أهل للسير الشاق وللقتال، صبورين وراثة، ومعافين لأنهم مرّوا في الغربلة الطبيعية والانتخاب، ومن حبّابي المغامرة والطامحين بالكسب.

حوالي الألف وليس أكثر بكثير. يقول المرشال مكماهون في مذكراته أنه شاهد من مسافة قريبة استعراض الأمير عبد القادر الجزائري لجيشه العربي (العام 1840). ويقدّر أن هذا الجيش الذي تحصّل من الاستنفار العام في المغرب لأجل الحرب المقدسة ـ الجهاد ـ لم يتجاوز العشرة آلاف مقاتل.

قرطاجة وعدت مرتزقتها بالذهب وبالغزو والسلب!؟ وبماذا كانوا يحلمون طوال

عمـر وأجيال؟؟ ابن خلدون، خـير من عرفهم، يصفهم أنهم تسحـرهم لفـظة المـدينـة، ويتخيلون أن في كل بيت كنوزاً. ترى هل تغيّروا؟؟.

نحن نعرف أن قرطـاجة احتـاطت من المرتـزقة ففـرضت عليهم بعض الوقـايات: فـاستقدمت إلى شبـه الجزيـرة، داخل السـور الكبير، بـين الحصـون والبحـر، عـائـلات المـرتزقـة. وأسكنتهم في المنطقـة التي تسمى المغارة (خـارج المدينـة!!) وجعلتهم رهـائن لديها.

أطفال ونساء هؤلاء الخرابين، شاهدوا من أعلى قرن قرطاجة أهلهم الذاهبين بحراً نحو صقلية للدفاع عن الحضارة الفنيقية، وعن الإمبراطورية التي يهاجمها برابرة شقر همج قادمون من الشمال.

أتكون قرطـاجة قـد حسبت أنها ضربت عصفورين بحجـر واحد: تبعـد عنها آفـة تزعجها، وتبعث ضد قراصنة أروبا مـرتزقـة يحمون قيم فنيقيـا ـ كنعان ـ حِمْيَر ومصالـح قرطاجة.

فهل يضبط حساب الحقل والبيدر؟؟.

سيكون فشلاً عظيماً.

مازينيسا

فلنتذكر دوماً أن تاريخ الحروب الفنيقية هو تاريخ الصراع بين روما وقرطاجة، وتاريخ الصراع الطويل بين مفهومين للاقتصاد العالمي. كلاهما يرفض أن يقسم العالم إلى مناطق نفوذ، وكلاهما يودّ لو يسود العالم جميعاً. فلا بدّ لكليهما من اسقاط الآخر وإبادته.

بدو افريقيا لم يتداخلوا في هذا الصراع إلاّ كرديف مسرحي، كأداة في يد أحدهما أو كليهما. ولربما حسب البدو أن بإمكانهم تغيير طبيعة الصراع تغييراً جذرياً، وأن يشقلبوا الرهان القائم، فيتحوّل البدوي من دور الأداة إلى دور الشخص الثالث «المتآمر الثالث» ودور المنتصر في القتال الذي بدأ فيه كرديف لحساب أحدهما أو كليهما. فقد يصبح هو المستفيد الحقيقي من الصراع الدامي الطويل ما بين افريقيا الفنيقية وأروبة الرومانية.

فلنبحث بعمق أكثر!!.

ماذا كان مازينيسّا، وماذا كان صفاقص زعيما النوميديين والمسّاليين والموريتانيين؟؟.

افريقيان، من أصل بدوي، متشرّبان كلياً للحضارة الفنيقية، نشأا وأمثالهما في قرطاجة، أصدقاء لها، قوّاداً للخيالة المطوّعة في الإمبراطورية. حاربوا في ايبيريا 219/ ق.م. جدّ مازينيسّا، غايا Gaïa. كان سافطاً (قاضياً) في دُغّا Dougga، باسم قرطاجة.

ولاء الزعماء النوميديين لقرطاجة لم يكن سوى شعور عابر. ومجلس الشيوخ القرطاجي كان يدرك ذلك، وكان يتعطّف النوميديين بالهدايا وبمصاهرات نبيلة، وبوفود ذات مهابة وسلطة. وكان المجلس جاهزاً دوماً لإعادتهم إلى حقيقة الطاعة بقسوة عند أول مخالفة وبكل القوة التي لديه، ومتفنناً في تقسيمهم وتوشيبهم وزرع الفتنة بينهم.

ولكن روما دخلت في هذه اللعبة الدقيقة: العام 213 ق.م عرف سببون الأول والثاني أن صفاقص كان في أزمة مع قرطاجة فعرضا عليه معاهدة، وبعثا إليه من اسبانيا ثلاثة قواد يقدمون إليه عوناً ومساعدة وشكراً من الشعب ومجلس الشيوخ الروماني المندوبون الرومان عاملوا صفاقص معاملة الملوك. أحدهم ك. ستاترويوس بقي لدى «ملك المسّاليين» كمدرب عسكري لتفقيهه بالتكتيات الرومانية. إذاك تنظم التدريب العسكري عند صفاقص والنوميديين وتنظم الحرب الجماعي لنوميديّي مازينيسّا الذين كانوا يخدمون باسبانيا في جيوش قرطاجة.

ك. ستاتوريوس درب متطوعة صفاقص وغلب القرطاجيين. ولكن غايا، وقد أزعجته انتصارات خصمه، وجّه مازينيسّا الشاب وكلفه بمهمة تدمير الجيش الصغير «الحديث» الذي يقوده صفاقص.

لا نعرف تفاصيل الحرب بين النوميديين وقد حشد تيت ليف وأبيان سيرتهما بكل ما لا يقبله العقل، وبالأساطير، والأكاذيب. وهذا هو رأي جسلّ، وإنه على حق.

هوذا من جديد صفاقص صديقاً لقرطاجة، ومازينيسّا قائداً فنيقياً في ايبيريا، (من 212 حتى خريف 206 ق.م)، وأيضاً هوذا كليهما يغذّي علاقاته سراً مع بوبليوس. ويظهر صفاقص طموحه لأن يلعب دور الحكم بين الإمبراطوريتين. ويتصل ويعمّق مع سيبيون ولكنه لاينفصل عن قرطاجة. وبين القائدين تدخل صوفونيسب (صفية بعل) أخت عرزو بعل، صبية مثقفة للغاية، موسيقية رفيعة، ذات فتنة، كما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا يصمد إزاءها رجل. هل كانت زوجة مازينيسّا أم خطيبته فقط؟؟ لكنها تزوجت صفاقص في نهاية العام 205 لكي توطد حلف «الملك» النوميدي مع قرطاجة. فلما انكسر مازينيسّا إزاء خصمه في الميدان العسكري، وكان غاضباً على صفية، أنضم نهائياً إلى الرومان. هكذا أصبح النوميديون في المعسكرين. ولكن صفية عادت تزوجت مازينيسّا المنتصر.

اعتذر صفاقص للرومان عن سيرته وتحجج أن الصبية القرطاجية قد فتنته.

وأضاف أنه يعزّيه أن خصمه قد تزوج تلك المرأة اللعنة وأنها ستهلكه. أما مازينيسّا فقد انتقده سيبيون بقسوة لأنه تزوج من عدوة لروما، وأن زوجها بالأمس بعث إليه بكأس من السم.

ترى أليست صفية هي مثال للطاعة والانضباط في قرطاجة؟؟.

منذ الان تحرر النوميدي من النير القرطاجي. وأصبح مازينيسّا ملكاً يعامله مجلس الشيوخ الروماني على هذا الأساس، واعترف له بأرض وحدود، وأنه محميّ روما وصديقها المعلن. وأقامته روما في جانب قرطاجة «مثل علقة تمتص الدم حتى الموت» يقول ميشلي.

عاش مازينيسّا قرناً كاملاً لسوء حظ قرطاجة. وأخذ منهم مقاطعة أولى العام 199 وأخرى في 193 وأخرى في 192. وكانت روما تتعهد بصيانة حدود قرطاجة ضد مغامرات مازينيسّا وأنها سوف تؤنب الملك النوميدي 172 ق.م.

وإذا نفد صبر قرطاجة وقاومت مازينيسّا غضبت روما وأصرت عليها أن تضع السلاح ثم تعاقبها لأنها نقضت المعاهدة: فعليها أن تسلم مئات الرهائن وأسلحة وآلات حربية.

وأخيراً صدر الحكم الأقصى من مجلس الشيوخ على قرطاجة: على أهل قرطاجة أن يهجروا مدينتهم على مسافة اثني عشر كليومتراً (ثلاثة فراسخ) عن البحر. وسوف تهدم المدينة حتى تصير أعاليها أسافلها.

إذاك أدرك القرطاجيون أن عليهم أن يقاتلوا بأنفسهم وأنهم أخطأوا الخطأ الأكبر باعتمادهم على المرتزقة والبدو. فقصت النساء شعورهن وجدلْنَها حبالاً وتنافس الأحرار والأرقاء تفانياً وإخلاصاً وبطولة.

لقد تأخرتم.

إنها النهاية. روما كشفت أوراقها. فاحتلت المدينة التي لم يعد يحميها سوى أسوارها وصدور عمالها في العام 146 ق.م.

لم نشأ أن نقص جميع مراحل وتفاصيل هذا القتال، وأكثرها مجهول. أما المؤرخون

القـدامى فقد ذكـروا حتى النكات عـلى هواهم، ولكنهم أهملوا ذكـر الخـطوط العـريضـة والعميقة لهذا الصراع.

نذكر فقط أنه لولا النوميديـين لما كـان تمكن المشاة الـرومان من احتـلال رقبة جسر على أرض افريقيا. الخيالة النوميدية هي التي وسعت المجال وربحت النصر في زاما، كـما سبق أن فعلت في السهـول الكـبرى. سيبيـون انحصر دوره في تـأمـين مـا كـان يفتقـده مازينيسّا: المصابرة في إدارة آلات الحصار، وبعض وحدات الانقضاض.

عشية هذا الفصل الأخير من الحرب العظمى لم يكن مازينيسّا يملك شيئـاً. لم يكن سـوى ثائـر بدون جيش ولا أراض. وبعـد سقوط قـرطاجـة سيخرج من أنقـاضهـا ومن إمبراطوريتها مملكة نوميدية حليفة لروما، منظمة، وملك للنوميديين، مع عاصمة وحـاكم يضرب العملة بأسمه، وله مدن محصنة وأراض شاسعة.

وسوف نرى ماذا جنت روما. لا شيء.

الباب الخامس

قرطاجة الخالدة
وذلك السلم الروماني

سيبيون احتل قرطاجة. عزروبعل قال عنه پوليب ما شاء. أما زوجة عزروبعل فقذفت ذاتها في أتون مستعر.

سيبيون مسح قرطاجة إلى الأرض. وحمّل في الأكياس ما سرقه منها. وأحرق من قرطاجة ما لم يسرق. وظلت الحرائق عشرة أيام، يساعدها المعول والفراعة والحقد والخنجر. ثم فلحوا الرماد ورشّوا الملح كيما تعقم الأرض وتحلّ عليها اللعنة. وفرّغت المنطقة من الإنسان. ومن لم يقتل بيع في أسواق النخاسة ومكتبات قرطاجة تقاسمها البدو والهمج من الرومان.

وانتقم كاتون لأجل التين والأخضر، كيما تتم الأسطورة.

وسرقوا الذهب والفضة، والعاج والمعادن الثمينة والسجاد والجلد المشغول والخشب النادر، ومحتويات المعابد والقصور والقبور.

وظل عليهم أن يجدوا الكنز الأسطوري في قرطاجة. ذلك هو جنون المنتصرين. فهدموا كل شيء وحطموا كل شيء وفتفتوا كل شيء، حتى المقابر، وبالأخص المقابر. همج واحتلوا حضارة.

عبثاً حاولوا استلال سرّ قرطاجة.

ظل الرومان يحسبون أن ثروات الفنيقيين هي حصيلة الغزو والحيل والشطارة

والملعنة والزعبرة. ولم يدركوا نقرا من سرّ قرطاجة ولا من كنزها، ولا من تفسير ازدهارها واقتدارها.

وفيما بعد، جاء يوليوس قيصر إلى أرض قرطاجة، ونام فيها وحلم حلما، فقررت روما أن تعيد بناء المدينة. فقامت فيها ورشة هائلة وعُمرت المدينة ولم تسلّم الأرض سرّها ولم يكتشف شعب روما الكنز العظيم ولا أسرار النمو والارتقاء التي رافقت ألف سنة من دولة بدون أزمات.

وفي أيام نيرون، حلم رجل اسمه باسوس أنه رأى الكنز ولمسه بيده فركض إلى المرفأ وقابل الإمبراطور وقص عليه تدخل الأرواح والجن في المعجزة. ووصف الكنز ومكانه وعمق السبائك تحت الأرض والعوامد الذهبية.

فجهز الإمبراطور أسطولا وتحمست روما لما سيأتيها من المال تبذره في الملاعب والملاهي.

تقدم الأسطول إلى الشواطىء الفنيقية، وتدبرت اليد العاملة من العسكر. وجُند المدنيون والعسكر وانطلقت الورشة ليلاً نهارا. ثم انتحر باسوس.

وفي ليالي الشتاء المعتمة، وعندما يعصف الريح في البراري وينام أهل المدينة يظن الناس أنهم يسمعون صوت معمول يضرب في الانقاض والخراب. وبعوي كلب جعاري فيجيبه أشباهه فيتوقف المعول متنصتاً، ثم يعود: إنه إنسان، بدون قنديل، ينلمس يحفر يركش ينقب يفتش عن الكنز القرطاجي الشهير الذي ما زال يقلق روما منذ ريغولوس وكاتون وسيبيون ونيرون. أحد أحفاد مازينيسّا استشار العرافين فراح يحفر ويفتش حتى بعد ألفي عام عن ذهب قرطاجة.

على قرن قرطاجة، حيث يرصدون القمر، حيث يراقبون البحر السوري، لا تزال أسطورة تصارع الموت: هي أسطورة الكنز أيضاً. تقول ان الكنز في قعر نفق حفره القرطاجيون. والنفق ضيق وبالكاد يدخله رجل منحنٍ.

من داخل النفق يدفق ماء رائق، والكل متيقنون أن ثمة الكنز العظيم، وأنه كتلة من ذهب بحجم مئة وستين ليتراً من القطع الذهبية. جميع سكان قرية سيدي أبو سعيد، على ظهر القرن، يقولون لك الشيء إياه. ولكن الكنز يحرسه الجنّ. ولم يتجرّأ أحد على دخول النفق، لأن غضب الجن رهيب.

ولا يزال الوسواس يفعل فعله الموهوم. ولا يزال سرّ قرطاجة في قلوب وأفئدة دينها الحضارة والنشاط والعمران والتنظيم وتدريب البداوة على الإنتاج والاستقامة. وأما الهمج فلا يدركون صورة للكنز ولا للثروة سوى في مالٍ عينيّ نقديّ وفي سلال قراطيل محملة بالذهب والحلى المسلوبة. حضارتان وإنسانان وعالمنا، وقلّما يلتقيان.

* * *

ذلك السلم الروماني

سقطت المدينة، واحتل اللاتين أملاك القرطاجيين. واستُعبد الشعب المتبقي من بعد المجزرة. ولما كانت روما هي حامية مازينيسّا وزال الخصم والعدو ولم يتبقّ سوى منتصر وأعوانه، فالملكوت الروماني سيحلّ إذن بدون اضطراب ولا فتن ولا حروب. إنه الفردوس الروماني الذي أنقذ افريقيا من همجية قرطاجة. الملاك الروماني الحارس ابتدل الشيطان القرطاجي الرجيم. والسلم الروماني الذي سيحلّ هو المبرّر الأعظم للحروب التي سبقته مع أعداء السلام أهل قرطاجة. وكتب التاريخ الرسمية، اللاتينية الرومانية الأروبية، أليست تعلم الطلاب أن روما خيمت على العالم بسلمها العميم بعد أن قضت على قرطاجة الشيطان الرجيم وأن روما المنتصرة سوف تملأ العالم عدلاً وبحبوحة بعد أن ملأته قرطاجة جوراً وظلماً واستغلالاً؟ يقول التاريخ الرسمي أن روما الوريثة المنتصرة سوف تثمر الأرض التي فلحتها قرطاجة وسوف تجني وتحصد ما زرع الفنيقيون. ولكن من ذا يجهل اليوم أن روما أعجز من أن تستغل وأجهل من أن تستثمر العمل البحري الذي أنجزه الحميريون!! ليس لروما أسطول تجارة ولا تجارة ولا سياسة تجارية. روما تجهل وستجهل أبداً أسرار قرطاجة في البحر. فَشَرَتْ روما!! فهي لن ترث الإمبراطورية القرطاجية وإن غلبتها. عقلها ليس في هذا الوارد.

هكذا ضاع الإرث الصناعي القرطاجي فلم يحزه المنتصر. روما ليست مدينة عاملة وليست مؤهلة لأن تتعلم المهن الفنيقية. روما ستبدد الأسرار التي أثرت قرطاجة، ولن تتقن سوى البعزقة والتبذير.

الطرق البحرية، بين ليلة وضحاها، ستدخل في النسيان. أسرار الصناعة لن تنفع الروماني، بل ستخبّأ جميعاً داخل منظمات باطنية سرية كنعانية.

طرقات القوافل سوف تغور مع أول هبة من رمال الصحراء. أوضح شيء من الإرث الفنيقي سيخفى على الروماني.

ألم يبق إذن شيء مما صنع مجد قرطاجة؟؟.

أرض افريقيا لا تزال في مكانها، والماء الفنيقية والشجرة.

فماذا ستصنع روما بذلك؟ ينبغي أن تستفيد من جهد ألف سنة، وما عليها سوى العناية والسقاية، ثم قطف وجنى.

صحيح. سوف تستغل افريقيا الفنيقية، ولكن بالأسلوب الروماني: الإنتاج الأفريقي جميعاً سيشحن إلى ايطاليا. وافريقيا الفنيقية ستصبح اهراء روما وبستان روما، ولكن الأهراء ستجوع.

روما تستورد. روما تستهلك. روما تبذّر. روما تدمّر. روما لا تنتج: إذن لن تبادل. افريقيا تعطي كل شيء ولا تتلقى شيئاً.

فعلى افريقيا إذن لكي تموّن روما أن تتقشف هي، وأن تلغي المعادن في استهلاكها.

عليها إذن أن تفتقر. ولسوف تُذبح ذبحاً ويُمتصّ دمها امتصاص العلق، كل يوم، وبتخطيط وانتظام. وستعجّ ايطاليا بجميع ثروات افريقيا. فعلى القارة الفنيقية، لذلك، أن تشتغل كثيراً وأن تكدح وتشقى، وأن تعيش شرَّ عيشة.

قرطاجة ضحت بكل شيء لأجل السلم، فهل سيساعد سقوطها وإبادتها على تأمين سلم لأفريقيا؟.

أيانا والأوهام!! فالسلم الروماني، إذا ما وُجد يوماً، لم يكن لأفريقيا. لا في القلب والنوايا ولا في الواقع.

فأولاً، ثمة البدوي.

هو حليف روما. بل ربما كان هو المنتصر الحقيقي في الحروب الفنيقية. مازينيسّا أقام أولاً على الأرض المحتلة ولكنه أقام كبدوي. ولا ضرورة للشرح.

صبرت روما. ثم اضطربت. ثم حاولت أن تعالج الأمر.

إذاك صار عليها أن تحتل افريقيا: أن تحتلها بدون الحلف البدوي، بل برغم البدوي وقد أصبح عدواً.

منذ العام 111 ق.م حتى العام 417 ب م، طوال خمس مئة وثمانين وعشرين عاماً ستكون الحرب دائمة ومتواصلة.

ولن يكون البدوي وحده ضد روما. بل الفنيقي وجاره وربيبه وكل ما فيه ومن فيه روح من الفنيقي، على مختلف الدرجات والرتب، سوف يتكتلون ضد روما الهمجية والجائرة. الحضري المنهوب المستعبَد والبدوي العطشان، وأيٌّ عَرَفَ الحميري وتعامل معه وصادقه فهم ضد روما. كلهم جميعاً، فرادى ومعاً، ضد روما طوال خمس مئة وثلاثين عاماً.

ذلك هو السلم الروماني في افريقيا.

سنعطي بالمختصر لمحات وبعض تفاصيل وإلا فبدونها سيظل القارىء متشككاً لأنه غير معتاد أن يدرس وينقد ويمحص مسائل روما بالأسلوب الحقيقي. روما هي، في الوجدان العام، النظام والقوة والتشريع والتمدين. وأما حقيقتها فبطش وجور وسلب وغزو وتدمير.

إليكم هذه النكتة كيما يدرك القارىء بوضوح كيف وماذا كانت هذه القرون المظلمة الفظيعة في المغرب: ثارت قبائل بدوية ضد السلطان عبد الحميد وأتعبت الجيش العثماني، فأتفق السلطان مع «الشيخ» أن يمنحه قصراً وأراضي كثيرة له ولقبائله لقاء مسالمة الدولة والكفّ عن الشغب. وتمّ الاتفاق. وتسلّم الشيخ قصره والأراضي التي راح يخطط كيف يوزعها على العائلات والأفخاذ والعشائر والقبائل. وإذا به يفاجأ أنه وحيد وأن شعبه قد تجمع حول قائد بدوي آخر يخطب فيهم ويعدهم بالغزو والمكاسب وكل ما يتبع.

ذلكم هو تاريخ البدو الأزلي.

يرفضون الحضر إلا لغزوه. الحضر مورد الثروة والمونة والجمال والنساء واللهو والمواد الاستهلاكية. الحضر يشتغل والبدو يسرقون جنى الشغل. وإذا تحضّر شيخ بدوٍ بعد غزو وعمار وثراء التفُّوا حول غيره فتعود المسبحة إلى الدوران، ويتوالى التاريخ باسم آخر وبسياق يتكرر.

عودة إلى قرطاجة وروما والبدو.

في العام 111 ق.م بدأت حرب جوغورتا، ودامت ست سنوات. ولن تنتهي إلاّ بحصار مدنه من الشمال إلى الجنوب، ثالة، فكة، راما، قفصة، وبضعضعة أفياله. ولأن خيالته قوية فقد توجب استعمال الفتنة فيها والتفرقة والخيانة.

في العام 46 ق.م حرب قيصر ضد أنصار بومبيوس: معركة تابسُس Thapsus. جوبا على رأس جماعته الأفارقة انتحر في زاما. كاتون الأصغر انتحر في العتيقة، وسيبيون مات في بون.

في القرن الأول، كانت العتيقة عاصمة افريقيا، ولم تهدأ الانتفاضات: من العام 29 ق م ـ 6 ق م روما تعدّ لثلاثة انتصارات على النوميديين.

في عهد طيباريوس، 16 ب.م اشتعلت حرب النوميدي تاكفاريناس، وحرب الموري مزّيبّا اللذين أحرقا البلاد من قابس حتى سهول الهدنة وانتهيا بعد ثماني سنوات من القلاقل والمناوشات في أوزيا (أومال).

في عهد كلود انفجرت عدة ثورات جديدة: غلبا، الإمبراطور القادم، ظل بنفسه في افريقيا سنوات بسبب اضطرابات البدو التي تخيف البلد.

العام 68 م. ثار الشيخ الروماني كلوديوس ماسر وأعلن استقلال افريقيا، وأوقف جميع شحنات القمح إلى روما، فأرتكض البربر جميعاً تحت لوائه.

في العام التالي، في عهد فيتليوس، ثار حاكم موريتانيا الجديد، ألبينوس، بدعم من البدو.

فسبازيان يضطر إلى مقارعة أهل الواحات والغارامنت أصحاب طرابلس.

دوميسيان قاتل الناسامون.

في عهد هادريان قام بربري متلثّن، يدعى كياتوس وجمع البربر تحت بيرقه. في العام 122 م.، كان على هادريان بذاته أن يعاقب الموريتانيين وأن ينصب معكسر لامبيز Lambèze في قلب البلاد الثائرة.

في عهد انطونين اضطرابات عامة لم تقمع إلاّ بالقسوة والقوة الفائقة، وتتالت كذلك في عهد مارك أوريل وكومود. .

ثورات في عهد اسكندر ساويروس. وقد اشتهر قائد يدعى فوريوس سلسوس في عمليات القمع.

وقد وصل إلى الحكم أباطرة لقبوا بالأباطرة الغورديين، بعد حصول المظاهرة الظافرة. وفي العام 238 م. هجمت زمر من السكان الأصليين على ممتلكات الرومان وأحرقتها ونهبتها.

وفي عهد فاليريان أصبحت الأرض القنصلية في افريقيا الشمالية نهباً للمور الثائرين. وفي قرطاجة افتتح القديس قبريانوس اكتتاباً مالياً عاماً بين المسيحيين لفداء الأسرى.

في حقبة الثلاثين مستبداً ثار أراديون. وفي عهد أورليان تجردت حملة لقمع ثورات المور. في عهد ديوكليسيان اجتاحت الحرب الأهلية كل افريقيا الرومانية. في العام 293 م. تزعم رجل يدعى جوليانوس على الوطنيين الأفارقة وأعلن ذاته إمبراطوراً في قرطاجة. فجاء الإمبراطور مكسيميليان هرقل بشخصه ليشرف على القمع ويدافع عن تاج روما. فدارت المذابح والنفي والتهجير بالجملة.

في 306 م. أعلن حاكم قرطاجة دوميسيوس اسكندر استقلاله. فلحقته افريقيا عامة. ومن 308 - 311 ستنشأ دولة مستقلة موحدة. فاضطر الرومان إلى مهاجمة قرطاجة ذاتها وقهر دوميسيوس في سيرته (قسطنطينة). ولكن لم يسد السلم، وحصلت إذاك أخطر ثورة شعبية غازية في تاريخ البشرية، عنينا ثورة الدوناتيين. تحت حجة دينية حصلت هبّة بدوية عامة، وحرب ذئاب وسطو وتخريب وحرائق. لا جيش ولا قائد ولا معارك ولا حصار مدن. لا هدنة ولا سلم. الأملاك غُزيتْ وكلُّ بيت وكل بستان. وقد كتب عنها مسكري Masqueray ووصف الأهوال والهمجيات التي ما انفكت تتكرّر منذ ذاك القوت. زعيم المور المدعو فيرموس، وقائد العمليات والعصابات، راح يبشر بحرب مقدسة ضد روما. فهبت افريقيا كلها معها. ولم يستطع الكونت تيودوس أن يقهر فيرموس إلا بعد سنوات من الحرب والمعارك. والحق أن فيرموس لم يهزم إلّا بسبب الخيانة. ولما انتصر تيودوس أراد أن يعلن ذاته إمبراطوراً في قرطاجة ولكن غراسيان فاجأه بحكم الإعدام وقطع رأسه 376 م.

وقام Gildon (خلدون) شقيق فيرموس بثورة من بعد أخيه، يكمل ثورته، ويدعو

المور للجهاد. وكانت حرب القمع هذه المرة أطول وأعنف. ودامت حتى العام 408 م وما بعده.

عندما أعلن هيراكليان ترشحه للإمبراطورية حصلت ثورات البربر. فأعدم هيراكليان العام 314 م في قرطاجة.

العام 417 م حصلت الثورة الكبرى بقيادة الكونت بونيفاس، صديق القديس أوغسطينوس.

ثم حصلت الهجرة الفاندالية. يقول ا. ف. غوتيي:

«لو لم تثر افريقيا الشمالية ضد الرومان، ولولا أن القرطاجيين والنوميديين والمور والبربر كانوا الحلفاء الفعليين أو الموالين بصمت للفندال الجدد، لما كان جنسريك غلب روما واستولى بهذه السرعة على الأرض الأفريقية الشاسعة التي تستعمرها روما».

إذن لقد قاوم الأفريقي روما مقاومة غير مهادنة، وأجبرها على مجهود عسكري متواصل طوال خمس مئة عام وتزيد. قرطاجة كانت أمّنت السلم لأفريقيا طوال ألف عام، وسقوطها كان إعلاناً وايذاناً بانتهاء السلم لأفريقيا.

روما لم تزد على الإمبراطورية التي مدّنتها قرطاجة شبراً واحداً. ففي داخل موريتانيا، لم يكتشف علم الآثار أي أثر لروما ذا أهمية. روما غطّت منطقة قرطاجة بالعمارات الشاهقة، إلا أنها لم تضف متراً واحداً إلى الأرض المزروعة.

أسرار قرطاجة الباقيات

ثمة خطأ تاريخي حول بناء الرومان لمدينة قرطاجة. الحقيقة هي أن الرومان لم يعيدوا بناء قرطاجة الكنعانية الحميرية العربية ولم يرفعوا أنقاضها ولا استعملوا أساساتها. بل بنوا قرطاجتهم الرومانية إلى الشمال من المدينة الأصلية، في السهب العالي الذي يطلّ ويشرف على الخليج، ولم يضمّوا من قرطاجة الأصلية سوى تلة برصة حيث كانت القلعة الفنيقية الأصلية. وجعل الرومان من قرطاجة العظمى الأصلية مكبّاً للزبالة والأقذار إمعاناً في إهانتها والانتقام.

ولكن قرطاجة وقدسيتها الحضارية ومدنيتها المتكاملة والسعيدة قد بقين برغم الهمجية والتدمير. الرومان استرقّوا الفلاحين الأحرار من القرطاجيين الكنعانيين ذاتاً ومن مواطنيهم في البر الأفريقي. ولكن هؤلاء المسترقين قهراً بقوا أمناء للأرض للشجرة للعمل للتعاون والنتاج الحيواني وللإنتاج. بقوا أوفياء للحقل والبستان والغابة ولذكرى المدينة الشهيدة وللغة الكنعانية المؤدّبة وللآلهة الرحومين. أوغسطين، مطران هيبون، المطوّب قديساً مسيحياً فيما بعد، يشهد في اعترافاته وفي مدينة الله: وهما أشهر كتبه = أن افريقيا ما انفكت تتكلم الفنيقية القرطاجية طوال الاحتلال الروماني وحتى آخر يوم منه. وإذا كان الساحل قد تكلم أقلّه باللاتينية إلا أنه ظلّ على لغته الأصلية، وكذلك ظلت الأرياف تتكلم الفنيقية وحدها ودون سواها. وبرغم انتشار المسيحية في الشمال الأفريقي جميعاً فإن قرطاجة وعالمها ظلّوا أمناء للثالوث الفنيقي. وبعد انتصار الإسلام ظلت افريقيا القرطاجية محتفظة بالطقوس الفنيقية الحميرية العتيقة وبشعائر نسي المجتمع أصولها وأسبابها.

روما لم تخلّف في قرطاجة من مدنيّة اللاتين أي أثر باقٍ، ولا مزارعين من ايطاليا ولا مؤسسة شغّالة ولا عملاً نافعاً. جُلُّ ما خلفت روما سيرْك للهمجية وأقواس نصر بدون عدّ وثكنات دارسة التّعَبَ بها الريح والشمس والمطر والحدثان. الدهر أفناها وحوّلها يباباً خراباً.

أما قرطاجة فقد حوّلت البور إلى بستان، والأراضي البعل سقتها وروتها وقنّت للمياه البعيدة وبنّت للإنسان والحيوان وعملت ببطء واجتهاد ومثابرة ودأب ودربة وحنّتْ على النصبة والشتلة والكرمة والزهرة وروتها بالصبر ودجّنتها ببطء وعمق وأصالة. قرطاجة نفحت افريقيا بروح جديدة وبوجدان مجتمعي وبعادات وأزياء وذوق ولغة واداب وبمنهج تفكير وأسلوب تعبير.

قرطاجة أصبحت افريقيا، وافريقيا أصبحت قرطاجة العظمى ولن تكون سوى ذلك على مرّ الأجيال، ولا تزال. افريقيا بقيت أمينة مخلصة لذاتها الجديدة الأصيلة أي للذات الحميرية العربية الكنعانية الأمّ وتغلّبت بوجدان وعناد على مبرد الريح والمطر والشمس والقدر. وببداهة وعفوية وفطرة وثم بعقل وتصميم ومشيئة أدركت افريقيا أن قرطاجة قد جاءتها بالهوية الوحداء التي ستعانق الزمان المتحوّل وسرّ الدهور المنسربة إلى فوهة العدم. وعلى هذا الوجدان الكلاني سيتأسس الفتح العربي الإسلامي عما قريب، بعد زوال الأثر الروماني العابر وبعد انقضاء الزمان الفندالي.

* * *

اليوم نفتش في الأنقاض المتكدسة، في الردوم والمترسبات المتفرقة، عما بقي من الأعجوبة القرطاجية ومن مغامرة الألف عام. وما هي بالمهمة الهينة ولا بالعمل السهل. فقد ألصق الأعداء الحاقدون وذريات منهم ذوو مظهر ثقافي وعلمي، عناوين ويافطاتٍ وأسماء جديدة على الأشياء الأصلية، كما يفعل الصهاينة اليوم في فلسطين السورية العربية. لقد زوّر الروماني كل شيء ورَوْمَنَ ولَتَّنَ التراب والماء والهواء والجغرافيا والتاريخ والإنسان والحيوان والحرف والآداب، وادّعى أن الزمان به ابتدأ بعد فترة امتدت منذ بدء الخليقة. ولكن الروماني زال والفندالي ذاب والأفريقي القرطاجي العربي بقي وباقٍ. ومن ليس على يقين من أصول حميرية كنعانية أو بأسماء عربية أخرى راح وما زال ينتمي بقصد إلى جذر عربي يشرّفه وينبل به نبالة حضرية وبهوية غير عرقية. وإن ديمومة المأتى القرطاجي الحميري حتى اليوم في الأخلاق والعادات والتصرف لتستوقف الباحث

السوسيولوجي المدقق. فالنساء الوطنيات مثلاً ما زلن يلبسْنَ اليوم الجواهر الفضية الخالصة كالتي كانت النساء الليبيات يتبرّعن بها إلى المرتزقة الثائرين وإلى جيش هانيبعل العائد من ايطاليا. وحتى اليوم نلاحظ أن الخفّ الذي ينتعله الناس اليوم هو إياه الموجوْد على عملة قرطاجية مكتشفة حديثاً.

العامل في الأثريات القرطاجية يعجز عن الاستعجال أو حرق المراحل لأنه يعمل من بعد تهديم عدو مسستم وبعد أن عاثت الأشباح طوال ألفي عام في كل شقّ حجري أو مغارة تتبدّى أو أرض تحوم فوقها أساطير العجائز عن كنوز مدفونة وأسرار مرصودة. ومهما جهل العوام أم لم يأبهوا لما بين حاضرهم والماضي القرطاجي من عرى وعلاقات فالحقيقة التاريخية مهما قلّت والآثار مهما تبعثرت تؤكدان بثقة وأمانة أن صلب افريقيا الشمالية وما هو باق فيها وما صمد للزمان والدهر وللبدوي والجمل فإنما هو قرطاجي لا غش فيه أينما تنقّل العالِم المصغي المتسمّع، في قلب افريقيا الداخلية والحميمة، وفي الواحات وفي الغابة الاستوائية وفي الحجّار. قرطاجة قد انبعثت في الأندلس ولوزيتانيا وشواطىء البحر العتيق منذ قرطاجنة وملقى «Malaga» ومالطة، وفي جميع علوم البحر وأسراره وأنواع السفن والشخاتير والأشرعة والحسكات والجاروفة والشبكة والأفخاخ.

خريستوف كولومبوس، ماجلاّن، فاسكو دوغاما، آل دوريا، برازّا، أميركو، لم يكتشفوا أكثر مما كان قد عرفه القرطاجيون ومارسوه قروناً. جميع التالين بعدهم جهدوا زماناً طويلاً حتى اكتشفوا أسرار المياه والرمال والمسالك العظمى التي كانت قوام المؤسسة القرطاجية العظمى.

انتقام قرطاجة العربية

هل انتصرت روما حقاً؟؟.

بل اللجيون والبداوة وطيش أمراء خونة تضافروا على مدينـة ـ دولة ـ إمبراطوريـة عمرها ألف سنة وعمر حضـارتها 3000 سنـة نشأت في حضرمـوت اليمن وترعـرعت ورشدت في صور وسورية وأفرخت بيتاً جديـداً في المغرب الأكـبر. هدّمـوا المدينـة وخنقوا حضـارة وألغوا عالماً ينتج يتـاجر يتبـادل يعمّر العمـران يمصّر الأمصار منـذ ضباب سكـوتلندا حتى وادي النيجر، وبعد أن مسح البرّ والمتوسط والصحراء الكبرى راح جنوباً جنوبـاً حتى دار حول افريقيـا وحجّ إلى منـابته ومنـاسكه الأولى عـبر المحيط الهندي وبحـر عُمان وسقـطرة وعدن، وتابع حتى البحر الأحمـر والعقبة. وثمـة أطروحـة تقول ان المنـاهر = Men hirs = المنصـوبة منـذ أعالي سكـوتلندا حتى طـرف رأس الـرجـاء الصـالـح وحتى اليـابان، عـلى مشارف الأرض، هن منـائـر حجـرية بغـير نـار، للسفن والبحّـارة الفنيقيين.

الفرع القرطاجي الفذّ من المشرقية العربيـة الأمّ بنّى وقنّى وعمّر ومصّر وجنى ودجّن وافتلح خطّ الاستواء وبستّنَ حيث لم يُضرب معولٌ منذ فجر الزمان. وشقّ في الصحاري خطوط قوافل وأعلمها بالآبار والمناخات والمحطات والمناهر وبالجاليـات والمخافـر والمرابط والمصارف، وضبطهـا بالتشريـع والأعراف والقـوانين والتقـاليد ومـراتب الشرف والأمانـة والثقـة والوفـاء. هذا الغصن المتـأصّل عن الكـرمة الأمّ تكبّش بـالأرض الجديـدة وتكنّـة بالأقوام الأصليـين = الذين ربمـا كانـوا من أرومته وقـد سبقوه في زمن مجهـول = فربّـاهم

وفتّحهم وأرشدهم وتساوى بهم قـدر ما يتحمّلون من حـرية ومسؤوليـة، وأدار وإياهم ورشـة مجتمعية تعاونية حضارية ملأت البحر والبر قوافل وأساطيل ومنائر ومنـاهير تُعْلم المـراحل والمرافىء والموانىء والمحطات وتستقبل وتحمّـل وتقايض وتنقـل إنتاج القـطب إلى الاستواء وتـدور حول افـريقيا، ولـربما وصلت إلى الشرق الأقصى عن تقـدير وعلم وسعي بـدليل المناهير الصخرية الشاهقة المشادة منذ أعالي سكوتلنـدا وطوال سـاحل افـريقيا الغـربي ثم أقصى الجنـوب والشرق، ومنـاهـير أخـرى مشـابهـة كلياً في الشرق الأقصى كـأنها معـالم للمراحل والمرافىء. وأما الوصول خطأً بفعل عواصف عاتية أم بمغامرة باهرة إلى البرازيـل فأمر لا يزال يناقَش ومتروك للحفريات ولما يثبت اليقين أو ينفيه.

ونعود نسأل: هل انتصرت روما حقاً؟ هل أخضعت قرطاجة للمدنية الرومانية (!) وتقبّلتها قرطاجة بديلاً عن مدنيتها الذاتية وعن الحضارة السورية الحميريـة العربيـة الأمّ؟ وهل اتخذ الإنسان القرطـاجي والمجتمع قيَم رومـا ومناقبيتهـا مقياسـاً له، حتى وإن يكن المجتمع قد أُخضع قهراً للشرائع الرومانية؟؟.

الجـواب اليقين طـال قرونـاً. الفصل الأول فيـه أن رومـا جمّت أسـوار قـرطـاجـة وأحرقت ما لم تسرقْه ونقلتـه وباعتـه. ومسحت أرض قرطـاجة ودحتهـا دحّاً وحسبت أن المعول الهدّام والنيران قد أخفت معالم الجريمة إلى الأبد.

ولكن هـذا المغنم المرّ أرهق رومـا قرونـاً ولم ينفك يحـزّ فيهـا حتى بـدايـات العهـد المسيحي والقرن الخامس فأحرقت هي بـالنار ودمّـرت بالمعـاول يحملها قبـائل مسيحيـون ولكن على غير مذهب روما.

وظلت قرطاجة = شتاتهـا وروحها وشهـدودتها = رابخـة في الطوايـا المقهورة وتحت أبشع جور حتى أصبحت المدنية القرطاجية السورية هي العليا في الإمبراطورية وتتوّج على عـرش روما إمـبراطور فنيقي يـدعى سبتيم صفـيرس = Severe = (صفـير؟) المـولـود في طـرابلس الغرب أي في الجنـاح الشرقي من الإمـبراطـوريـة القـرطـاجيـة. وكـان يتكلم الفنيقية، وأخواته لم يتكلّمن إلا الفنيقية في القصور الإمبراطورية ومحـافل رومـا. فدخلت العبادات والدين واللغة والتقاليد الفنيقية في إثر الحكم، وتزوج الإمبراطور العـظيم امرأة فنيقية.

ابن سبتيم صفيرس الإمبراطور كرك الله = Caracallah = استغرق أكثر من أبيه في

إعـادة الاعتبار والتشريف لحضـارة قرطـاجة وتـاريخها. ونصب في أهمّ المـدن والشـوارع والساحات عبر الإمبراطورية جميعاً تماثيل لهانيبعل وللإله بعل.

ولقد انتظر هـانيبعل طـويلاً وانتصر وانتقم، وإن ألف سنـة من حسابكم كيـوم في عين الله، وكان الانتقام قدراً مكتوباً على جنسريك ملك الفندال الآلينيـين. فما أن أطـلّ هذا المصـطفى حتى والاه الشتات القـرطاجي المقهـور واليفظ والمترصّـد. فتـولّـوا هم الجنـاح البحـري في الصراع الفندالي ضـد الرومـان في القرن الخـامس م. وما كـان بقـدرة هـذا الشعب الجرماني ـ السـلافي البرّي والقـاري أن يجتاز إلى افـريقيا وأن يقـوّض سلطة روما ووجودها رمة لولا معونة البحارة الفنيقيين.

الفندال خيّالة. وخيّالةٌ زوابع كالأعاصير إذا هبّت. بعد سنوات من ذهاب وإيـاب ومشـاوير عـبر أروبة من الشـمال إلى الشرق ثم إلى الجنوب الغـربي وقف جنسريـك عـلى الصخـرة الأروبية مقـابل مـوقف طارق بن زيـاد بعد قـرن: خيّالـة قاريّـون إزاء البحر. جنسريك لا علاقة له بالبحر. مـا من غاز اجتـاح الإمبراطـورية الـرومانيـة كان بحّـاراً. لعنتهـا الحاقّـة حتى ذلك اليـوم كانت شـمالية بـرية، ولكن هـذه المرة = مـع جنسريك = ستستفيق قرطاجة الشهيدة إلى أن ساعتها عـادت تدق وأن النبض المخـتزن سوف يخفق. وجنسريـك، سيف الله، سوف يـذهب أبعد من أي غـاز غزا رومـا. ولكن كيف يجتـاز عشرة ألاف خيّال الممر البحري من اسبانيا إلى افريقيا؟؟.

الجواب لدى بحّارة قادش الكنعانيين الذين ميدَنَ جنسريـك وخيّل طـويلاً حتى أمَّ إليهم.

ومن قادش؟ وماذا هي؟ هي مـرفأ في جنـوب اسبانيـا فنيقي المنشأ والمبنى والمسكن والمهمة، بناه الفنيقيون من قبل قرطاجة، وتولته الدولة القرطاجية طوال عهدهـا. وقادش مع ترشيش بالأخص، توأمان هامّان من عشرات المحطات البحرية والمصـارف التجاريـة التي احتفظت بأهلها الأصليين عند مصبّ الوادي الكبـير. والبحارة الفنيقيـون المتملكون طويلاً لهذا القطاع المحفوظ من الإرث القرطاجي هم سينقلون جنسريك وخيّالته وشعبـه إلى افريقيا ليقضي على البقية الباقية من دولة الجور والبهتان.

الفنيقيـون أولئك هم أسـطول العبـور. ولكن الـدور لم يتـوقف عـلى هـذه المهمـة فحسب، بـل سيكون دورهم الأبقى في مغـامرة جنسريـك أن يحافـظوا له عـلى سيطرتـه البحرية في الصراع الآتي. جنسريك يبقى سيد البحر أو يباد، قال غوتيي.

وقد ظلّ جنسريك سيداً على البحر، أي ظلّ على اتصال مع شعبه الفندال المتوطن في اسبانيا الجنوبية في الفندلوس أي الأندلس. وبحارة العبور ظلوا هم سلاح البحرية العسكرية والتجارية في مملكة الفندال القرطاجية. البحرية القرطاجية والت جنسريك بدون حدود وتوحدت مع قضيته وأنزلته إلى البر الأفريقي واسترجعت أرض المدينة العظمى وأمنت لحليفها جنسريك البرّي السيطرة المقتدرة في المتوسط الغربي، ميدان قرطاجة الحميم والصميم.

قرطاجة المتحررة من روما حررت افريقيا جميعاً تحت تاج جنسريك الذي لا يبدو لنا مطّلعاً على تاريخ الأزمنة ولا على حيثيات الصراع العتيق. ولكن جنسريك هو، لا ريب، رمز لأسرار التاريخ وحكمة الزمان وتقلّب الدهر ولتلك الأيام نداولها بين الناس. بعيد عنا ادّعاء كنود أو مغرور بأن جنسريك لم يكن سوى منفّذ آليّ أو دمية يتلّعب بها القرطاجي المنبعث في الظل. نعوذ بالله. بل كان جنسريك رجلاً عظيماً طيباً ذا حظّ ورسالة، وكان محاطاً بمستشارين كما الكبار جميعاً. وكان يعرف قوته وضعفه ومفاصل مغامرته الفذّة ودوره التاريخي. لذلك نجزم أن جنسريك قد تقرّب من المؤسسات البحرية في قادش وترشيش وزار الأحواض وشاهد الصناعة والملاحة والاتقان والدربة، وقدّر الإمكانات وسَبَرَ الدوافع الكامنة والسرائر. وحَدَسَ الأرومة العتيقة العاتكة ذات الجذور الدهرية لدى أعداء روما هؤلاء. وكيف لا يتحسس قائد ورجل دولة مثله صوفية الحنين والذكريات والنهدة إلى رجاءٍ ما انفكت تتناقله أجيال هذا الشعب المهجّر والمثقف للعودة والانتقام؟؟.

هؤلاء القرطاجيون، آل الرجاء المتهرب، الصابرون والمصابرون ريثما تدول دولة روما، كانوا لا ينفكون يتأملون في أسباب النكبة ولا ينفكون أيضاً يتقمصون روح أمتهم وحضارتهم ويحاولون أن يكنّهوا بقدرتهم وأخلاقهم وعملهم صورة البعث الآتي.

جنسريك الخيّال، مثل هانيبعل، اتّحد مع ذريات حنّون البحّار الأعظم. وكان تحالف الخيّال الآسيوي مع البحّار الفنيقي هو حقيقة الوقت ووجدان الزمان الذي عاد ينيخ عند إقدام بعل الصبور.

ولكن قرطاجة المنبعثة هذه المرة لم تعد إلى شواطئها المحببة وأرضها المحروقة كيما تحافظ على السلم بأي ثمن وكيما تمارس العمل الصامت الدؤوب والصبر والمصابرة لأجل تجارة وقوافل، ولتخضيل الصحراء وزرع البحر بالمستحيلات.

لقد تغيّر الزمان وتغيّرت القلوب. قرطاجة التي ليست، في نهاية الحساب، هي سيدة الصولجان، تعود هذه المرة لتنتقم. ولسوف يقوم الأسطول الفنيقي الفندالي بقرصنة جبارة لا سابق لها كأنّها خيالة يغيرون فوق الماء. وستكون الحرب البحرية على روما بغير هوادة ولا توسّط ولا توقّف، بل تدمير حتى الفناء. وكأنها الحروب القرطاجية الرومانية السابقة تتكرر بتغير طفيف. بدأت بغزو منسق للشواطىء الايطالية ثم خُرِّبت صقلية والبروثيوم سنوات متتالية. وأخيراً، سبحان الله، مُسحت روما مسحاً من الأساس وكأنّ سيفا السماء والأرض يتعاونان عليها ويتعاوران وخلفهما أرواح المعذّبين في الأرض والناقمين بحق والذين لحقهم جور وقهر وعدوان من تاريخ لم تعرف البشرية أبشع منه. يوم القارعة هذا كان 2 حزيران ـ 455 م. إحفظوه وكرّروه في المشرق العربي!!

* * *

لقد أورق التين !!

لقد أورَق التين وقامت قرطاجة من بين أنقاض جبارة لم تستطع روما طوال ستة قرون أن تمحوها أو تقتلعها أو أن تغمرها بمدّ من الظلم والتجهيل والنسيان. وعادت المدينة حية وذات نفوذ وأعمال وتجارة. يقول غويتي: «الأسطول الفنيقي الأعتق تقليداً لم يتعيش مرة على القرصنة بل من تجارة واسعة احتفظت بها قرطاجة لذاتها في دائرة تتجاوز جبل طارق إلى بريطانيا وسكوتلندا شمالاً، وإلى خليج غينيا جنوباً. أما هذه المرة، في هذه الدورة الجديدة فليست قرطاجة جنسريك شبيهة بقرطاجة حنّون من حيث القاعدة الاقتصادية لقوتها البحرية. إنها أشبه بالحري بدول البربر في القرن 16 و17 و18. إنها أشبه بجزائر بربروس.

ومع ذلك فقد بَعَثَ جنسريكُ = لا بمشيئة واعية وقاصدة وإنما مدفوعاً بأحداث زمانه ومنطقها = الإمبراطورية الفنيقية كما كانت في أحسن أيامها في المتوسط الغربي. وقد كان هذا الرجل مقاتلاً مدركاً وقائداً قومياً ورجل دولة. قد لا يكون ملمّاً بتاريخ افريقيا ولكنه بثاقب ذكائه تعاون كلياً مع جميع العناصر والأثنيات الموجودة وتعايش تحت حكمه رجال البحر والبر والحضر والبدو بفضل النظام والتسامح فتمازج بشر متعدّدو الأصول والمنابت والأنساب والإنتاج والمواهب والمشارب. وتجاوروا وتصاهروا بدون صدام يذكر

أو تزاحم أدّى إلى الفوضى أو إلى تعطيل الدولة. لـذلك يمكن القـول ان الحرب الفنيقيـة الرابعة قد حصلت بعد خمس مئة سنة وكانت انتقاماً من الحروب الثلاثة السابقة.

بعد جنسريك أدرك كل جمع من هذه الدولـة ما كـانت أعجوبـة جنسريك البـاهرة وما كان دوره الفذّ. فما أن مات واهتز الحكم قليلاً حتى شعر البدو أن نظامه القوي كـان يلجم حماستهم القتاليـة وحميتهم الجامحة والعجرفيـة الكأداء. فـما أن شعروا كـالحصـان الأصيـل أن يد الـدولة تغـيرت أو ارتخت عنهم حتى ماجت جموعهم وهـرجت. وتـزايـد هرجها بقدر ما أن خلفاء جنسريك الراحل، هونريك وغوانداموند وتراساموند وهلدريك كانوا مهتمين بمصلحة الآريوسية Arianisme أكثر من سلامة العرش ومن الوحدة الوطنية الطرية التي لم يستكن هيجانها إلا بسبب القبضة القوية التي كان يمسكهم بها جنسريـك. ولكي ينفذ الخلفاء سيـاستهم في كيد الكـاثوليـك الحضريين = المتـطلعين أصـلاً إلى روما والبابوية = راحوا يعتمدون على قوات البادية المواليـة لهم. ولكن البدو أشـدّ كفراً ونفـاقاً وأولى ألا يتسلّموا أمن الحضر وشؤون المدينة طالمـا هم على بـداوتهم وبدائيتهم. فـما عتم الأمر أن أفلتت هوّارة البداوة والهردات الداشرة والمسلّحة على البلاد والعمران فسرعان ما تقلّصت افريقيا الفنـدالية إلى السـاحل والشريط البحـري. وبين 477 - 503 سيـطر البدو والأقوام الداخليون على البلاد بموجة من النار والدم وعطّلوا الحكم الفنـدالي رمة. البـدو خانوا قـرطاجـة كما خـانوا زنـوبيا في المشرق والآن خـانوا الفنـدال. وإنه لقـدر عجيب. سيبيون انتصر بالبدور على قرطاجة. وجنسريك انتصر بـالبدو عـلى روما، وكنّسهـا بدون هـوادة. حتى سقف معبد جـوبيتر جلبـه إلى قرطـاجـة مـع رمـوز الحضرة الإمـبراطـوريـة وشعـائرهـا وأدواتها. جنسريـك الآريوسي المسيحي كـان يكفّر رومـا الكاثـوليكيـة وعبـاد الإمبراطور وعباد الأصنام على حدّ سواء. بل استقدم معه الإمـبراطورة يـوذكسية وابنتيهـا وعدداً من أعضاء مجلس الشيوخ ومن الأرستقراطية المترفة والجميلة. واستقدم ما استطاع من النخبة المهنية كالصيقلي والسنّوري (القردحجي) والحـداد والنجار والصـايغ والمثقف، وأسكنهم في العاصمة الجديدة قرطاجة. ولكن جنسريك لم يـدرك كما الحمـيريون من قبله أن البداوة تُحكم بالقوة والهيبة وتستمال بالمال وبالتحضير وبالمشـاركة المتـدرجة في المجتمـع الموحّد. أما إذا وهن الحكم برهة ونامت عين على الحـدود أو برز خلل في الـدولة المـدنية فإن في البداوة حدساً وحساسية وبصيرة وعيناً ثاقبة، فيعرفون للحال أن ثمة وهناً أو عورة أو ثغرة في السور والترس فيتحرك الجراد البشري بقدرة قادر ويلتهم ما هبّ ودبّ ونبـت وما تقنّى وانبنى وتعمّر وتمصّر وما زُرع وما سُوِّر وما جُمع وكل سدّ وبركـة وسياج وكـل بئر

وثلم وريّ وسقي وحـاووز. وكل طـريق ونظام. حليفـه ضرس لا يشبع ونـاب لا يعقل ونار يشرّخها الإهمال وغريزة تدمير لا يردعها وعي ولا عقل ولا تهذّب بآداب العمران.

التاريخ جُلُّه ردع بداوة وغجر، وصدّ غزاة وقـراصنة، ومقـاومة استبـداد وطغيـان واستعمار واستغلال اقتصادي وتشويه ثقافي.

ارث كنعان وملكوت آرام

الخميرة الأولى بناها الحميري الكنعاني السوري. الكرمة المباركة أولدت وأفرخت وتوسعت إلى افريقيا سعيدة وموحّدة منذ طبرق حتى الأطلسي ومنذ المتوسط حتى النيجر والكامرون جنوباً، ومنذ جزر المتوسط الغربي واسبانيا والخالدات وامتداداً حتى أقصى الشمال الأروبي.

الرجال الحمر اليمنيون، المختمرون بالحضارة السورية هم أخضلوا منذ مطالع التاريخ أرض اليمن وحضرموت والخليج والقرن العربي وانتقل منهم جاليات طلائع ثم هجرات مكثفة إلى ساحل المتوسط الشرقي ثم إلى كريت وقبرص ورودس وثم إلى المغرب الكبير. اليمن السعيد أفرخ فنيقيا السعيدة ثم افريقيا السعيدة. وقوام هذه الحضارة المسكونية المدى توأمة بين الماء والأمن. في افريقيا = موضوعنا = احتفرت العبقرية القرطاجية في صميم الروح الأفريقية وقولبتها وتصاهرت معها كما بين معلم رسول وشعب أحبّه وأحبوه. وقرطاجة بحضارتها الدهرية ومواريثها، لا تكتفي بوعظ وحكي وثرثرة ونهب وغزو بالقوة وبأفقار الشعوب. فتلك ستكون صفة روما. أما قرطاجة فشأن مختلف لأنها عربية وكنعانية ومشرقية الأصول. حبّها لشعوب افريقيا جعلها تستنبط المياه في الصحراء والجبال ومن الصخر، وهي شيمة الأنباط بني العمومة بشكل أخص، ووحّدت بين الآبار والمسافات والمراحل اليومية والواحات والقبائل المجاورة والحمى والتعاهد وتبادل المنافع. ما من أفريقي يرى القافلة أو يسمع أجراسها أو ترعى في عشبه أو تمر في حماه أو تنتج في واحته وحَرّته أو تصطاد في مقناصه ألا وهو مشارك

في المنفعة سائقاً أم حارساً أم راعياً أم صناعاً محترفاً أم متعهداً أم بأي مساهمة أخرى. ينبغي تعدد الأنواع والصفات لكي يقوم عالم متكامل. ومهمة قرطاجة المعلمة الرسولة هي أن تخطط وتدير وتدبّر وتنسّق وتضبّط وتحمي الورشة الأفريقية العظمى ما بين بحّار وتاجر وفلاح وصنّاع وقوافلي ومزارع وراع، بين ساحل وريف وبلاد وصحراء، بين سفينة وجمل، وبين أبيض وأسمر وأسود، وبين أسواق وأسعار وعملة ومقايضة.

ألأفريقي وقد تعرّب حضارة وعمراناً وثقافة، برغم لغات ولهجات وترجوم، لم يعد يتعبّد لألفاظ قد تموت ولتدابير قد تتبدل وطقوس من صنع إنسان ومكان وزمان. بل جذبته مدنية قرطاجية أصيلة وأثيلة أعطته كثيراً قبل أن تأخذ منه بالحلال بناءً لقوانين وأعراف وتقاليد ليست بغزو ولا تشليح ولا تشبيح. بل كان الأفريقيّ ممتنّاً من كنعانية محلية تفتح له المدى شرقاً عبر أهل وأقارب وأرومة، نحو معابر مصر وموانىء سورية وطرق آسية القارّية وأسواقها، ونحو الحبشة وباب المندب وأعماق السودان.

دليلنا والشاهد، والتاريخ حيٌّ يُقرأ، أنه لما جاءت العروبة الإسلامية بعد العروبة الكنعانية اليمنية، وجدت أن قرطاجة غرباً وسورية شرقاً قد صمدتا ضد الهلينية واللاتينية ألف عام صموداً مجتمعياً لغوياً ثقافياً برغم الإنكسار العسكري. وتبدّى بلمحة كأنّ روما لم تكن، وأن افريقيا أرضها والإنسان والتاريخ لم يقهرهم ولا بدّلهم ألف عام من الابتزاز والغزو والاستبداد والاستغلال. بل تغلّب عليهم كدّ صامت وصبر مؤمن وماء ظلّ ينبجس ومواريث تعاون وأخوّة بين الغلابى والمقهورين والمحرومين وبين البروليتاريا الخارجية في العمق الصحراوي. فما أن أطلّ الفارس العربي حتى انبعث حنّون وأهله من أكفان الرقدة الموقّتة، وحتى استفاق ماغون وأهله وتعملق هملقار وشعبه وهانيبعل والخالدون واليسار وصفية ونساء افريقيا وعزروبعل وكل الناس. كانوا ينتظرون راقدين في أكفان مقدسة فلم يأكلهم البلى ولا نالهم فساد ولا ابتُلوا بنسيان هوياتهم وأهلهم وشعبهم وقوميتهم. والتمع أمام الجميع، وافريقيا أدركت، وروما فوجئت، أن روح العروبة التي تمرّست في حضرموت وسورية وافريقيا تظل تنبجس مع الماء والجهد والسعي، ومع مكارم الأخلاق، ومع الشعر وقدسية الكلمة في أدب وكتاب وذاكرة. وأدركت المسكونة أن ثمة إنسانين وحضارتين وأرضاً واحدة وسماء واحدة: إيل ليس يهوه في

أي حال من الأحوال، ولا يمكن أن يصبح جوبيتر. الإرث الفنيقي لا يمكن أن يرثه أحد من خارج الشرعية القومية. إنه نذر ذرّي وإرث عام ووقف يعرفه ذووه.

الإرث الكنعاني، الفنيقي الحميري الحضرمي، هو عقل وشرع وإيمان وقانون ونظام وعمل وعدالة، ويشدّه ويخضله محبة ورحمة وإحسان، ويقونه روح مجتمعية تعاونية مشاركة، وأصالة قومية ذات قوى مجتمعية تؤدي الحقوق وتكرّم العاجز والقاصر والمريض والمحتاج، وترفع من قيمة الأمة في الحلبة المسكونية.

ويميز هذه العروبة الجامعة، الموحدة الجوهر والقيم، والمتعددة الوجوه والمظاهر، أنه إذا اختلّ الميزان في أي من أرجائها اختلّ ميزان الكون وارتجّت أقاصيه وأدناه، وتكالبت عليه الأمم وتذابحت. فأيّ سرّ فيه؟؟.

* * *

الإرث الكنعاني، من ضمن مفاهيم التكامل المجتمعي والجغرافي والإنتاجي، هو معالجة لشأن البداوة ودورها في الورشة القومية الواحدة، سواء أحصلت وحدة سياسية إدارية أم توزّعت سيادة وإدارة، مع أن حالة الوحدة أفضل لا ريب.

الإرث الكنعاني، أكثر من سائر توائمه، هو منهج للتعاون المثلث ما بين استقرار مدني وعمران مع بداوة مترحلة ومع انفتاح بحري تجاري. الأول زراعة ذات ريّ وسقي وأمطار موسمية وفصول واضحة ومواصلات وأمن وحكم وعلوم وتسجيل ودين وشرع وأعراف وبذار ومؤونة وفلاحة وبستنة وصناعة وتجارة. الثاني أرض غير ذات زرع، وإنتاج قنص ورعي وقوافل تنقل ما ليست تنتج، وترحّل وسكنى خيام وتفتيش متواصل عن ماء وكلاء واحتراب وغزو وتزاحم عليهما، وحياة شظف وجهالات وثارات، وانقضاض على الحضر الأقرب إذا أمحل العام وعزّ العام. الثالث سواحل وخلفياتها وسفن وماء وسفر وتبادل ونقل، وغياب وإياب وتجدّد واطلاع باكر على مآتي الإنسان والناس.

والوجه الأول من هذه الشراكة المتفاعلة يميزه الاستقرار وتوابعه، في ريف ومدينة وسواحل وأنهار وينابيع وآبار وبستان وحقل وكرمة وطاحون ومعصرة ومعمل ومهن ومحترفات وأسواق دائمة وعنبر وبيدر ومسطاح. إذن عمران ويد تبني وتصون دوماً وتعمّر الشلقة وترصّن الحيطان وتنظف السواقي والمجارير وتعالج الإنتاج الخام بقصد حفظ

ومؤونة وتصنيع وبيع واستهلاك وديمومة أقلّها عام واحد. ولكن أقصى هومه نرصّد للإنفجار السكاني في البداوة، وللنزّ المتواصل المتسلل إلى الحضر، وللهجرات الجماعية التي يكاد العارفون يحدسون حصولها المفجع.

الإرث الكنعاني في سورية استطاع ان يتهرّب من هذه المهمة لأنه التجأ على الساحل الغربي في ملجأ وحماية ومنجى من المواجهة المباشرة مع خطر الاجنياح البدوي المفلت من مطلق عقال ما سوى الغزو الكاسح. أما الكنعاني في قرطاجة فقد اقتحم هو إلى البداوة والريف وداخل البلاد. وقد استفاد من تجربتي حضرموت وسورية واستن نواميس أخرى أملتها الجغرافيا المغربية وعمّق الدروس التي احتملها من خبرته المشرقية. فتفهم البداوة الأفريقية ووظّفها في مشروعه الواسع وصدّها بتأديب قوي وبسلاح الماء الذي به كل شيء حي.

الأمن ملح الأرض والمجتمع، وأما الماء فحياتها. وتضافر أمن وماء يقيم أود المجتمع ويؤسس للتكامل الاقتصادي الذي هو عامود الوحدة القومية وصاهر المجتمعات والأقوام. وبدونها يتسيّب الرزق والإنتاج، ويقضم الجمل الأخضر واليابس والعالي والواطي ويكمل الخروف على كل جذر منسي، وإذا انوجد الماعز فإنه صنو الجراد. وفي جميع الحالات يجتاح الأعرابي البدوي كل زرع وضرع وعمار وكتاب ومنشأة ومؤسسة، وتعودالحضارة والعمران قاعاً بلقعاً.

عروبة وإعرابية بدوية لا تتساويان، كما لا يستوي أعمى وبصير.

البداوة الإعرابية هي خُرّاب البادية وتدمير الحضر، فضبطها الكنعاني القرطاجي بقوة رادعة ونظام اقتصادي تعاوني وبثقة وتفهم، وبدون ظلم ولا ابتزاز. وهكذا يتأتى للعروبة المدنية الحضرية لجم الأعرابية وتحضيرها وامتصاصها. ولا يمكن لأحد أن يعالج البداوة وشرورها إلا إذا كان معافى قوياً وغيوراً وحكيماً، وإذاك يفكر ويجرؤ ويعمل وتتضاعف جرأته وأجره وانتفاعه. وإذاك يذهب إلى الصحراء قبل أن تهجم هي عليه، وقد لفحه منها صوفية وحنين، ويُقبل إليه البدوي وقد امتلأ رغبة إلى الحضر والنظام والنظافة والعمل المتعاون مع أخوته وبني عمومته الحضريين.

المهم أن القرطاجي اكتشف صيغة الحرية المشاركة وألغى صيغة تابع ومتبوع ومترف وكادح وأعمى يستغلّه بصير.

* * *

ومع ذلك، ماتت قرطاجه. وقد قتلها همجي روماني وغبي بدوي، وربما شيخوخة أناخت بالفارس وفرسه. فهل هرمت قرطاجة فعلاً؟.

لا بدّ للجواب من بانوراما معمّقة. قرطاجة لم تنشأ من العدم. بل هي بنت حضارة حية وأصيلة وذات سجل ثري:

- هذه الحضارة اكتشفت أو طوّرت الأبجدية، ولم يعد أحد إلى تطويرها من بعدها.

- واكتشفت النجمة القطبية. الأغريق أسموها النجمة الفنيقية.

- وأهل هذه الحضارة هم، على اليقين، آباء الأوديسّي.

- وهم اخترعوا الزجاج وصفّوه وشفّفوه وعمّموه على الناس.

- وهم بناة أشهر أبنية راح الناس يدّعونها.

- وهم أكبر مغامري ملاحة واستثمار ربّيح ومشترك.

- وهم أمهر بحارة وملاحين وقوافليين وفرسان وجمّالة وبنّائين وحرفيين وصيارفة وتجار وفلاّحين.

- وقرطاجة ذاتاً دولة ومجتمع وشعب وإمبراطورية وعاصمة ونظام يديرهم مجلس سُفّاط شيوخ قلّدته الأمم ولم تزد عليه. وهي ذات جيش ومؤسسة عسكرية يقودها أمثال هانيبعل وعزروبعل وماغون ونخبة من ضباط أركان عليا وحرس مقدس ومعلّمي شعوب وأقوام وقارات.

فماذا قتل قرطاجة؟؟.

عندنا جواب واحد: أن الفيروس الذي قتل هذا العملاق هو أن الشبيبة كانت تكره القتال والحروب وتعشق السلم والتجارة والأعمال والمال. ومن العشق ما قتل.

خطأ قرطاجة المميت أنها أهملت تلقين أبنائها أعمق أمثولة في التاريخ. قرطاجة لم تعلّم بنيها أن أسوأ مصير لشعب متحضّر متمدّن هو الخوف من عدو همجي والتراجع إزاء الهمجية. فالحضارة تقتضي أن يكون دفاعها ذاتياً ومنها وفيها لا مستأجراً. السور العالي ينفع، والخندق العريض ينفع، والمدفع البعيد والثقيل ينفع ولكن... إذا تولاّها

مقاتل قومي مثقف صادق ومؤمن. وإلا انـدفع الهمجي داخـل البستان والكـرم والحقل والحـديقة والمتجـر والمصنع والمـرفـأ يحـدوه غـزو ونـزو. وليس يحمي النسـاء والأعـراض والمصالح سوى قوة بالغة التنظيم والدقة والتقنية والسلاح ونفسية عالية ومنـاقب لا تلين. الأرض والعرض والحضارة يحميها صدر الرجل وزند المقاتل وحماسة المرأة ورصانة الصبية ومشاركة المجتمع في القتال. . . والاستعداد للقتل قبل الاستشهاد.

السيف من ضرورات الحضـارة. وآلة الحـرب رمـة ضرورة. والتـدريب للجميـع بغيـر محاباة هو الأساس. والجيش سياج وسقف وقوة مهاجمة. الدفـاع وحده لا يكفي. والاستعداد واجب، والتحضر حصافـة. وليست تنفع شيئاً مبادرات الساعـة الخامسـة والعشرين ولا الفوضى والضوضى والنفاق والاستلشاق. والبـطولة لازمـة. وأرقى المراتب بـطولة مؤمنـة مؤيدة بصحـة العقيدة وجيش قـوي ذو قيمة فعليـة في تقريـر مصـير الأمـة والوطن والحضارة. وإلا تحوّل القتال إلى سرقة واستغلال وإلى مرتزقة يسرقون ثم يهـربون عند الفزع.

قرطاجة أهملت جيشها خوفاً من القواد وعادت إليه وإليهم بعد فـوات الأوان وبعد تندّم على عدم الأصغاء لهانيبعل ومدرسته وتياره. فلما نادت فتـاها كـان السيف الرومـاني قد أسلط وسبق.

وقلّما عرف التاريخ انكساراً أغلى من انكسار قرطاجة.

إذا رثيتم قرطاجة فقولـوا: أكثرتِ حضـارة وتمدنـاً يا بنت كنعـان، واستزدتِ ثقـة بإلهك!! الآلهة لا يحاربـون. بل غلبـك الهمج لأنـك جعلت حـاميهـا حراميهـا واستعنت بالمرتزقة والمؤلفـة قلوبهم وبحلفاء السـوء، فيما بنـوك لا يستظلون ولا يـظللونك بسيـوفهم والرماح.

حكمة التاريخ تقول: «حُماتها بنوها. وما فاز بالسؤدد إلا الجسور».

خاتمة

إذا...
إذا كان هذا الكتاب قد أفاد،
أو أثّر،
أو أقلق،
أو حرّض على تفكير،
أو عَقَدَ جَدَلاً،
أو استثار إلى تأمّل وسكينة،
فصحّح خطأ،
أو ولّد قناعةً
أو ثبّت حدْساً،
أو أطرب هوى،
أو محا شكّاً.
وإذا فتّح بصرا وبصيرة،
أو هدى وجداناً ضالاً
أو أنار عقلاً جهولاً،
أو ردع مستعجماً،
أو وضّح عروبة دهرية
وفصّل عروبة حقيقية عن عروبة وهمية.

فمعناه أن في هذه الأمة رجالاً نهضويين حفظوا ذخيرة الحرية ووديعة الكرامة، ونعمة العنفوان.

وأنهم لا يزالون يعشقون بحثاً مفيداً، وحواراً راقياً.

ومعناه أن في هذه الأمة نخبة معاكسة كيّسة كريمة شغوفة بالحق، وأنهم يشغّلون عقلهم النقّاد الممحّص، ولا يقبلون أن تتعطل المصفاة التي تقي ذاكرتهم من الجَلب المفروض باسم عصمة من فوق أو انضباط اختزلوا منه العقل والوجدان والمعارضة والمشاركة والحرية والذكاء والأصالة.

بو علي
شوقي خيرالله

20 نيسان
1992

كلمة الغلاف بقلم الياس دعبول

منشورات المركز العلمي

قرطاجـــة
العروبة الأولى في المغرب

هل هي الأولى حقاً أم لعلّها تالية لسابقة؟ سؤال راح العلم يطرحه جديّاً وكأنّه ينتظر جواباً.

أمّا في التاريخ الجليّ جلاءً علمياً كافيا فإنّ شوقي خيرالله - بوعلي - يخوض في العروبة القرطاجية = وأرومتها - كما نحلة في جرود لبنان وكما السفن الفنيقية في اليمّ، وكما قوافل الجمّالة في الصحارى والبرّ.

المؤلف هو، في شؤون الحضارة والثقافة والنهضة، هو بحّار روّاد مجاهيل، مفلّق كلمات، ومجنّح عبارة بقدر ما أنّه رحّالة جمّال قوافلي ودلول وحارس معاً إنّه رسول أفكار وعقيدة يفاعلهن بحقائق التاريخ ونواميسه.

ما قابلته يوماً إلا ورأيته يحمل هموم النهضة وسورية والعروبة الواقعية وعلوم بابل وحضارة سومر وأمجاد أشور ولغز الآراميين ويصاهرهنّ مع التاريخ الآتي. يحمل بوعلي الهموم الثقافية كما الشجرة ثمارها وكما القوافل أحمالها. وبوعلي مصاهر لجميع الأزمنة الغابرة والآتية.

أمّا سوراقيا سورية المشرق العربي الخصيب فكرمة دهرية زرعها لنا إيل ومجتمعاتُنا المتفرقة وبؤرُنا الانتاجية المتواصلات ما بينهنّ. الكرمة تعهّدتها حضارة شمولية ما تنزّلت من لوح محفوظ بل تنبثق بغير انقطاع من مجتمع ذي حياة لا ينفكّ يتكوّن عبر تاريخنا المتدثّر بالمجد والنّصر أم بالبأساء والضرّاء في مسيرة زمن يندثر متغبّراً على دروبنا.

الصعود والهبوط في مجرّة الدهور لم ينفصلا يوماً عن مشرقيّة عربية تتلقّف البداوة أبداً فتعرّبها تحضيراً واستقرارا في مشرق كما في نيل كما في يمن وفي مغرب.

المغرب فذلكم هو قرطاجةالعتيقة والجديدة وهو المغامرة العظمى التي اقترحها وافترعها وابتدعها الإنسان الأحمر - الحميري - الحضرمي الكنعاني الصوري.

ملحمته أسطورته مغامرته حضارته تلكنّ عناصر هذا الكتاب ومقوّماته.

الناشر